
منى سلامة
رواية
كيغار
الطبعة ١٠
عصير الكتب

كيغـار

الكتاب: كيغار
المؤلف: منى سلامة
تدقيق لغوي: إيمان الدواخلي
تصميم الغلاف: أسامة علام
التجهيز الفني: سارة صلاح
رقم الإيداع: 2014/22609
I.S.B.N: 978-977-85156-0-2

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي
اللجنة الفنية: د. إيمان الدواخلي/ د. أحمد إبراهيم إسماعيل
د. أحمد السعيد مراد/ أ.كمال اليماني
مدير التوزيع: عمر عباس/ 01150636428

لمراسلة الدار: Email:P.bookjuice@yahoo.com

عصير الكتب
للنشر والتوزيع

كيغـــــار

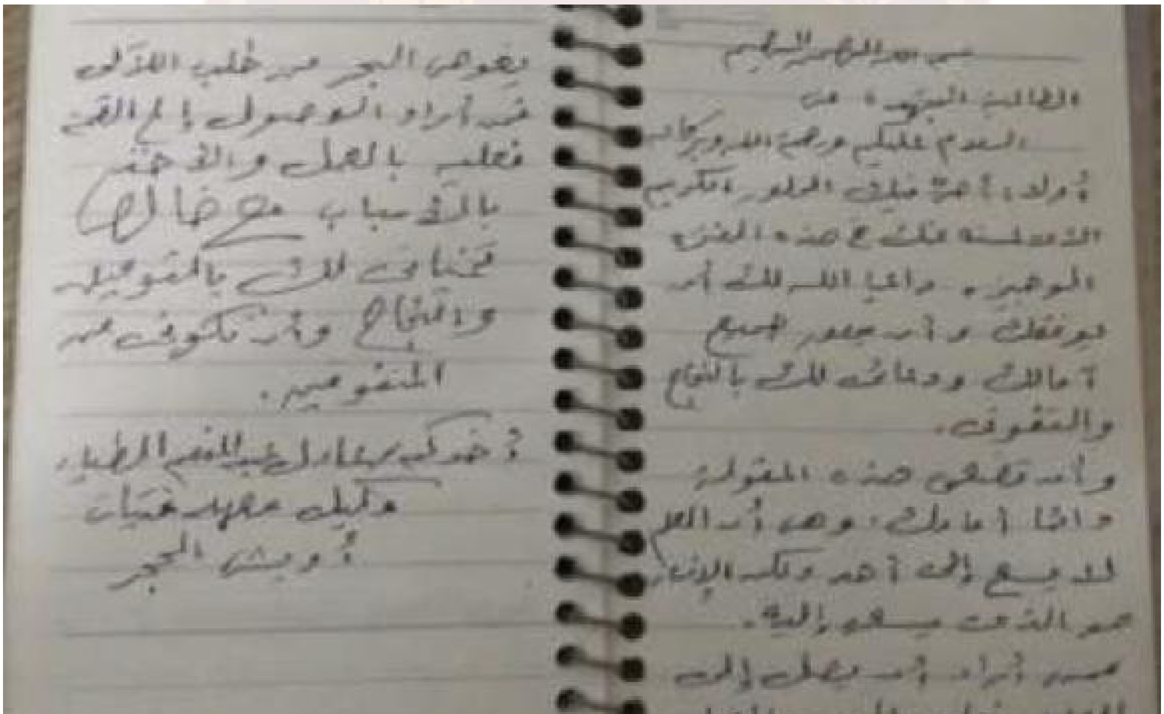
رواية

منى سلامة

عصير الكتب
للنشر والتوزيع

إهـداء

أحب أن أهدي روايتي المطبوعة الأولى إلى مدرس اللغة العربية الذي لا أدري إن كان على ظهر الأرض أم بباطنها؟ والذي خط لي بيده تلك الكلمات التي تركت في نفسي عميق الأثر منذ أربعة عشر عامًا !



بداية الحكاية

وقف متململًا يستقبل شآبيب المطر فوق رأسه الذي اشتعل شيبًا، يتلصق جلبابه الأبيض بساقيه الدقيقين، بفعل الريح التي سَهَكَت التراب عن الأرض. ضم طرفي ياقة معطفه الأسود إلى بعضهما يسد أي ثغرة أمامها، حتى لا تنسل إلى رقبته المتجمدة، التي تناثرت فوقها عروق زرقاء وتجعيدات خطها الدهر بأنامله.

نظر إلى عقارب الساعة الذهبية الكبيرة التي تبتلع معصمه الرهيف في جوفها، لتشير إلى السابعة وعشر دقائق. دس كفه المرتعش الذي هربت منه الدماء في جيب معطفه ليُدفئه. وعندما هم بالعودة إلى بنايته مرة أخرى، ظهرت على حين غرة سيارة أجرة من ذوات اللونين الأبيض والأسود، توقفت أمامه تقدم إليه دعوة صامتة للركوب في المقعد المجاور للسائق.

لبى الدعوة وهو يصفع باب السيارة بعنف، ثم التفت إلى السائق أشيب الفودين الذي تشبث بالمقود بيديه المكتنزتين المتصلتين بجسد ممتلئ محشور في مقعد السائق، يعلوه وجهٌ أبيض مستدير ذو أنف أفطس، وهو يصيح بغضب:

- كل ده تأخير يا "فرغلي".. ايش حال ما كنت منبه عليك امبارح انك ماتتأخرش.. وكمان قافل موبايلك!

انطلقت السيارة تشق طريقها وسط شوارع العاصمة.. سعل "فرغلي" بقوة، قبل أن يقول معتذرًا بلهجة متوددة بصوته الأجش:

- والله لو تعرف اللي حصل كنت عذرتني.. ده أنا على الطريق من امبارح.. وما لحقتش حتى أريح جتتي.. وموبايلي واحد ابن حرام سرقه مني.. آه والله يا حاج.

نظر إليه الرجل ذو المعطف شذرًا قائلاً بعدم تصديق:

- هاعمل نفسي مصدقك.

بادره "فرغلي":

- عليَّ الـ.......

- خلاص خلصنا.. سوق وانت ساكت.. قدامنا طريق طويل

ثم أضاف بنبرة خاصة:

- المهم أكون في "سيوة" النهارده.. لازم!

باهتمام سأله "فرغلي":

- اشمعنى سيوة يا حاج.. ايه اللي موديك آخر الدنيا كده؟.. مصلحة ولا حاجة تانية؟

بنفس النبرة الخاصة المغلفة بندم غير معلوم أسبابه أجاب:

- غلطة آن الأوان اني أصلحها.

لم يزد من إلحاحه في طرح الأسئلة.. كان يراه وقد تبدل حاله منذ أسبوع. على الرغم من صحبتهما الطويلة وتلاقيهما على المقهى يوميًا، إلا أنه رفض أن يصرح له عما ألم به. كان يراه شاردًا ساهمًا، ولأول مرة يرى هذا الرجل الفظ ينفجر في البكاء مثل صغير كسرت لعبته. ومنذ يومين، تلقى منه اتصالًا،

ليطلب منه أن يقله إلى سيوة. وعندما أبدى "فرغلي" اعتراضًا، لوح له بالمال الذي سال له لعابه.

حل الصمت ضيفًا مُرحبًا به بينهما طوال الساعة الأولى لهما على الطريق، إلا من بعض كلمات بسيطة كل حين، حيث بدا الرجل واجمًا لا رغبة له في الحديث. دس يده في جيب معطفه الداخلي الكبير، وأخرج منه دفترًا وردي اللون، وطفق يمسح دفتيه بأنامله المرتعشة برقة شديدة، تختلف كلية عن ملامحه القاسية التي لم تستطع الثنايا والتعاريج بصفحة وجهه أن تخفيها. أثار ذلك انتباه "فرغلي"، فتنحنح وهو يسأله بفضول اشتهر به:

- احم احم.. هو ايه ده يا حاج؟

زجره بغضب:

- انت على طول كده حاشر مناخيرك في كل حاجة.. سوق وانت ساكت.

التزم "فرغلي" الصمت.. يعرفه جيدًا، لا يمكن أن يستقي منه معلومة لا يريد الإفصاح عنها، فابتلع فضوله وهو يلقي نظرة على الدفتر، قبل أن يوجه عينيه صوب الطريق، فساعات طويلة من القيادة لاتزال في انتظاره!

****

- الله يخرب بيتك يا "فرغلي".. حاسب حاسب!

لكن "فرغلي" استمر في القيادة، قلل فحسب من سرعة السيارة هاتفًا بدهشة:

- في ايه يا حاج؟

قال الرجل لاهثًا وهو يشير بإصبعه المرتجف إلى الطريق وعينيه تتسعان حتى بدتا وكأنهما ستخرجان من محجريهما:

- بت.. كنت هتخبط بت!

- بت ايه يا حاج.. ده طريق سريع وأراضي زراعية حوالينا.. ايه اللي هيمشي بنات عليه.. تلاقي عينك غفلت وحلمت ولا حاجة؟

- لا.. في بت مرت من قدام العربية.. انت.. انت.. كنت هتخبطها.

- اللهم اخزيك يا شيطان.. والمصحف مافيش حد مر من قدام العربية.. هِهْ.

صمت الرجل، وبدت في عينيه نظرات غريبة قذفت الخوف في قلب "فرغلي"، فأخذ يسب نفسه سرًا أن وافق على هذه المهمة. قبض الرجل بأصابعه على الدفتر بقوة، وتحدث بصوت غريب عميق، شاردًا وعيونه تدور في الفراغ كأن أمامه ألبوم صور يتنقل من وجه إلى آخر:

- كانت بتجري في طريق زي ده... و...

أشار بإصبعه إلى الطريق مرة أخرى، وفي عيونه غيمة بدت غير قادرة على الإمساك بمائها، فلعن "فرغلي" في سره، وقد بدأ يشعر بخوف حقيقي على الرجل!

- انت كويس يا حاج؟

- "وعد"...

- وعد!.. وعد ايه؟

- هاحكيلك!

****

هرولت بقوة، لا تدري كيف دبت في قدميها، تبحث عن شيء ما، أو شخص ما، تتلفت حولها بجنون، لتعود وتجري بجنون أشد!

سمعت بوقًا لا تدري مصدره، فقد حجبت الدموع عن عينيها الرؤية. التفتت حولها.. وعندما تنبهت إلى المصباحين المنطلقين نحوها، جمد الخوف جسدها عن الحركة وعقلها عن التفكير، وهي تسمع صراخ عجلات السيارة فوق الأرض وسائقها يضغط مكابحها بقوة، إلا أنه لم ينجح في تفادي الاصطدام الحتمي، فقذفها، لتتدحرج فوق الأرض، قبل أن تخبت حركة جسدها والسيارة في نفس الوقت!

ترجل السائق وعلى وجهه أمارات الفزع، ينظر إلى الجسد المسجى أرضًا، يقترب منه بلهفة، ويديره ليلقي نظرة على وجهها المضرج بالدماء!.. حاول إفاقتها، فصافحه الفشل. هالته الدماء على ملابسها، فتركها أرضًا.. تجمهر بعض المارة، فحملها السائق بين ذراعيه وهو يغلظ الأيمان أنها لم تكن غلطته، وأنها ألقت بنفسها أمام سيارته فلم يستطع أن يتفادى الصدام. كانت المستشفى تبعد عن مكان الحادث بمسافة قليلة، فهرول بها إليها.

أشارت لهم الممرضة إلى غرفة، تركوا الفتاة فوق فراشها الأبيض النظيف، وما لبث أن لحق بهم طبيب شاب، أخذ يستمع إلى سائق السيارة الذي يصف لهم بتلعثم تفاصيل الحادث، ثم أمره بالانتظار في الخارج، وبدأ مع الممرضة في تفحص الجسد الهامد أمامهما.

وبينما كان الطبيب يتفحص رأسها وعينيها، كانت الممرضة تخلع الملابس عن سائر جسدها لتجهزها لفحص الطبيب، ثم ما لبثت أن قالت في دهشة:

- دكتور!

همهم متسائلاً وهو يكمل فحصه لحدقة العين:

- مفيش أي جروح في جسمها يا دكتور.

ضاقت عيناه وهو يتفحص رأسها وجسدها بدوره، ويتحدث إلى الممرضة -أو إلى نفسه-:

- ازاي يعني!.. ازاي مش مجروحة!

انتقلت حيرتها إليه، وتساؤلاته إلى رأسها، وتلاقت نظراتهما وبينهما ترتسم علامة استفهام كبيرة، لسؤال واحد تنطق به أعينهما: من أين أتت هذه الدماء التي تلطخ وجهها وكتفها وصدر ردائها؟!

****

ارتفع حاجبا "فرغلي" دهشة وهو يستمع إلى هذه القصة الغريبة على لسان الرجل الجالس بجواره. حاولت إحدى السيارات أن تتجاوزه، إلا أنه بعناده المعهود زاد من سرعة سيارته، ومال ليتجاوز السيارة التي أمامها برعونة، ليسبق كلتيهما ويصبح في صدر الطريق.

قال بفضول وهو ينظر في المرآة إلى السيارة التي خلفه:

- وبعدين يا حاج؟..

لم يتلقَ جوابا، فلف رقبته يلقي نظرة على الرجل الجالس بجواره، والذي سقطت رأسه فوق صدره وأغمض عينيه، فتمتم بغيظ:

- لحقت تنام!

استمر في قيادته قرابة ساعة أخرى، ثم توقف أمام كافيتريا بسيطة على الطريق، وترجل ليحضر الماء وبعض المأكولات. نظر من شباك السيارة إلى الرجل النائم وناداه:

- أجيبلك حاجة معايا يا حاج.. حاج!

ظل الرجل نائمًا، فأشاح بكفه وهو يدور على عقبيه مبتعدا عن السيارة. وماهي إلا عدة دقائق، حتى عاد إليها يفرك كفيه بقوة يلتمس الدفء ثم انطلق بها.

فتح قارورة مياة غازية، وتجرع منها حتى تجشأ. نظر إلى الرجل وهزه بلطف مناديًا إياه.. شعر بالقلق، فحاول إيقاظه بحدة؛ إلا أن الرجل ظل على حاله! فأخذ يصرخ عليه ويهز كتفيه بعنف، فبدا جسده وقد خبت فيه الحياة. فزع "فرغلي" هاتفًا بهلع:

- حاج!.. حاج!

أطلق سبة وهو يتوقف بالسيارة على جانب الطريق، ويلتفت إلى الرجل يهز كتفيه بعنف بقبضتين حديديتين، فينحني جسده إلى الأمام، ليتهاوى فوق قدميه. حاول أن يتفحص نبضًا.. نفسًا.. لم يكن متمرسًا على هذا العمل، ولم يستطع معرفة ما إذا كان الرجل قد فارق الحياة أم لايزال متمسكًا بها. وعندما هم بأن يدير مفتاح السيارة، اتسعت عيناه بفزع لا مثيل له، وشهق بقوة وهو ينظر في مرآة سيارته إلى... السيارة التي انطلقت كالسهم من خلفه، تدفع مؤخرة سيارته بعنف ككرة مضرب، فانزلقت على المنحدر بجانب الطريق، يختلط صوت احتكاك عجلاتها فوق الأرض بأنين خردتها، وبصوته الذي لم يتوقف لحظة عن الصراخ بقوة تخترق طبقات السماء.

لحظات ثم.. سكن كل شيء. فتح عينيه ونظر إلى كفيه وتلمس جسده، لا يصدق أنه لا يزال على قيد الحياة. خرج من السيارة، فلم يستطع أن يتبين ما حولها، لكثافة الغبار الذي أثارته سيارته في المكان.

بحركة سريعة لم يعتدها جسده السمين، عبأ جيوبه بكل ما يخصه ويمثل له أهمية ما، بعدما تقاذف في عقله احتمالية انفجار السيارة.. هكذا كان يرى في الأفلام الأمريكية التي شاهدها، إنه قانون لم تجرؤ أي سيارة على مخالفته، ولن تفعل سيارته هو!

دار حول السيارة بسرعة اهتزت لها طبقات جسده، وأحاط الرجل ذا المعطف بذراعيه يسحبه إلى الخارج. لم يكن الأمر شاقا، فالرجل كان بوزن عدة عيدان من القصب!

توقف عند كومة كبيرة من القش تبعد عن السيارة كثيرًا، اتخذها ساترا! وجلس لاهثًا يطبق بكفيه فوق أذنيه، ينتظر لحظة الانفجار. مرت عشرون دقيقة يختلس خلالها النظر من فوق الساتر إلى السيارة، التي ظلت قابعة في مكانها ببراءة. فلما يئس من تطبيق سيارته لقانون انفجار السيارات بعد الحوادث، بدأ يتحرك من مخبئه بحرية، يتفحص المكان حوله، ليجد نفسه فوق أرض زراعية تخلو من البشر. رمق السيارات القليلة التي تمر بسرعة البرق هناك في الأعلى، على قمة المنحدر الصخري، وصرخ بصوته الجهوري الذي يضيع في الفضاء الفسيح. ترك الرجل هناك -خلف كومة القش- وتقدم من المنحدر يحاول يائسًا تسلقه؛ لكن جسده الذي أنهكه التعب وأثقله الشحم واللحم لم يمكنه سوى من الصعود عدة خطوات فحسب.

مرهقًا يائسًا، يعود إلى كومة القش يجر قدميه خلفه، ويلقي بجسده بجوار الرجل، فاقدًا جل قدرته على إيجاد حل للخروج من هذا المأزق. لمعت عيناه بغتة، واندفع تجاه الرجل يفتش جيوبه، ارتسمت ابتسامة كبيرة على محياه وقد ظفر بهاتفه، لكن ابتسامته تلاشت وامتلأت عيناه بالغضب وهو يقذف به بعيدًا بغيظ، بعدما تبين له نفاد شحن بطاريته!

نظر بأسى إلى الأراضي الزراعية شاسعة المساحة، الممتدة حتى اتصال السماء بالأرض، يرى بينها بيوتا من طابق واحد، متراصة في صف، تبعد كل واحدة منها عن الأخرى بمسافة واضحة، ويفصله عنها ترعة صغيرة ممتدة يمنة ويسرة، يمنعه خوفه الماء من فكرة السباحة فيها للوصول إلى الضفة الأخرى. يظن أن قاع الترعة قد يكون بالعمق الذي قد يغرقه، فلم يسبق أن عبر ترعة من قبل!

لا حل سوى انتظار أحد المارة. هذه الأرض لها مُلاك، ويعمل بها أنفار، سيمر أحدهم حتمًا للقيام بعمله.

حانت منه التفاتة إلى الدفتر الوردي الذي أخرجه من جيب الرجل أثناء البحث عن الهاتف. امتدت يداه إليه بفضول، قربه من وجهه، قلّبه بين يديه ينظر إلى الوردة الكبيرة الملونة المرسومة يدويًا التي زينت إحدى دفتيه، وفي الأسفل رسم قلب صغير كذاك الذي يزين دفاتر المراهقين، يخترقه سهم كتب على مقدمته حرف باللغة الإنجليزية، وعلى مؤخرته حرف آخر!..

تساءل في نفسه بدهشة عن السبب الذي يجعل هذا الرجل يحمل دفترًا يبدو وكأنه ملك لفتاة.. فتح الصفحة الأولى، فسقطت بين قدميه صورة انقلبت على ظهرها، التقطها وهو يتأمل وجه الفتاة التي يراها للمرة الأولى. انتقلت نظراته من تنورتها الجينز الطويلة الواسعة، إلى قميصها ذي اللون الأبيض والذي تُعكر صفاءه بقعة خضراء كبيرة فوق ذراعها الأيسر، ظهرت بوضوح لقرب الكادر منها، تنظر شاردة إلى مياهٍ زرقاء اللون بشكل خلاب، محتجزة داخل حاجز حجري أشبه بحمام سباحة، تحيطه الرمال من كل مكان!

اقتطعت الكاميرا هذا المشهد فحسب، مع جزء من السماء الصافية، فلم تهدِه الصورة إلى مكان بعينه، ولا إلى هوية الفتاة. لكن شعورًا خفيا تسرب إلى نفسه، أنه رأى هذا الشبه من قبل.

ألقى نظرة على الرجل الملقى أرضًا، لا يدري إن كان حيًا أم ميتًا، ثم نظر حوله، يبحث عن أي بشري.. ثم يعود إلى الكلمات التى خُطت فوق صفحات الدفتر بخط أنيق.

وغاب في غياهب ما كُتب!

* * *

الفصل الأول

عثـرات

في إحدى الليالي الباردة، حيث يُرى وميض البرق يلمع في الثوب السماوي حالك السواد، يتبعه هزيم الرعد بدوي مزلزل يخترق الآذان، فجأة.. فتحت الصغيرة النائمة فوق فراشها عينيها، اللتين ما لبثتا أن اتسعتا هلعًا وهما تنظران إلى السماء اللامعة، من الفرجة الصغيرة في إحدى جانبي نافذة غرفتها، والتي لم تطلّها الستارة لتغطيها. أزاحت الغطاء عن جسدها الهزيل عُنوة، وتدلت بأقدامها العارية حتى لامست الأرض الباردة، وهي تتلمس طريقها بالضوء الخافت للمصباح المستكين على منضدة صغيرة بجانب فراشها، يطرق سمعها صوت شجار مختلطًا بصوت زجاج مهشم، يصدر عن الغرفة الكبيرة في نهاية الممر الطويل، والذي يبدأ بالصالة التي تسمرت قدماها بأرضها لا تجرؤ على التقدم. زادها صوت الصراخ المختلط بهزيم الرعد رعبًا، فأجهشت في البكاء بقوة وهي تنادي بكلمات فُقدت في ثنايا صراخها، فانفتح الباب فجأة، حتى كأنما قد فُتح في وجهها بابٌ من الجحيم.

لم تتمكن الصغيرة ذات الثلاث سنوات من استيعاب أسباب الشجار الدائر بين أمها وأبيها، يتخلله ركلات وصفعات استقرت في جسد أمها، التي صرخت

متوسلة متضرعة ليتركها، قبل أن تجد نفسها محمولة بين ذراعي أمها، فتشبثت في كتفيها تغرس بهما أظافرها بقوة كادت أن تدميهما. قفزت الأم مسرعة على درجات السلم، تودعهما لعنات الأب، الذي أخذ يتطوح يمنة ويسرة بغير اتزان، وهو يردد بلا انقطاع كلمة واحدة اخترقت أذنيها وحفظتها، دون أن تفهم معناها:

- لو خرجتي تبقي طالق.. طالق.. طالق.

****

حاولت أن تعاود للنعاس كرة، وهي ملتصقة بأمها فوق الفراش، لكن عبرات الأم التي تنهمر من عينيها فوق وجه الصغيرة كانت كمطارق دقيقة تسلبها النعاس، فرفعت كفها الصغير تربت على كتف أمها بحنان. ولجت صديقة والدتها إلى الغرفة، والتي فتحت لهما بيتها في هذا الوقت المتأخر من الليل ليتخذا منه ملاذًا، تحمل صينية وضع فوقها كوبان تتصاعد منهما الأبخرة، وكوب صغير يحوي عصيرًا، قدمته إلى الصغيرة التي أسرعت بالاتكاء على يديها جالسة لتشربه في نهم، ثم تمسح فمها بظهر كفها، قبل أن تستسلم أهدابها لخدر النوم، تستمع إلى حديث الصديقتين للحظات قبل نومها.

- تعبت.. كل يوم ضرب واهانة.. خاين ومقرف وحشاش.. وآخرتها طلقني!

****

أشرقت الأرض بنور ربها، عن يوم بدا لها كحبة عدس وسط طبق أرزق كبير.. دخيل، متطفل، مُشكِل! تشعر أن حياتها لن تعود إلى سابق عهدها مرة أخرى. نعمت بفترة سلام قصيرة أثناء تناول طعام الفطور مع أمها وصديقتها، قبل أن تكتشف أن هذه اللحظات لم تكن سوى الهدوء الذي يسبق العاصفة.

عاد زوج الصديقة من الخارج، والذي لم تلحظ متى غادر، لينفرد بزوجته في ركن قصي.

تعالت أصواتهما بنقاش محتدم، فضمتها أمها إلى جسدها بقوة، وكفها يحتضن رأسها ويعصره فى صدرها، تحميها من كلمات بدت لقسوتها وكأنها طلقات تندفع من فوهة بندقية مزخرة.

بدت الصديقة مطأطأة الرأس، وهي تسأل أمها بخجل كبير مغادرة بيتها، لئلا تتسبب في مشكلة لها وزوجها:

- جوزك هدده لو فضل سايبك هنا هيقطع عيشه من المحل

أرادت المرأة إخراج بعض المال من أحد الأدراج ومنحه إلى صديقتها، لكنها ما كادت تخطو خطوة، حتى فطن زوجها إلى نواياها، فرمقها بنظرة حادة زاجرة شلتها عن الحركة.

امرأة، وطفلة بعمر اليرقات، لازالت تحتجب عن الدنيا بغشاء رقيق بريء تسيران في الشوارع والطرقات نحو المجهول، بلا هدف، بلا زاد، بلا متاع. لا يزال عقل الصغيرة عاجزًا عن إدراك ما يحدث من حولها.. أعياها التفكير في شيء أكبر من أن يستوعبه عقلها الغض.

على أحد المقاعد العامة جلست تلتمس الراحة، بعدما تورمت قدماها من السير المديد، وبجوارها نامت الصغيرة ملتحفة بذراعيها وذراع أمها، التي حاولت به أن تغطي ما تستطيع من جسد ابنتها، تقيها شر البرد. كانت تفكر فيما آل إليه حالها.. كيف ستخرج من هذه الورطة، وهي من لا أهل لها تلجأ إليهم.. لا تملك حظا من التعليم يفتح لها مجالا للعمل، فلضيق العيش وظروف يُتْمِهَا لم تستطع جدتها- والتي كانت آخر من فقدته من عائلتها- أن تقدم لها الدعم لاستكمال تعليمها، فتوقف عند الشهادة الإعدادية. هي كذلك لا تملك أي مهارة خاصة تساعدها على إيجاد عمل تنفق منه على

نفسها وطفلتها، ولا مدخرات تحتفظ بها، وأخيرا فقد حالت طباعها التي تميل إلى الانطوائية والعزلة بينها وبين تكوين صداقات حقيقية تلجأ إليها وقت الحاجة، باستثناء جارتها، والتي لم تكن علاقتها بها متوطدة إلى حد كبير. لم يكن سبب انطوائيتها إلا الخوف من الناس، بعدما تجرعت الكثير من الآلام وحُملت بالكثير من الصدمات كلما حاولت أن تمد جسور الثقة بينها وبينهم.

استرعت بطول مجلسها وبجمال ملامحها التي أبت أن تتوارى خلف قسماتها الحزينة انتباه رجل أو رجلين يجلسان على المقاعد المتفرقة، فتسرب إليها شعور بالامتعاض وهي تنظر إلى أحد الرجلين بقوة، عَلَّهُ يحد من نظراته الوقحة التي يرمقها بها في إصرار؛ إلا أن قوة نظراتها لم تزد نظرات عينيه إلا وقاحة. وبزفرة ضيق، وتنهيدة مشفقة على قدميها من تحمل المزيد من الآلام، حملت الصغيرة بين ذراعيها تبتعد عن المكان، وسهام الخسة ترشق ظهرها.

لم تستطع الابتعاد كثيرًا، إذ داهمها ألم كانت تتجاهله طلية الأيام الماضية، لكن هذه المرة كان أكثر شراسة. ألم أعجزها عن حمل ابنتها، فتسربت من بين ذراعيها رغما عنها، فشاهدها بعض المارة، وسمع آخرون صوت أنينها الذي امترج ببكاء الصغيرة، التي أفزعتها أمارات الألم على وجه أمها. بعد أقل من ساعة، كانا في مستشفى قصر العيني، الأم تخضع للفحص الطبي، والطفلة تقف بجوارها باكية، بينما الطبيب الشاب يضغط بكلتي يديه أسفل بطنها من الجهة اليمنى، فيتجعد وجهها ألمًا، ثم يرفع يديه فتنطلق من بين شفتيها صرخة مكتومة نتاج ألم غير محتمل. أعلن الطبيب الشاب قائلًا:

- شكلها زايدة.

التقطت الممرضة المحنكة الرسالة الضمنية في كلماته القليلة، واتجهت صوب المرأة تشمر ذراعها، وتغرس المحقن في وريدها جاذبة بعض سنتيمترات من دمائها، وضعتها في علبة صغيرة تحوي مادة مضادة للتخثر وأحكمت

إغلاقها، ومن فورها توجهت إلى الخارج باتجاه المعمل. ألقى الطبيب تعليماته إلى ممرضة أخرى باصطحاب المريضة لعمل أشعة تليفزيونية، حيث تأكد التشخيص بالزائدة الدودية.

بينما كانت المريضة تستعد للخضوع لتلك الجراحة، اقتربت منها إحدى الممرضات وسألتها برتابة وهي تحمل دفترا وقلما:

- اسمك ايه؟.. عندك كام سنة؟.. بتاخدي أي أدوية؟.. عندك حساسية من دوا معين؟.. عملتي عمليات قبل كده..عندك أمراض مزمنة؟.. ضغط قلب سكر؟

أجابت بصوت متألم:

- أ.. "أمل".. "أمل رمضان".. 23 سنة.. لا ماباخدش أدوية وماعنديش أمراض.

انتهت من التلفظ بتلك الكلمات بصعوبة، لتعض شفتها السفلى بأسنانها وقد انعقد جبينها بشدة.

رقدت أمل فوق السرير المتحرك "الترولي"، تدفعها العاملات وهي تشيع طفلتها بنظرات قلقة مضطربة. لم يكن الخوف على حياتها ما يبعث البرودة بأطرافها، بل على حياة طفلتها ومصيرها إن استرد الله أمانته وهي في حجرة الجراحة فتترك تلك الصغيرة وحيدة بلا معين، بلا أب، بلا أهل، بلا صاحب.

غزت عقلها الأفكار السوداوية كخلية سليمة أصابها خلل فغدت سرطانية شرسة تتشبث بأنسجة الجسم بمخالبها وتتشعب وتتكاثر بلا رادع.

تفجرت مشاعر الأمومة بداخلها تعتصر قلبها ألما. بللت العبرات الساخنة صفحة وجهها وهي تعود سنوات إلى الوراء، تتذكر كيف كانت سعادتها بميلاد طفلتها ونبض فؤادها، فلولاها ما تحملت العيش مع رجل بعمر أبيها، بعيد عنها بفكره، بطبعه، بخلقه.. كان خارج دنياها.. تحملت غضبه وضربه

وإهاناته وكثير شطحاته وقسوة عباراته.. تحملت الذل والقهر والوحدة وتعدد نزواته وسفيه حكاياته..لا لشيء إلا صغيرتها التي رزقت بها من فور زواجها القسري، الذي أرغمها عليه يُتْمُهَا وفقرها وحاجتها إلى بيت من البرد يأويها، ورجل تحت جناحيه يحميها، وكسرة خبز وشربة ماء تكفيها. لكنها كانت كالمستجيرة من الرمضاء بالنيران؛ حماها البيت من برد الأرصفة والطرقات، لكنه لم يكن دافئا بما يكفي ليذوب جليد فؤادها. استظلت برجل لم يكن لها سوى جسد بلا روح. حتى كسرة الخبز، أحرقت جوفها وألهبته بنيران المال الحرام.

ولم يكتفِ بذلك، بل أصر على تنظيم سهراته اليومية مع أصدقائه في عش الزوجية، سهرات لا تكتمل إلا بما يفسد العقل والقلب تنخر الجسد وتشوه الروح, فأصبح بيته مشاعا للآتي والغادي، لا يمانع أن يدخل الصديق داره وهو غير موجود.

كم تشاجرت معه بسبب حرمة البيت المفقودة، وكم ضربها وقهرها وأذلها وهددها، إما أن تستظل بسقف بيته بشروطه هو بدون حساب أو عتاب، وإما الشارع!

كانت صغيرتها عاصمها الوحيد من الانتحار أو الجنون. أرادت لها أن تحظى بما حرمت هي منه.. أن تكون مالم تستطع هي أن تكونه.. أرادتها سعيدة؛ حتى وإن لم تذق هي للسعادة طعمًا.

اخترق أذنيها صراخ طفلتها من خلفها:

- ماما.. ماما تعالي.. ماما خديني معاكي.

فانتفض قلبها بمرارة عاجزة عن الركض إليها وضمها إلى صدرها تهرب بها إلى عالم آخر غير عالمهما.. عالم لا ظلم فيه.. ولا ألم.. ولا قسوة.

****

شعرت بأصابعه تتخلل خصلات شعرها، فالتفتت بحدة تبعد رأسها عن مرمى يده، فارتطمت نظراتها بابتسامة واسعة. لم تبادله بمثلها، وإنما عادت إلى التطلع أمامها مرة أخرى، تحاول بكفيها الصغيرين إخفاء آثار العبرات عن وجهها، فجلس إلى جوارها وهو يمد يده بقطعة شيكولاته، استرعت انتباهها فورًا، فاتسعت حدقتا عينيها إثارة وهي ترفع عينيها المبللة بالعبرات إلى وجهه، ومن ثَمَّ تعيدهما إلى قطعة الشكولاته مرة أخرى، فتلتقطها بأصابعها وتنقض على المغلف تحاول فتحه بأسنانها.

ابتسم مرة أخرى، وهو يتناولها منها ويفض المغلف، ثم يعطي لها قطعة الشكولاته المعدة للالتهام.

زام ما بين حاجبيه بشدة، يرقب كيف تأكل جوعًا لا تلذذًا، والتفت حوله، حتى وجد بغيته في ممرضة أشار إليها برأسه فتقدمت تسأله عما يريد، أخرج مالا من جيبه وطلب منها إحضار شطيرة وعلبة عصير من الكافيتيريا.

انصرفت تحضر ما طلب، فعاود النظر إلى الصغيرة التي علقت آثار الشيكولاته بشفتيها المكتنزتين. أخرج منديلا نظيفًا من جيب معطفه وقربه من فمها ليسمحه، فتناولت منه المنديل ومسحت فمها وتمخطت، ثم كورته بيديها وألقته أرضًا.

- ينفع كده؟

التفتت وعلامات عدم الفهم على وجهها، فأشار برأسه إلى المنديل الملقى أرضًا قائلًا:

- ينفع نرمي المنديل على الأرض كده؟

لم ينتظر منها ردًا، بل أشار إلى سلة قريبة قائلًا بنبرة تأديبية:

- خديه ارميه في الباسكِت.

ترددت لبرهة، ثم انحنت تلتقطه وتلقيه في السلة، ثم عاودت الجلوس بجواره. فابتسم بحنان يمسح على شعرها وهو يسألها:

- أنا اسمي دكتور "زياد".. وانتِ اسمك ايه؟

خرج صوتها يحوى بحة من أثر البكاء:

- "وعد"

- الله! اسمك جميل يا "وعد".

بادرته تسأل عن أمها، فطمأنها ببضع كلمات، قبل أن يسألها إن كانت تحفظ رقم أبيها أو أحد من أهلهما، فأجابته بإنكسار أن لا. لا تعرف أحدًا، ولا تحفظ رقم أبيها. ثم بدا وكأنها تذكرت شيئًا، فالتفتت إليه قائلة بنبرة حازمة:

- أنا مش عايزة بابا.. مش تتصل بيه!

عقد ما بين حاجبيه دهشة وهو يسألها:

- ليه يا "وعد"؟

قالت بحدة:

- عشان بابا وحش.. بيضرب ماما.. وبيعورها.. وبيشتمها.. أنا مش بحبه ومش عايزة أشوفه.

وصلت الممرضة وبيدها ما طلب، شرد "زياد" في كلمات "وعد"، وهو يتتبع عينيها التي تنظر إلى الطعام بلهفة، فأعطاها إياه. لم تنتظر إذنًا، بل بدأت فورًا في أكله بنهم شديد.

****

- يعني ايه مافيش معاكي فلوس.. أمال الأدوية والشاش والقطن اللي اتصرف عليكي في العملية مين اللي هيدفعهم؟

اندست "وعد" في أحضان "أمل" المستلقية على ظهرها فوق الفراش، تنظر إلى الممرضة ضخمة الجثة خشنة الصوت قاسية الطبع بعينين يقطر منهما الخوف، وهي تفرد ذراعها حول جسد أمها وكأنها تحميها من كلمات الممرضة ونظراتها الحادة.

ابتلعت الممرضة كلماتها، بعدما أتى صوت "زياد" من خلفها:

- خلاص سيبيها.

أرغمتها نظراته الحادة وكلماته الحازمة على مصمصة شفتيها والانصراف بغضب، تتمتم بكلمات استياء لم يسمعها.

اقترب من فراش "أمل" وهو يرسل بسماته لـ "وعد"، فاستقبلتها بسعادة، وأرسلت له بمثلها.. نظر إلى "أمل" قائلًا بهدوء وهو يتناول التقرير الطبي ليقرأه:

- أخبارنا ايه دلوقتي؟

- الحمد لله.

أضاف بضعة كلمات إلى التقرير، ثم نظر إليها قائلًا بابتسامته الهادئة التي تميزه عن سائر الأطباء الذين التقتهم منذ أن دخلت المستشفى:

- الحمد لله.. خلال يومين هتخرجي بالسلامة ان شاء الله.

من شأن هذه الكلمات أن تسعد أي مريض يتمنى الفرار سريعًا من جحيم أنين المرضى وغلظة الممرضات ورائحة المضادات الحيوية والبنج والقيح

والقيء؛ لكن "أمل" ظهرت على ملامحها مسحة من حزن. دفعه صمتها إلى أن يسأل باهتمام:

- مافيش حد من أهلك تتصلي بيه يكون معاكي هنا؟

قالت بخفوت:

- لأ.. ماليش إلا ربنا.

عاد ليسألها بنفس الاهتمام وهو يلقي نظرة على "وعد" التي تتوسد صدرها وهي تنظر إلى ملامح "زياد" الوسيمة:

- طيب انتى بتشتغلي؟.. ليكي مكان ترجعيله؟

هنا رفعت "وعد" رأسها تتمتم بتوسل وهي تنظر إلى أمها بحزن، بعدما ازداد بطش الجوع ببطنها:

- ماما أنا جعانة.

مسحت "أمل" على رأسها بحنان بالغ، وقد لمعت العبرات في عينيها ترمقها بحزن يختلط بالحيرة وقلة الحيلة، لا تدري كيف تجيبها. فطن "زياد" إلى وقوع المرأة في مشكلة. ولطيبته المعهودة، بدا أنه قرر مساعدتها، لكن أولًا فليحضر الطعام لتلك الصغيرة التي تتضور جوعًا.

****

فوجئت "أمل" بعرض "زياد" بالعمل في المستشفى ك "عاملة نظافة"، فسعدت أيما سعادة أن مشكلتها قد حلت بهذه السرعة. لم تكن المرة الأولى التى تشتغل بمثل هذه الأعمال؛ فقبل زواجها كانت تتنقل من العمل في المنازل إلى العمل في محل لبيع الطيور، ثم عملت لفترة كعاملة نظافة في

إحدى المدارس. وها هي تعود إلى ما كانت تفعله قبل أربع سنوات، لكن هذه المرة تحمل على عاتقها مسؤلية طفلة صغيرة، هي كل ما تملك من هذه الحياة.

توالت الأيام والشهور والسنوات، ولا تزال "أمل" تعمل في المستشفى، متخذة من شقة صغيرة -وفرها لها "زياد"- لا تبعد عن المستشفى كثيرًا مأوى لها. تقربت "وعد" كثيرًا من "زياد" وتعلقت به بشدة، وشجعها على ذلك ترحيب "زياد"، الذي كان مولعًا بالأطفال، خاصة تلك السمراء الصغيرة بعينيها البنيتين الواسعتين، والتي لطالما تطلعت إليه بهما بنظرات يملؤها الإعجاب والانبهار.

كانت الأوقات المفضلة لـ "وعد" هي فترة نوبتجية "زياد". وأسوأ أيامها وأكثرها حزنًا هو يوم إجازة والدتها من المشفى.

حلت ذكرياتها معه محل تلك السيئة التي تحملها لوالدها بين ثنايا عقلها.. استبدلت شراسة طباع والدها بطيبة "زياد" وحنانه، وتكشيرته وعبوس وجهه ببسمة "زياد" وبشاشته، وعصبيته ونفاد صبره بصبر "زياد" عليها وتوجيهها بنصائحه وتعليماته. كانت "وعد" تلميذة نجيبة، تستجيب لأوامره حبًا واحترامًا لا خوفًا و قهرًا.. وكان مثلها الأعلى دائمًا.. الصواب والخطأ هو ما يقره "زياد".كانت تحترمه وتحبه وتجله.. وتخاف أن تفقده. ولعل تلك الأخيرة كانت حافزها لتصبح كما يريدها هو أن تكون، وعاشت أيامها لا تقيم للدنيا وزنًا، فمن أي شيء تخشى في وجود "زياد"؟!

****

اندست بجسدها النحيل بين زميلاتها، تحاول بشق الأنفس الحصول على الورقة التي تحمل اسمها ونتيجتها بالشهادة الإبتدائية. وبعد عدة محاولات فاشلة، وقدر لا بأس به من الركلات والنغزات بالمرافق، خرجت "وعد" وهي

تستنشق نفسًا عميقًا، تعبئ رئتيها بالهواء الذي حرمتا منه وسط كومة اللحم خلفها. أمسكت الورقة بين يديها اللتين ترتعشان فرحًا وعينيها تلمعان وابتسامة كبيرة تزين وجهها، وانطلقت مسرعة في اتجاه المشفى. صعدت الدرجات بعجالة وهي تدس جسدها النحيل بين رواده.. لم تتوجه إلى أمها، التي كانت في هذا الوقت تنظف حمامات القسم الذي تعمل به؛ بل وقفت أمام أحد الأبواب المغلقة بالطابق الثاني.. التقطت أنفاسها لبرهة.. ثم طرقته بخفةكما علمها الرجل الجالس بالداخل. انتظرت بلهفة أن تسمع صوته يأذن لها بالدخول، ثم أدارت المقبض واشرأبت بعنقها تنظر من فرجة الباب إليه وهو جالس خلف المكتب.

رفع الطبيب "زياد" نظره عن الأوراق التي يحملها بيده ثم هتف:

- "وعد" قلقت عليكي اتأخرتي ليه؟

جلجلت ضحكات "وعد" وهي تقول بحماس بينما تصفق بيديها بجزل طفولي:

- نجحت.. وطلعت الأولى كمان.

نهض "زياد" من فوق مكتبه ودار حوله مقتربًا منها مقبلًا رأسها وهو يقول بسعادة:

- ألف مبروك يا "وعد".. أنا كنت واثق من نجاحك.. انتى ذكية ومجتهدة وربنا كافئك بالنتيجة دي.

قالت بزهو:

- وأنا هفضل أذاكر وأطلع الأولى لحد ما أوصل للجامعة وأدخل كلية الطب وأبقى دكتوره زيك.

- وأنا واثق انك تقدري تحققي ده.

ثم أردف مبتسمًا:

- وأول يوم ليكي في الجامعة أنا اللي هوصلك بنفسي.

هتفت بسعادة:

- بجد؟.. يعني ده وعد.

- أيوة وعد.. عمري وعدتك بحاجة وخلفت وعدى؟

هزت رأسها نفيًا بقوة وهي تتطلع إليه بإعجاب قائلة:

- لأ.. لما بتوعدني بحاجة بتنفذها.

- طيب جهزي نفسك بقى عشان أفسحك النهارده بعد ما أخلص شغل بمناسبة الدرجات الجميلة دي .

قفزت مرتين في الهواء وهي تصفق بيديها جزلًا هاتفة:

- بجد.. ؟

- أيوة بجد.. لكن استأذني من ماما الأول.

- ماما مش ممكن ترفض.. ماما بتفرح لما بكون معاك.

****

كلما ضاقت بنا السبل، تمنينا العودة إلى حيث كنا أطفالا صغارا. ليس لأن مرحلة الطفولة تخلو من المسؤلية الملقاة على عاتقنا الآن، وليس لأنها فترة اللهو واللعب والمرح، وليس لأن الحب فيها غير مشروط وبدون مقابل؛ بل لأن في مرحلة الطفولة لكل مشكلة حل. حل بسيط.. مُعجز.. ينأى بنفسه عن تعقيدات الحياة.

لذلك، لم تجد "وعد" أنه من الغريب أن تسأل "أمل" وهي جالسة معها على الأرض ملتفتين حول صينية تحوي طبقين من شوربة العدس وقطع من الخبز:

- ليه يا ماما دكتور "زياد" مايتجوزكيش ونعيش كلنا مع بعض؟!

توقفت "أمل" عن لَوك قطعة من الخبز في فمها وهي تنظر إلى "وعد" بدهشة كبيرة. فأردفت "وعد" بحماس:

- هو بيحبنا وأنا بحبه جدا.

هتفت بها "أمل" بحدة ممزوجة بالدهشة:

- انتي اتجننتي يا بت!.. مش عايزة أسمعك بتقولي الهبل ده تاني..

- ليه يا ماما؟

بعصبية أجابت "أمل":

- ليه ايه يا "وعد"؟.. انتي يا بت اتطسيتي في نظرك ومش شايفة عيشتنا الكرب ولا ايه؟.. مش شايفة الفرق اللي بينا وبينه؟.. مش شايفة ان أمك بتنضف وتمسح وتشيل كل يوم دم العيانين وقرفهم؟.. وهو دكتور وابن ناس ومِقتدر .. هو انتي عامية لدرجة انك مش شايفة ان البيت الوحيد اللي ممكن يجمعنا بيه هو البيت اللي أشتغل له فيه خدامة؟!

احتشدت العبرات في مقلتي "وعد" وهي تنظر إلى "أمل" بعتاب قائلة بصوت متهدج:

- بس هو بيحبنا.

انفعلت "أمل" ونهضت، تهيمن عليها بفرق المسافة بينهما وتصيح بغضب:

- بيحبنا؟.. قصدك بنصعب عليه ياختي.. زي الكلب اللي شوفتيه من يومين مرمي في الشارع ورجلة مكسورة ومش قادر يتحرك.. صعب عليكي وجيتي خدتيله أكل ومية وحطتيهم قدامه.. احنا بالنسبة لدكتور "زياد" زي الكلب ده مش أكتر من كده.

انتفضت "وعد" تغادر الصالة إلى الحجرة الوحيدة بالمنزل، وتلقي بنفسها فوق الفراش وهي تجهش في بكاء حار، بينما جلست "أمل" على مقعد بالصالة تستند بمرفقها إلى ركبتها وتمسك بأصابع يدها جبينها، الذي غزاه الصداع.

حاولت "وعد" النوم.. لكنه خاصمها وجافاها.. لماذا لا يكون الأمر بمثل بساطة تفكيرها؟.. لماذا يعقد الكبار كل شيء؟..

لم تكن شراسة المعركة الدائرة في نفس "وعد" بأقل شراسة من المعركة الدائرة بين جنبي "زياد" في هذه اللحظة، وهو مستلقٍ فوق فراشه متوسدًا ذراعيه من خلف رأسه، يتطلع إلى سقف الغرفة شاردًا.. كيف له الخلاص من مشاعر نمت بداخله ببطء طوال السنوات الماضية؟، كيف له أن يتجاهل نبضات قلبه التي ما خفقت إلا لتلك الجميلة الحزينة وطفلتها التي يشعر أن له فيها حقوقا كما لأمها؟ لم يزده خلقها وتعففها إلا اعجابا بها رغمًا عنه، ما أراد وما خطط لسقوط قلبه في حبها.

لكن من حسن طالعه أن كان لعقله الغلبة دائمًا في صراعه غير المتكافئ مع قلب يشتهي المستحيل, نجح دومًا في السيطرة على تلك المشاعر التي اعتبرها زلة لا تليق برجل مثقف ناضج مثله، واستطاع تجاهل خفقات قلبه بكلمات قاسية ساخرة يوجهها لنفسه، فيعود لسكونه وبرودة أركانه.

لكن هذه الليلة زاد من همه شيء آخر. كيف سيتمكن من الوقوف غدًا أمام "وعد" و "أمل" بثبات وهو يخبرهما بقرار زواجه وبعثته إلى خارج البلاد من أجل استكمال الدراسة؟.. كيف ستتقبل "وعد" فراقه عنها؟ بل كيف

سيتحمل هو مرور يوم دون رؤيتها؟..سيترك "أمل" وحيدة بلا دعامة وقد كان هو دعامتها الوحيدة طيلة السنوات الماضية.

تذكر يوم أن تعرضت "أمل" لمضايقة من أحد زملائه الأطباء، وكيف كان ينظر إليها كصيد سهل، كيف لا وهي الجميلة المطلقة اليتيمة الفقيرة، تذكر كيف جن جنونه وقتها وحماها منه ومن غيره فما عاد يجرؤ أحد على الاقتراب من تلك المرأة التي تهم دكتور "زياد"، فكيف به يتركها الآن وحيدة بين بشر بقلوب مريضة وعقول مغيبة ونفوس مشوهة؟!

لكن ما ينتظره الجميع، وما يريده لنفسه هو الزواج من زميلته الطبيبة، والتي تتحد أهدافهما وسبلهما في الحياة، وتلك المنحة التي رزقه الله بها هو وعروسه المقبلة لاستكمال دراستهما بالخارج. إنها ليست زوجة مناسبة له فحسب، بل تعد زوجة مثالية.. لهما نفس الأهداف والاهتمامات، ويتشابه مستواهما الاجتماعي والثقافي إلى حد كبير، فلن يتخلى عن عروس كتلك!

الحب؟.. من قال أن الحب ينجح بذاته؟.. كيف تنمو نبتة في تربة غير صالحة؟.. كيف تثمر وتزدهر في ظروف لا تناسبها؟ كيف لنبات البستيا المائي أن ينمو في تربة طينية موحلة؟!

****

تَعَلَّمَتْ "وعد" الدرس الأول في الحياة وهي بعمر الثالثة، وكان: "قد تنقلب الحياة رأسًا على عقب". حينما نظن أن المياه راكدة لا تتحرك قيد أنملة، يسقط فجأة حجر يحيل الصفحة الساكنة إلى دوامات مضطربة آخذة في الاتساع.

درسها الثاني تَعَلَّمَتْهُ في الحادية عشر: "السعادة كحفنة رمال في قبضة مغلقة بقوة، مهما كانت قوة تلك القبضة، ومهما طال تماسكها، سيأتي اليوم الذي تنبسط فيه الأصابع لتتسلل ذرات الرمل من بينها دون أن تدري!".

ظنته في البداية يحاول خداعها، أو حتى عقابها، لكن عندما أيقنت أن كلامه جادًا لا مزاح فيه، أخذت تصرخ وتبكي..

- انت كدبت عليا.. انت وعدتني انك هتوصلني الجامعة أول يوم.. انت وعدتني انك هتخليني دكتورة زيك.. انت وعدتني انك مش هتسبني زي بابا.. انت قولتلي ان الكدب حرام.. بس انت كدبت عليا.

جذبتها "أمل" بقوة من ذراعها وهي تنهرها:

- "وعد".. عيب تقولي لدكتور "زياد" كده.

أشار "زياد" بكفه لـ"أمل" لتترك "وعد" وشأنها، أرادها أن تفرغ الغضب الذي يأكلها كما تأكل النار الحطب، ولعله أراد جلد نفسه بسوط كلماتها؛ لأنه وعدها بمنح ما لن يستطيع، ورسم لها حلمًا، وأنار لها طريقًا خطت فيه جاهدة وقبل أن تبلغ نهايته أخذ المصباح وانصرف!

قالت بصرامة وقسوة لا تناسب طفلة بسنها وبعينيها فيضان مالح:

- ماعدتش هصدقك أبدًا.. مش هصدق أي حاجة تقولها.

حاولت "أمل" زجرها، فأشار لها "زياد" بكفه ثانية.

فوجئ بـ"وعد" تندفع كالسهم إليه وتطوق وسطه بذراعيها وقد تعالى صوت بكائها:

- أنا آسفة.. مش هقول كده تاني.. بس متمشيش.. أنا آسفة.. هسمع كلامك ومش هقول حاجة تزعلك بس متمشيش.

جثا على ركبتيه وهو يتمسك بكتفيها وينظر إليها بعينين غلبهما التأثر فالتمعتا بالدمع:

- أنا ماكدبتش عليكي يا "وعد" لما وعدتك انك هتكوني دكتورة زيي.. انتي تقدري تذاكري وتنجحي وتتفوقي سواء أنا كنت معاكي ولا لأ.. لانك بنت ذكية وشاطرة وهتكوني أحسن دكتورة في الدنيا.

اختنقت كلماتها بعبراتها قائلة بتوسل:

- ماتمشيش.

بألم قال:

- لازم أسافر.. فترة وهتعدي وهرجع هنا تاني.. صدقيني هرجع تاني.

هزت رأسها نفيًا بقوة وهي تنتحب قائلة:

- لأ مش هترجع.

أحاط وجهها الغارق بعبراتها بكفيه وهو ينظر إلى عينيها بثقة قائلًا:

- هرجع.. وعد اني هرجع تاني.. وعد.

صمتا ينظران إلى بعضهما البعض لبرهة، و "وعد" غير قادرة على إيقاف ارتعاشة شفتيها أو انتفاضة جسدها بشهقاتها المكتومة. عانقها طويلًا، وعبراته تبلل ظهر فستانها الذي أهداه لها يوم نجاحها!

****

شعور مدمر فقد الأب فجأة وانقطاع مشيمة الحياة بينه وبين أبنائه. لكن ماذا إن فُقد الأب مرتين؟!

أب تربطها به كل ذرة في جسدها وكل قطرة دماء في عروقها، وآخر يربطها به كل نفس في صدرها وكل ذكرى في الصندوق الصغير الذي تخفيه في إحدى الحجرات السرية بقلبها.

سألتها "أمل" يومًا: أنا مش كفاية عليكِ؟!

فاستقر في نفسها أنها لا تكفي.. نبع الحنان الصافي بحياتها لا يكفي.. الصدر الوحيد الذي تلقي بهمومها فوقه لتنساها لا يكفي.. القلب الذي يحترق لحزنها ويضج بالسعادة إن ابتسمت لا يكفي. تظل روحها تواقة لشيء لا تستطيع ألا تفكر به.. شيء ضائع في بئر عميق تعلم ألا أمل في أن تجده يومًا. شيء لم تجده إلا عند "زياد"، قدمه لها دون أن تطلب وبلا مقابل. لكنه لم يخبرها أبدًا أن وهج السعادة قد يأتي يوم ويختفي, فخاصمتها البسمة بعد أن كانت لوجهها رفيقة!

أيام من الصمت تحرق أيامها وروحها، تظنه نسيها، فيعود صوته الحاني ليخبرها أنها ابنته حتى ولو لم تكن من صلبه..

أينسى الأب ابنته؟! تهرب بعقلها من السؤال.. تتجاهل انقباض قلبها وتلك الغصة في حلقها.. تجيب متظاهرة بالسعادة دون تفكير؛ لأنها تخشى التفكير: لا.. لا ينسى الأب ابنته!

ثم تنتهي المكالمة التي غالبا ما تكون قصيرة، لتسأل نفسها نفس السؤال:

أينسى الأب ابنته؟!

لعام من بعد سفر "زياد" ظلت "أمل" تتلقى المال الذي يرسله لها عند بداية كل شهر من أحد أصدقائه. نفس المال الذي كان يهبه لها عند بداية كل شهر

عندما كان في مصر، ومنذ أن بدأت بالعمل في المستشفى قبل سنوات. اعترفت لنفسها أنها في أمس الحاجة لتلك المساعدة التي يقدمها لها بلا مَنٍّ أو أذى، فقبلتها منه مرغمة.

الآن، عام كامل لم تر صديق "زياد" فأصابها الحزن والغم. أنسيهما في خضم الحياة وزخمها، أم اللوم على صديقه الذي تقاعس عن تسليم الأمانة لأصحابها؟!

مثلما انقطع المال، انقطعت أيضًا اتصالات "زياد". تباعد الوقت بين كل اتصال وآخر، حتى توقفت وانتهت مع نهاية العالم الثاني لسفره. ككل شيء جميل ينتهي، ككل نجم لا غرو أن يأتي وقت ويأفل. توقفت عن التفكير في السبب، فلن يغير ذلك من حجم المشكلة التي تواجهها، فبذاك المال كانت تدفع الإيجار وفواتير الكهرباء والغاز والمياه، وما تبقى تضيف عليه راتبها فيكفيها بالكاد إلى نهاية الشهر. استدانت من زميلاتها بالمستشفى، لكن الجنيهات القليلة تلك لم تقبل بها صاحبة البيت، وطردتها شر طردة، أمام جيرانها الذين راقبوا ما يحدث دون أي ردة فعل كأنهم يشاهدون فيلمًا سنيمائيًا مكرراً فلم يحرك فيهم ساكنًا, رافضة أن تعطيها متعلقاتها الشخصية، سدادًا للإيجار المتأخر شهورًا.

أكثر ما كان يؤلمها هو نظرات "وعد" إلى شيء تشتهيه، ثم ترتد عنه بعيونها الممتلأة بالحزن والحسرة، تابعت بأعين مترقرقة نظراتها إلى حذاء أسود ذو فيونكة كبيرة يحتل واجهة أحد محلات الأحذية، ثم هبطت بأنظارها إلى حذاء "وعد" البالي والذي ترقعه بيديها كلما تقطعت أوصاله. اعتصر قلبها وتمعر وجهها وهي ترى "وعد" تشير بإصبعها إليه وتطلب منها أن تشتريه لها بدلًا من حذائها المرقع، فغالبت وخزات العبرات في عينيها وهي تعدها بمثله عندما

تتحسن ظروفهما، فعادت "وعد" تنظر إليه بحسرة واشتهاء، سحبتها "أمل" من كفها مبتعدة بها في صمت وعلى وجهها تحتشد تعاريج العجز والألم

استضافتها إحدى زميلاتها لأيام، كانت تبحث خلالها عن عمل تتوافق مواعيده مع عملها بالمشفى، وكذلك عن مأوى بسعر زهيد تقيم فيه هي وابنتها. وبعد البحث المضني لأيام وليالي وجدت أخيرًا بغيتها في منطقة عشوائية تسمى "حكر أبو دومة"، بعد أن جابت شوارع القاهرة حتى تورمت قدماها.

أرادت مكانًا يقيها وابنتها شر العيون المتلصصة، وفرشة فوق الأرض يتمدد فوقها جسداهما لا تأمل بأكثر من ذلك بعدما أصبح البديل هو الشارع، وهذا ما وجدته دون زيادة في إحدى الأعشاش التي بنيت بعشوائية، والتي هي صفة لكل ما حوته تلك المنطقة وكأنها شعار رسمي متفق عليه بغير اتفاق, فوق بيت من طابقين، ألصق أصحابه حجارته بالجبس وتسمير الأخشاب لعلاج الشروخ والتصدعات التي تتشعب بأذرعها داخل جدران منزلهم كأخطبوط عملاق، منذرًا بسقوطه في أي لحظة فوق رؤوس ساكنيه!

"وعد"، ذات الثالثة عشرة ربيعًا والألف حلم في الغد، نظرت بعين الاحتقار إلى حيث اصطفت الأعشاش والأبنية بغير نظام، ووضعت الأكشاك الصغيرة في زوايا الحارات وافترش بعض الأهالي الأرض للبيع وعرض سلعهم لكسب قوت يومهم.

نظرت بإزدراء إلى حيث انتشرت القاذورات في كل مكان، تكاد تختفي أسفل جحافل من ذباب. رأت المخلفات المعدنية الصدئة التي تفوح منها الروائح الكريهة، يجمعها البعض كيفما اتفق متخذين منها بيوتًا. أما الوجوه، فقد تباينت ملامحها من طيبة وكسر إلى عنف وقسوة؛ لكن تجمعها الأغبرة التي تلتصق بالوجوه البائسة مندفعة من ورش صهر الألومنيوم وخردة النحاس.

كانت عشتهما، التي استأجرتها "أمل"، مبنية من عدة ألواح خشبية تفوح منها رائحة العفونة، تجمعت مع بعضها البعض ضاربة بعرض الحائط علم الهندسة المعمارية، مكونة ما يشبه كوخا له أربع جدران وقبة عالية من عدة ألواح مكسورة وبقايا أقفاص وبعض القش. ومن الداخل افترشت الأرض بقطعة قماش بالية.

وفي أحد الأركان يوجد "وابور" جف ما به من جاز، فانطفأت شعلة عينه كما انطفأ بريق الحياة من عيني "أمل". بالكاد تكفي العشة لكي تتمدد فيها المرأة وطفلتها.

دورة المياه موجودة..كناية عن مساحة متر في متر، كل سنتيمتر أقذر مما يليه وأحقر مما يسبقه، بغير أي منافذ للتهوية. أما الصرف الصحي فالاعتماد الكلي في الحكر بكامله على الطرنشات.

أيام عصيبة مرت حاولا فيها التعود على حياتهما الجديدة في هذا المكان، كانت "أمل" تستيقظ باكرًا، فتأتي العربة الخشبية التي يجرها حمار هزيل، بصاحبها الذي اعتادت رؤيته يوميًا، ولا يقل هزالًا عن حماره، وحمولة أقفاص من الخضروات، تنزل بعضها وتفترش بها الأرض مع ما تبقى من خضر يوم أمس، الذي تحتفظ به في زاوية بداخل العشة، ثم تجلس تبيع للرائح والغادي، في الوقت الذي تستيقظ فيه "وعد"، فتودع أمها بقبلة حانية تطبعها فوق رأسها الذي غزاه الشعر الأبيض، تخفيه تحت طرحة سوداء طويلة، لا تظهر سوى وجه تتزاحم فوقه التجاعيد التي لا تظهر على أوجه قرينات عمرها ممن يتمتعون برغد الحياة ونعيمها.

تعود "وعد" من المدرسة في الساعة الثانية لتأخذ محل والدتها، بينما تنطلق "أمل" في طريقها إلى مستشفى قصر العيني، فتصل والعرق يغمرها، بعدما كوتها أشعة الشمس الحارقة، وسحقت جسدها كومة اللحم والعظم داخل

الأتوبيس، لينتهي عملها في الثانية عشرة ليلًا، لتعود إلى عشتها بجسد منهك تسرق سويعات من النوم، يتذمر بعدها جسدها الذي لم يأخذ كفايته من الراحة قبل أن تبدأ يومها التالي برص أقفاص الخضار على مشارف الحارة!

ولأن ما تعانيه الآن أحد أسبابه عدم قدرة جدتها الانفاق على تعليمها، لم ترد أن تكرر نفس المعاناة مع ابنتها، وأرادت أن تسلحها بشهادة قد تخرجها من هذا المستنقع الموحل الذي تنغرس فيه أقدامهما بقوة.كانت دائمة التشجيع لـ "وعد" على تحقيق حلمها في أن تصبح طبيبة مثل "زياد"؛ ذلك القريب البعيد، الذي أصبح الآن في مخيلة "وعد" وهي على مشارف السابعة عشر ،كمشاهد متقطعة من حلم جميل، استفاقت منه على واقع أليم.

لعل "وعد" أرادت أن تفوز بالتحدي على العقبات التي واجهتها، وأن تثبت أنها أقوى من كل تلك العوامل التي تجذبها إلى الحضيض.. أو لعلها أرادت أن تنتقم في مخيلتها من "زياد"، بأن تحقق حلمها وكأن غيابه لم يشكل فارقًا، المهم أن المحصلة كانت تفوقها الدائم، وفخر "أمل" دائمًا بها بين جيرانها في الحارة، حتى أنها تلقبها بـ "الدكتورة وعد", كان لذلك أثر طيب على نفس "وعد" التي واصلت الليل بالنهار واجتهدت من أجل تحقيق ذلك الحلم الذي راود مخيلتها منذ الصغر.

أرادت أن تهرب بأمها من ذلك المكان الذي عاشت فيه لسنوات في رعب دائم, بينما أرباب السوابق يتجولون في الحكر ويعيثون فيه فسادًا, كانت المنطقة كالوكر، تضم حفنة من المجرمين الذين لا يتوانون عن فعل أي شيء يدر عليهم المال، مع غض الشرطة طرفها عنهم. تسمع طلقات الأسلحة كما لو كانت "بمب" يتلهى به الأطفال يوم العيد.. تجارة المخدرات تتم تحت الأنظار وفي وضوح الشمس. فكان دعاء "أمل" الذي لا يفارقها ليل نهار "اللهم أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها".

ذات يوم أهدت "أمل" لـ "وعد" كتكوتًا صغيرًا طارت به فرحًا صنعت له عشة صغيرة من قفص الخضار، أسمته "وحيد"، لأنها كانت تراه مثلها.. وحيدًا، ثم ما لبثت أن بنت له عشة أكبر من عدة أقفاص بعدما كبر وصار ديكًا يختال بمشيته على السطح، كانت تقدم له الطعام بيديها وتعتني به كما لو كان طفلها المدلل.

ذات يوم عادت من المدرسة لتشم في العشة رائحة المرق التي غابت عن أنفها شهورًا طويلة، فدخلت لتجد طنجرة فوق الوابور المطفأ وبها الطائر المسلوق، فهتفت بأمها فرحة:

- جبتيها منين الفرخة؟

فلم تزد أمها على أن تقول وهي تتعمد عدم النظر إليها:

- اشتريتها.

قالت "وعد" باستغراب وهي تنظر إلى داخل الطنجرة بتأمل:

- مال الفرخة دي رجلها طويلة كده؟

- وأنا ايش عرفني.. يلا عشان تاكلي.

لكن قلب "وعد" توجس ، انطلقت إلى السطح حيث العشة التي بنتها بيديها لوحيدها، لتجد الفراغ ينتظرها، فأطلقت صرخة عالية كأم فقدت طفلها، واندفعت إلى حيث والدتها وهي تصيح بألم باكية:

- حرام عليكِ.. دبحتي "وحيد".. ليه دبحتي "وحيد"؟

بنفاذ صبر قالت أمها:

- بت متوجعيش دماغي لأتزرزر عليكِ.. الناس بتربي الفراخ عشان تاكلها مش عشان تتعايق بيها!

- حرام عليكِ أنا كنت بحبه.. حرام عليكِ.

رمت بنظرها إلى الطنجرة, تحول وحيدها إلى وجبة معدة للالتهام فغامت معدتها وهي تهرول خارج العشة فأوقفتها إحدى جارتها على الدرج وهي تسألها عما بها، ألقت "وعد" بنفسها في أحضانها باكية:

- ماما دبحت "وحيد"!

****

- "وعد".. الا قوليلنا كيلو القوطه بكام النهارده؟

ألقت"هايدي" هذا السؤال الساخر، قبل أن تنفجر هى والفتاتان الواقفتان بجوارها في الضحك. تجمدت "وعد" في مكانها على المقعد الدراسي تتحاشى النظر إليهن، تعبث في مريلة المدرسة الكحلية بأصابعها النحيلة في توتر.. قالت أخرى باستهزاء:

- متخيلين "وعد" وهى بتبيع خضار في حارتهم بلبس المدرسة.

هبت "وعد" واقفة، تجاهد لمنع عبراتها من مغادرة أسوار عينيها، رافضة أن تمنح تلكن الفتيات لحظة استمتاع برؤية نزف روحها إثر طعنات خناجرهن. وقفت "هايدي" أمامها واضعة ذراعيها في وسطها وهي تقول وفي عينيها الاحتقار:

- ايه مالك، القطة كلت لسانك ولا مش لاقيه كلام تردي بيه. اوعي تفتكري انك عشان بتطلعي الأولى هتكوني حاجة.. لأ، مصيرك في النهاية زي مامتك بياعة خضار على الرصيف.

خانتها عينها، ونبتت منها دمعة كما تنبت نقطة الحبر على سن القلم, ما إن يمتصها الورق حتى تلحق بها أخرى، وفرت من أمامهن هاربة. وفي حمام

المدرسة، وقفت "وعد" تستند إلى الجدار، تبكي بحرقة شديدة، تفرغ ما بداخلها من غضب وقهر عبر دموع يائسة بائسة عاجزة. فتحت صنبور المياه تغسل وجهها، فتختلط قطرات الماء بفيض عيونها, تحاول أن تزيل آثار العبرات وتمحو أثرها.

علمت "أمل" من الوهلة الأولى أن ابنتها ليست على ما يرام. تعرفها.. تفهمها.. كما تحفظ شكل الخطوط الغائرة في كفها.

اقتربت منها، بعدما أعدت لها كوبًا من الشاي. نظرت إليها وقد تكورت فوق المرتبة كالجنين في بطن أمه، تحتضن ساقيها وتضمهما إلى جسدها بذراعيها، وعيونها شاخصة خارج النافذة.

جلست "أمل" بجوارها.. ولم تكد تسألها عما بها، حتى انفجرت "وعد" في بكاء تعالت وتيرته شيئًا فشيئًا. فزع قلب "أمل" فقالت بلوعة:

- ايه اللي حصل يا "وعد"؟.. أنا أمك يا بت ماتخبيش عليا حاجة.. حد عمل فيكي حاجة.. انطقي!

فقدت القدرة على الكلام، فقط ظلت تبكي وتبكي، بينما "أمل" تقرأ عليها آيات من القرآن لتهدئ من روعها. تركتها تفرغ ما بداخلها إلى أن سكن جسدها، وخف صوت بكائها، فسألتها مرة أخرى، جلست "وعد" تضم ساقيها إلى صدرها, مر صمت قاتل قبل أن تقول وهى تنظر إلى أمها بعينان ذابلتان أجهدهما البكاء:

- كل شويه يعايروني، ويسمعوني كلام يوجع, كنت بطنش، بس خلاص ماعدتش قادرة أستحمل كلامهم.

بعيون حائرة ونبرة دهشة سألتها:

- بيعايروكي بايه؟! ده انتى أشطر بت في الحتة كلها.

رسم الخجل بريشته على وجهها، فأطرقت تقول:

- بيعايروني بالحتة.. بيكي.. بيقولولي يا بنت بتاعة الخضار بكرة تبقى زي أمك. ماعدتش قادرة استحمل كلامهم وهم بيقارنوا بينك وبين أمهاتهم..

انفجرت مرة أخرى باكية، فانتظرت "أمل" للحظات، قبل أن تجذبها إلى صدرها، فألقت "وعد" برأسها فوق صدر أمها وهي تقول بصوت مزقه البكاء:

- اوعي تفتكري اني بستعر منك.. لا والله.. انتي عندي أحسن أم في الدنيا وعارفه انتي تعبتي عشاني قد ايه واستحملتي قد ايه.. بس كلامهم غصب عني بيوجعني.. بحاول ماابينش قدامهم.. بس بيوجعني قوي.

ترقرقت العبرات في عيني "أمل" وهيتمسح بكفها فوق شعر "وعد".. عاجلتها "وعد" بمرارة:

- احنا ليه بيحصلنا كده؟.. اشمعنى احنا؟

- آدي الله وآدي حكمته.. هنعمل ايه غير اننا نعيش زي ما باقي الخلق عايشه؟

التمع الإصرار في عيني "وعد"، وبعزيمة قالت:

- بكرة هيكون أحسن.. أنا هخليه أحسن.. بكرة هابقى دكتورة ومعايا فلوس كتير وهجبلك أحلى شقة.. وكل اللي نفسك فيه.. وننسى كل العذاب اللي شفناه في حياتنا!

****

لم تنتبه "وعد" من اكتئابها إلا على درجة متدنية حصلتها في امتحان مفاجئ نظمته معلمة الفيزياء بالمدرسة. مزقت ورقة إجابتها، وألقت بها في أحد أكوام القمامة وهي عائدة إلى العشة. لكن "أمل" علمت بالدرجة من زميلة ابنتها الواشية.

حاولت "وعد" أن تُفهمها أن ذاك الامتحان لا قيمة له ولا يُضاف إلى المجموع في نهاية العام الدراسي، وإنما لمعرفة مستوى الطالبات فحسب، فلم تقتنع بذلك، وانهالت بخفها على جسد ابنتها التي تعالت صرخاتها مستغيثة بالجيران، حتى حالت إحداهن بينهما وهي تهدئ من روع "أمل":

- خلاص سيبيها بقى عشان خاطري.

صاحت "أمل" بصوت مجلجل وهي تحاول أن تنزع نفسها من قبضة جارتها:

- سيبيني يا "شلبية"..أنا طافحة الدم ليل نهار.. ماحدش حاسس بالمرار اللي انا فيه وبسلامتها في الآخر تجيبلي درجات عفشة زي وشها.. والله لأعدمها العافية.

- خلاص هدي نفسك ماتعمليش في نفسك كده انتي صاحبة عيا.

استطردت "شلبية" وهي تمصمص شفتيها وتميل على أذن "أمل"..

- بنتك محسودة ياختي.. قلتلك ميت مرة خديها لـ "كعب الغزال" تكفيها شرهم.

- ما بارتاحش للولية دي.

- يوه.. هو أنا قلتلك ناسبيها.. بس دي ولية مخاوية وسرها باتع.. عارفه أم "ناصف" دوكها اللي ساكنة جمب مني..؟ عملتلها عمل رجعلها جوزها على ملا وشه بعد ما طلقها ورماها هي وعيالها.. اسمعي كلامي وخديلها البت.

لم تكذب "أمل" خبرًا هذه المرة، ولم تعترض كما كانت تفعل من قبل، فهي ترى اكتئاب ابنتها الذي طال، وها هو يؤثر على درجاتها التي هي أملهما في الحياة. في مساء اليوم التالي، أخذت "وعد" إلى تلك الخيمة المنصوبة أمام إحدى الخرابات، والتي تحوم حولها القطط والكلاب ويرتفع الدخان من احتراق

القمامة العفنة خلفها. توجست "وعد" وانقبض قلبها فتمسكت بتلابيب أمها ترجوها:

- أنا خايفة.. والله هاذاكر وماعدتش هانقص ولا ربع درجة بس بلاش الست دي.

لم تبد "أمل" ذرة اهتمام بكلامها..

- يا ست "كعب الغزال".. أنا "أمل" اللي "شلبية" كلمتك عني..

قفز قلب "وعد" وهي تتأمل المرأة الطويلة النحيلة التي خرجت من فتحة الخيمة، بردائها الأسود الذي أحاله التراب رماديًا، وقد حوى عدة رقعات ممزقة، لم تهتم بسدها في وجه نسمات الهواء وذرات الغبار. أخذت تنظر إليهما بعينين ضيقتين مسحوبتين لا تستطيع النفاذ منهما لرؤية الروح الساكنة بجسد صاحبتهما، ثم أشارت بكفها لتدخلا بعد أن رمقتهما بنظراتها المتفحصة التي أشعرت "وعد" بالتوتر الشديد.

كانت تختلف عن الصورة الكلاسيكية للعرافات فلم يتدلى من صدرها قلادة كبيرة غريبة الشكل ولم تمتلئ ذراعاها بالوشم ولا بأساور تصدر أصواتا عند كل حركة, كانت أقرب إلى شحاذة مجنونة، بشعيراتها البيضاء الثائرة فوق رأسها، وقد اختلط فيها القش بالتراب والكثير من الكائنات الدقيقة التي تتحرك هنا وهناك. جلدها متجعد بشدة يحوي بقعًا وتقرحات متسخة تفوح منها رائحة القيح. وما إن دخلتا الخيمة، حتى تسربت لأنفهما رائحة كادت أن تدفع بـ"وعد" إلى أن تتقيأ، وكأنها منبعثة من جثة متحللة. أشارت المرأة إلى الحصيرة البالية، فجلستا فوقها، بينما أعينهما تتفحص محتوى الخيمة الضيقة إلى حد خانق ولا تحتوي على أي مظاهر لحياة آدمية سوية.

كشفت إحدى تمزقات رداء المرأة عن فخذ ظهرت أوردته الزرقاء مختلطة بخطوط حمراء وبيضاء تتداخل فيما بينها كأفاعي شرسة تسعى كل منها إلى التهام الأخرى.. دققت "وعد" النظر إليها، حتى لاحظت أن المرأة ترمقها بنظرات ثاقبة فجفلت.

سمعت أمها وهي تخبر تلك المرأة عن العين الحاسدة التي تلحق بابنتها الأذى وتدفعها إلى التدني في مستواها الدراسي, أو أن هناك من صنع لها عملًا للقضاء على مستقبلها غلًا وحقدًا. استمعت المرأة في صمت، لا ترفع عينيها عن "وعد"، التي شعرت وكأنها تجذبها بمغناطيس خفي. كان قلبها يدق بجنون، وقد شعرت بإثارة شديدة تنضح بها دماؤها، بينما الخوف يكاد يدفعها إلى أن تترك تلك المرأة وأمها وتولي هاربة. لكن المرأة جذبت كف "وعد" بحزم، فارتعش بين كفيها الخشنين. أخذت تمسح فوق خطوطه بأصابعها ذات الأظافر الطويلة الممتلئة بالأوساخ، فتسرب النفور منها إلى نفس "وعد"، لكن اليد الحازمة كانت تطوق رسغها لتمنع كفها من الهرب.

اتسعت عينا المرأة بغتة وهي تتأمل الخطوط والتعاريج، وقد قربت وجهها من الكف بشدة، حتى رأت "وعد" تلك البقعة الخالية من الشعر في رأس المرأة، وهي تسحب أصابعها لتحكها بقوة بين حين وآخر.

طال الصمت، حتى دفعتها "أمل" إلى الحديث قائلة بنفاد صبر:

- خير يا ست "كعب الغزال" هتفضلي ممققة عنيكي في إيد البت كده كتير؟

ارتفعت عيناها وقد ازدادتا ضيقًا، لترشق نظراتها في وجه "وعد" وهي تهمس بصوت خشن مخيف..

- نهايتك مرسومة بالدم.. والموت كاتب معاده على جبينك بريشة الألم.

ساد صمت قاتل في الخيمة، بينما ارتفع نباح الكلاب بالخارج، فارتجفت "وعد" وهي تحاول أن تجذب كفها من المرأة المطبقة على رسغها بقوة آلمتها. أصيبت "أمل" بعدوى الخوف, فنهضت جاذبة "وعد" قائلة بصوت مفضوح اضطرابه:

- يلا يا "وعد".. متشكرين يا ست .

وقذفت ببضعة جنيهات فوق قدمي المرأة.

لكنها ظلت متشبثة بكف "وعد"، وهي تتطلع إليها بنفس النظرة الثاقبة، وكأنها لم تسمعها ولا تراها.. ثم هزت رأسها أخيرًا وأطلقت سراح كفها، فظلت "وعد" في مكانها ترتعش بشدة، إلى أن جرتها "أمل" خارجة بها من الخيمة، وهي تتمتم لتخفي الخوف الذي اعتراها:

- مجنونة.. ولية مجنونة.. ماشي يا "شلبية" أما أبقى أشوف خلقتك. ومنذ تلك الليلة التي غاب عنها القمر ولفترة طويلة, باتت تحاصر "وعد" الكوابيس التي اصطبغت بلون الدم!

****

حاولت "وعد" أن توقف ارتجافة أصابعها، وتخف من برودتها بضم قبضتيها إلى بعضهما البعض والنفخ فيهما، إلا أنها فشلت في ذلك، وبدأت الدموع في التجمع داخل عينيها فاقترب منها إحدى المراقبات وقالت لها بحنان وهي تربت ظهرها:

- بالراحة يا حبيبتي.. سمي بالله كده وانتي تعرفي تحلي.. ماتوتريش نفسك لسه باقي ساعتين حلي فيهم براحتك.

بدأ الدفء يسري في أصابعها المتجمدة، وبدأت تشعر بسهولة في تحريكها، فانكبت على ورقة الإجابة تصب ما بداخل رأسها من معلومات حفظتها عن ظهر قلبها. هو الامتحان الأول في الثانوية العامة، لا يمكن أن تخسر الآن بعض الدرجات التي قد تكون سدًا مانعًا بينها وبين حلمها، كلية الطب.

استعادت حماسها وأخذت تكتب بسرعة ولهفة كأنها تخشى أن تفتح المعلومات فرجة برأسها وتطير. وكعادتها، جلست إلى آخر دقيقة حتى وقد انتهت من الحل والمراجعة، إلى أن ينتهي الوقت. حانت منها التفاتة إلى ورقة الفتاة التي تجلس أمامها، والتي رفعتها بغير عمد لتراجع هي الأخرى، فانتبهت إلى الخطأ الذي اقترفته في حل السؤال قبل الأخير.. زلة قد تكلفها حلم حياتها ومستقبلها كله.

هجمت بقلمها على الورقة تشطب ما كتبت، وتسطر الحل الصحيح.. نعم هكذا. وانفرجت شفتاها عن ابتسامة واسعة وهي تسلم ورقتها إلى أحد المراقبين!

في انتظار الأتوبيس، فتحت "وعد" المحفظة التي تحملها، والمثبتة بداخلها مرآة صغيرة، وأخذت تتطلع إلى وجهها، وتحاول أن تتجنب أن يراها أحد. عبرت بعينيها على جبينها العريض وبشرتها التي تفتقد النعومة والحيوية، ثم إلى عينيها التي لا يميزهما سوى لونهما البني.. عيون كملايين العيون التي لا تعلق في الذاكرة. ثم إلى وجنتيها الضعيفتين بعظمهما البارز، وأنفها الذي لا يعد موطنا للجمال فيها. ثم هبطت إلى شفاهها اللمياء, فأخرجت لسانها تبلل تلك التشققات التي تصدعت بها، والتي ذكرتها بالتشققات التي تراها في جدران البيت الذي تقيم على سطحه.

زامت ما بين حاجبيها وهي تعقد تلك المقارنة بين شفتيها والجدار، ثم حولت عينيها عن مرآتها. لماذا حرمها الله من امتلاك جسد أنثوي متناسق

كصديقاتها, وابتلاها بجسد هزيل لا يبرز أنوثتها ولا يشعرها بأنها أنثى مرغوبة؟ لماذا لم يخلقها الله بجمال أمها؟ لماذا كان إرثها الوحيد من أبيها قسماته؟ ألا يكفي الفقر والعوز والحاجة، فيزيد من بؤسها دمامتها وجسدها الطفولي؟ من ذا الذي سيعجب بها ويفكر في الزواج منها, ويطرق بابها تاركًا كل أولئك الجميلات الفاتنات ويختارها هي؟

أعادت النظر الي وجهها مرة أخرى في المرآة، ابتسمت بسخرية، فظهرت صورتها في المرآة ساخرة منها! حانت منها التفاتة إلى حذائها، فسارعت بوضع قدمها فوق الآخر حين رأت إصبعها الأكبر مخترقا النعل البالي مستنشقا هواء الحرية.

جاء الأتوبيس، فاندست وسط الجمع تحاول باستماتة إيجاد مكان يسعها واقفة! من حسن حظ السردين أنه مقطوع الرأس لا يعاني مثلها من روائح العرق النتنة والأنفاس الكريهة التي تتزاحم داخل أنفها. تبًا، فحتى السردين في علبته المعدنية أكثر حظًّا منها!

ترجلت من الأتوبيس بقوة الدفع، وخطت على طريق الكورنيش تتأمل صفحة المياه أثناء سيرها. وقفت واقتربت من السور تدقق في المياه التي لم تعد رائقة كما كانت تراها منذ سنوات.. اكتست أطرافه بلون ترابي، فبدا بمظهر صدِئ.

أكملت سيرها حتى وصلت إلى بداية الحارة. وقبل أن تجتازها، التفتت لتنظر إلى الأبراج العالية من خلفها، وإلى ذلك المول التجاري الكبير وما يجاوره من أماكن لا يرتادها إلا أصحاب الجيوب المنتفخة. لطالما شعرت بالقهر وهي ترى البون الشاسع بين الأبنية من خلفها، وبين تلك التي هي على وشك اجتياز أعتابها, ثراء فاحش يجاور فقرًا مدقعًا، شتان بين الثرى والثريا!.. نقيضان في مكان واحد، كنقطة التقاء البحر المالح بالنيل العذب، كثيرا ما شردت تفكر كيف ينظر قاطنو تلك الأبراج، ورواد ذلك الفندق الكبير الذي لا يبعد عنها

سوى بضع خطوات من عليائهم إلى الناس الذين يعيشون داخل الحكر؟ أيرونهم أناس مثلهم؟ أرواح داخل أجساد من لحم ودم، مثلهم، لهم الحق في الحياة؟ عاشت لسنوات تراهم يخرجون من المول التجاري محملين بالأكياس والأغراض، وقد أنفق كل واحد منهم مبلغًا لا تحلم بأن تدخره في أعوام عدة!

كانت كثيرا ما تجلس لتتخيل نفسها ابنة لإحدى تلكم النساء الثريات وقد ارتدت الأنيق من الثياب وأوقفت سيارتها أمام المول ودخلت تتسوق غير عابئة بما قد تنفقه فمحفظتها تضخ بالمال الذي لا ينضب، لكنها سرعان ما تعود إلى واقعها وتتذكر الجنيهات القليلة التي أنفقتها منذ قليل في المواصلات والتي كانت كل ما تملك.

مالت بعنقها إلى الخلف، تنظر إلى اللافتة الكبيرة التي زينت واجهة أحد الأبراج، والتي يعلوها بخط عريض كلمة "دكتور"، فأقسمت على نفسها أن تستميت في الحصول على هذا اللقب، الذي سيفتح لها أبواب السعادة، ويمحو من ذاكرتها معنى الفقر والذل والجوع.

أطلقت تنهيدة أفاقتها من شرودها، فالتفتت للحكر تتنقل من حارة إلى أخرى حيث تتشعب الحارات كشبكة عنكبوتية ، حتى وصلت إلى البيت فأسرعت تجتاز درجاته وقد حفظت مواطن الكسر والخلل فيها. فتحت باب العشة، وألقت نظرة على الأقفاص التي تتكدس في أحد الجوانب، فانعقد جبينها سريعًا وهي تتذكر والدتها التي تركتها في صباح اليوم تعاني من ألم شديد برأسها وحرارة شديدة، لم تفلح كل تلك الأدوية التي وصفها لها الأطباء بالقصر العيني في أن تخفف من حدتها، فلم تقو على افتراش الأرض بخضرها مثل كل يوم. لكن هاهي قد ذهبت إلى عملها في المستشفى حتى لا يخصم منها أجر يوم!

أخذت "وعد" تنقل الأقفاص الثقيلة إلى الحارة واحدًا تلو الآخر، وجلست أمامهم في انتظار زبائنها، الذين اعتادوا الشراء منها، حتى بدأت الشمس في المغيب، فأخذت تعود بالأقفاص إلى العشة، ثم ألقت بجسدها فوق المرتبة القديمة.

تحاملت على نفسها، ونهضت لتزيح الستار عن الفتحة التي صنعتها في الجدار الخشبي للعشة قبل سنوات متخذة منها نافذة، ثم عادت تلقي بجسدها فوق المرتبة مرة أخرى وهي تنظر من الفتحة، لا إلى السماء، بل إلى ذلك البرج العالي الذي يخترقها بسطوته وفخامته وروعة بنيانه مادًا لها لسانه!

****

استيقظت على صوت الأذان المنبعث من المسجد الصغير الذي يقع في زاوية الحارة، فانتفضت من فوق الفراش جالسة وهي تنظر إلى الفراغ النائم بجوارها.. أين أمها؟! أمعقول أنها لم تعد من المستشفى حتى الآن؟.. أزاحت عنها الغطاء الذي امتزجت رقعاته ببعضها، وأنارت المصباح تنظر إلى الفراغ حولها، ثم لفت رأسها بحجاب كيفما اتفق، وفتحت باب العشة تبحث بعينها عن والدتها. نزلت الدرجات.. وما بين خجل وخوف، طرقت أبواب الشقق في الطابقين بالأسفل تسأل عن والدتها، لعل إحدى الجارات احتاجتها في أمر عاجل. لكن ظنها خاب عندما لم تجدها عند أي منهن.

صعدت إلى العشة، وأخذت تنظر من السور الملتف حول سطح البناء على الحارة الخالية من الأحياء، باستثناء كلبين أو ثلاثة يعلو صوت نباحهم كما اعتادوا أن يفعلوا كل ليلة،كجزء لا يتجزأ من ليل الحكر وطقوسه. دخلت لتتوضأ وتصلي الفجر ثم عادت تنظر من فوق السور، فرأت خيالا من بعيد، فاشرأبت بعنقها تستطلع القادم، ثم ارتسمت على وجهها علامات الخيبة وهي تراه رجلًا من سكان الحارة.

من المستحيل أن تخرج في هذا الوقت وتذهب إلى المستشفى للبحث عن أمها، فلا تأمن اعتراض أحد اللصوص لطريقها، أو من هو أسوأ من سارق. على استحياء شديد طرقت بابجارتها "أم مرزوق"، المسنة التي تعيش بمفردها وقد هجرها كل أبنائها من بعد زواجهم، فبقيت معتكفة في منزلها لا تراها "وعد" تخرج من بيتها إلا لإحضار طلباتها أو لتستلم معاشها عند بداية كل شهر.

كانت المرأة بشوشة الوجه، دائمًا ما تستقبلها بابتسامة محببة، قدمت إليها "وعد" كلمات الاعتذار قبل أن تستأذن في استعمال هاتفها. اتصلت بالمستشفى، وبعد عدة دقائق من الانتظار أتاها الخبر الذي كانت تخشى سماعه.. أمها مريضة، وهي الآن طريحة الفراش بالقصر العيني. كادت أن تجن، أرادت أن تذهب إليها من فورها؛ لكن "أم مرزوق" نصحتها ألا تفعل وأن تنتظر حتى تشرق الشمس، ودعتها لأن تنام تلك السويعات على الأريكة الصغيرة في الصالة، حتى لا تبيت في العشة بمفردها. تركتها ودخلت لتنام في فرشتها، بينما "وعد" لم تذق غمضًا حتى أشرقت الشمس، فانطلقت من فورها إلى العشة ترتدي ملابسها وتسرع خارجة وقد ضمت طرفي معطفها بقوة، تحمي جسدها من برد البكور.

ساقتها إحدى الممرضات إلى حجرة اكتظت بأسرة المرضى. بسطت كفها فوق صدرها النابض بجنون، بينما يحملها ساقاها المرتجفان بصعوبة إلى حيث ترقد "أمل" في الفراش، وقد أسدلت جفونها.

انحنت "وعد" تمسح على رأسها وتقبله، وقطرات من ماء عينيها تتساقط فوق وجهها، التفتت إلى الممرضة تسألها بلوعة:

- ماما مالها.. ايه اللي حصلها؟

- الدكتور هييجي حالا يشرحلك حالتها.

انتظرت "وعد" الطبيب ونافورة من الظنون المرعبة تغمر عقلها بالاحتمالات البشعة، فتحتضن بين كفيها كف أمها الجاف كتربة لم تُروَ منذ الأزل، وتمسحه بقبلة حانية بين الحين والآخر.

جاء الطبيب ليلقي على مسامعها سيلًا من المعلومات عن الفحوصات والأدوية التي حاولوا بها معرفة سر ارتفاع درجة حرارة جسدها وما يصاحبها من آلام، دون أن يصلوا إلى تشخيص. بعد أيام قضتها ملازمة أمها تشرف على إعطائها الدواء في موعده، تضع لها الطعام في فمها، وتقودها إلى حيث تقضي حاجتها.. تحضر لها وعاء تتقيأ فيه، تنظر إليها أمها معتذرة، فتجيبها عينا "وعد" بابتسامة عذبة "ولا يهمك". إلى أن أمر الطبيب المعالج بتحويل "أمل" إلى معهد الأورام.

تلقت الخبر كصفعة من حديد أدمت كل ذرة من جسدها وروحها، ونقلت أمها بعد سويعات إلى معهد الأورام المجاور للقصر العيني، ولم يكد يمر يوم واحد حتى وقفت أمام الطبيب بارد الأعصاب يخبرها عن ذلك الداء الخبيث الذي غزا جسد أمها. جاوبته بالصمت, بسكوت الألم لا الرضا، بدمعة قهر قذفها عجزها من محجر عينها، بقسمات تجعدت كورقة خرجت من قبضة سحقتها بشكل يليق بمثيلاتها في سلة مهملات الحياة!

سألته محاولة طاقتها الحفاظ على رباط جأشها متمسكة بأهداب الأمل:

- هتخف.. مش كده؟

- هنعمل اللي في ايدنا.. بس مش هكدب عليكِ الحالة متأخرة جدًا.

هكذا أنهى كلماته، بل طعناته ثم مضى متوجها إلى سرير آخر ومريض آخر دون أن يعبأ بالقنبلة التي نزع صمام أمانها تاركا خلفه دمارا شاملا في نفس

"وعد"، عصفت الصدمة بكيانها فراحت عيناها تسكبان دموعهما الحارقة كحرقة قلبها المتخم بالهموم.

كانت في حاجة ماسة إلى أن تسمع كلمة طيبة، أو يد تربت على كتفها تمنحها دفئًا إنسانيًا تفتقده بشدة في هذه اللحظة، التفتت إلى حيث ترقد أمها وهي لاتزال تمسك بيدها المتيبسة، درب من المشاعر المتأججة سلكته وهي تسبح بعينيها الباكيتين في وجه أمها الذي لا تتصور الحياة يومًا دون أن تطالعه.

****

بدأت رحلة العلاج الكيميائي في وقت اللاجدوى، لكن -ومع ذلك - استمرت الرحلة، يتكفل خلالها معهد الأورام بمصروفات العلاج. لكن بعد أسبوعين، أخبرها الطبيب قبل جلسة علاج أمها بيوم واحد بوجود نقص في أحد الأدوية المهمة، وليس من المنتظر توافرها في الوقت الحالي, وحالة أمها لا تحتمل الإنتظار.

توجهت من فورها إلى الصيدلية التى تواجه القصر العيني، وهي تمسك بيدها ورقة سطر فوقها اسم الدواء بخط غير مفهوم، بينما تحرك قدمها في عصبية وهي تقبض باليد الأخرى على بضع عشرات من الجنيهات هي كل ما تملك. باغتها الصيدلي بسعر الدواء الذي يتعدى بمراحل ما تحمله في يدها، ثمانمائة جنيهًا هو ثمن الدواء الذي سيكفي أمها لجلسة واحدة!

سارت تتخبط في تيهها لا تدري ماذا تصنع.. ساقتها قدماها إلى الحكر، ناشدت "أم مرزوق" باكية أن تقرضها المال لإنقاذ حياة أمها.

انهمرت دموع المرأة بغزارة وهي تحوقل وتسرع إلى فراشها العتيق، ترفع قبة أحد أعمدته، وتخرج منها ثلاثمائة جنيهًا، هي حصيلة ادخار شهور من المعاش الهزيل الذي تتقاضاه. أطبقت "وعد" بيدها على المال وهي تحتضنها بقوة

شاكرة، ثم تودعها ولايزال يشغل عقلها كيف ستتمكن حتى يوم غد من جمع باقي المبلغ!

كورقة شجر متساقطة في الخريف سارت في الطرقات لا تدري في أي مكان ستحط رحالها. لم تشعر بمضي الوقت، فقط عندما أنهكها السير، افترشت أحد الأرصفة وجلست فوقة تراقب المارة، في عينيها نظرة حزن ممزوجة بالعجز والقهر، تنحدر الدموع الملتهبة فوق وجنتيها تحفر أخدودين سيظلان هناك إلى الأبد. دموع كشلال لا ينضب, تعرف فوق وجنتيها طريقًا حفظته جيدًا وألفته حتى صارت جزءً منه.. لم تعد العيون مأوى لدموعها.. بل وجنتيها. لو أراد أحد الرسامين تجسيد صورة للحزن والمعاناة ما وجد أكثر بؤسًا من صورتها وهى فى تلكم الوضعية.. ملامحها تنطق بحزن يتجاوز سنوات عمرها.. حتى لتشعر أنك لو نزعت عنها حجابها الذي يطوق رأسها لوجدت الشيب قد غزا شعرها وأحاله قطنًا شديد البياض.

بدأت تستشعر مرارة الفقد داخل حلقها, قلبها النابض بألم يئن ويصرخ.. لن تتحمل فقدها لن تتحمل فقد الشخص الوحيد لها في هذه الحياة، دعامتها التى ترتكز عليها دائمًا.. يفوق ذلك طاقتها بمراحل.

رفعت نظرها إلى المارة.. كل منهم منشغل بحاله، ولا أحد يشعر بها.. لا أحد يهتم بها.. أرادت أن تصرخ إلى المدى الذي يصله صوتها وتطلب المساعدة.. تطلب الرحمة.. لعلها إن لم تحصل عليهما، فعلى الأقل تفرغ قلبها من شحنة تكاد تخنقها. لكن ماتت الصرخات فوق شفتيها المرتعشتين، وتحشرج صوتها بالبكاء.. حتى الصراخ كان أبعد من مرمى يديها.

****

- سيبيها لله يا بنتي.. ربك يدبرها من عنده.

قالت تلك الكلمات بصوتها الضعيف، بينما كانت تشمر ذراعها سامحة للممرضة بأن تفتش فيه عن أحد العروق لتسقيه من كيس الدم المعلق بجوارها. تمكنت "أمل" بصعوبة من تحريك يدها ووضعها فوق كف "وعد" وهي تسألها بصوت واهن:

- ذاكرتي يا بنتي؟.. امتحانك بكرة.

- مش عارفة أركز.. مخي مش مجمع حاجة.

تحاملت على نفسها، لتكسب صوتها بعض القوة وهي تنظر إليها بحدة، بعيون غارت بين دوائر من اللون الأسود:

- انتي اتهبلتي يا بت.. عايزة تموتيني بحسرتي.. خلاص ده آخر امتحان وتخلصي.. ده أنا سفيت التراب عشان تخلصي من الثانوية العامة دي اللى كتمت على نفسنا سنين.

- ازاي أذاكر وانتي تعبانه كده.. أجيب عقل منين؟!

- لو بتحبيني بجد هتسبيني دلوقتي وتروحي تذاكري.. وهتحلي كويس في امتحان بكرة.. وهتيجي تفرحيني بنتيجتك وتقوليلي أنا رفعت راسك يا أمي ودخلت كلية الطب وهابقى دكتورة قد الدنيا.. وهعالج الناس الغلابة اللي مش لاقيين اللي يداويهم ويطبطب عليهم.. هارحمهم عشان ربنا يرحمني!

رمقتها "وعد" بنظرات التأثر والإعجاب، أمضت الليل على الأرض بجوار فراشها، بعقل مشتت بين دفتي كتابها وأمها النائمة، أو التي تتظاهر بالنوم بينما تراقبها من طرف خفي، تحبس أناتها المتوجعة حتى لا تفلت من بين شفتيها فتشتت عقل صغيرتها, تشرد أحيانًا وهي تسند برأسها إلى الجدار تتبع بعينيها المروحة المعلقة بمنتصف السقف والتي استحال بياضها رماديًا لتراكم

الأتربة فوقها، تدور في رتابة بينما المصباح الصغير فوق رأسها المهتزة أضاءته، يصدر صوتًا كأزيز ذبابة لزجة تطير بالقرب من أذني إنسان تأبى تركه وشأنه.

فجرًا، تحركت تطلب من "وعد" أن تأتيها بالماء لتتوضأ، لكن شق عليها الوضوء كثيرًا، فأخذت برخصة التيمم، وبعينيها إلى ربها صلت، وبقلبها وروحها دعت وابتهلت، وبقلب أمومتها ذي الفطرة النقية آثرت الدعاء لابنتها على الدعاء لنفسها.

حاولت "وعد" أن تصرف عقلها إلى الامتحان، لكنها كلما أرادت أن تقرأ أحد الأسئلة في ورقة الامتحان اختفى كأنما كتب بحبر سري، ورأت مكانه سؤالًا واحدًا لا يتغير: "من أين ستدبرين أمر هذا المال؟"

حادت عيناها عن الورقة تنظر إلى "هايدي" الجالسة في المقعد المجاور لها. رأت على وجهها اللامبالاة، وهي تحرك سوارها الذهبي بين أصابعها كأنما تمرح بدمية رخيصة. أصابتها غصة في حلقها كادت أن تحجز الهواء عن رئتيها.. يا لقسوة الحياة! أمها تنتظر على فراش المرض علاجًا ينقذ حياتها، يتكلف بضعة مئات، وغيرها يرفل في النعم، تنام على فراش مهترئ، بينما غيرها يتمطّع على فراش من سندس وإستبرق!

ظلت تتابع بنظراتها السوار اللامع ذا البريق المبهر.. تركته "هايدي" بإهمال بجانب ورقة الإجابة، فسقط بين قدميها وداسته بغير انتباه، وقد فتحت ورقة صغيرة في يدها في غفلة من عيون المراقبين، وأخذت تنقل منها الإجابات. دفع الحقد بـ "وعد" إلى أن تشير إلى أحد المراقبين خلسة، وعندما اقترب منها أشارت إلى "هايدي" وهي تغش. وبدون أن ينطق بكلمة، سحب ورقة الإجابة والورقة الصغيرة.

بكت "هايدي" ترجوه أن يعيدها إليها، وألا يتسبب في ضياع مستقبلها. إلا أنه أصر على ما فعل، وزاد أن كتب بخط عريض بالقلم الأحمر فوق ورقة إجابتها "غشاشة"، وأصر على عمل محضر غش لها، واتخذ من "وعد" شاهدًا، فرمقتها "هايدي" ببغض شديد أثناء مغادرتها الصف بصحبة رئيس اللجان.

رمقتها "هايدي" ببغض شديد وهي تسبها بأقذع الشتائم, لم تلتفت "وعد" إلى بغضها، فما أحبتها يومًا. أخيرًا نالت عقاب كلماتها الرعناء التي كانت تجلدها بها، الآن تجرعت من كأس الألم, استمتعت "وعد" بطعم الانتقام لذيذًا منعشًا يغمرها، وعلت ابتسامة شامتة ثغرها، والتفتت إلى ورقتها.لم يبق لها سوى سؤالين.. عصرت ذهنها في محاولة تذكر أحدهما دون جدوى، أما الآخر فكما فعلت في الامتحان السابق، أخذت تمرر عينيها على إجابات الفتاة الجالسة قبالتها، لكنها انتبهت جيدًا لموضع نظر زميلاتها قبل المراقبين، حتى لا تقع في نفس الحفرة التي وقعت بها "هايدي".

كانت عيناها تتحركان بسرعة من ورقة الفتاة إلى ورقتها، ثم تختلس بعض النظرات إلى سوار "هايدي" التي لم تنتبه إلى ضياعه في خضم ما جرى، وصوت نبضات قلبها يكاد يصل إلى أذنيها من فرط ما تشعر به من إثارة جراء ما هيأته لها الظروف.

انصرف الجميع، إلا هي، كعادتها، تبقى لآخر دقيقة، فكانت من سلم الورقة أخيرًا، مالت "وعد" برأسها تنظر إليه، رأته يلمع ببريق يكاد يخطف الأبصار، وقد تسللت أشعة الشمس الذهبية من النافذة القريبة لتتحسسه وتغازله، اقتربت منه ووقفت أمامه للحظات تود أن تمسه كالشمس التي طوقته أشعتها وذابت فيه، كأنما تقول هو مني وأنا منه لكلانا بريق ذهبي مبهر، لكلانا روعة لا يضاهيها خيال، لكلانا سطوة في النفوس وعرش في مملكة الجمال. وبسرعة التقطه من أسفل المقعد، وبأصابع مرتعشة دسته في جيب زيها المدرسي، وانطلقت تغادر الصف كمن يفر من الجحيم، وطرقات كعب حذائها على الأرض تعزف سيمفونية مرعبة تتناغم مع إيقاع ضربات قلبها على باب صدرها!

****

مشاعر مضطربة انفجرت في أعماق "وعد" وهي واقفة أمام أحد محلات المشغولات الذهبية، تُطبق بيدها اليمنى على السوار بقوة. سمت بروحها تنظر إلى نفسها من مكان قريب..

هل مررت بموقف شعرت خلاله بأن ما يحدث من حولك مجرد حلم؟!.. حلم تثق أنك ستستيقظ منه عاجلًا أم آجلًا.. الدنيا تسير من حولك، بينما الخدر يسري في جسدك وأطرافك، ويسدل ستارًا على عقلك يحجب عنه صفاء التفكير.. الأصوات شيئًا فشيئًا تبعد حتى تكاد تختفي.. ترى شفاه من حولك تتحرك دون أن يتمكن صوتها من اختراق حاجز أذنيك.. كأنك في مكان مجبر على البقاء فيه، تعيش لحظات أفلتت من قبضة الزمن.

صراع مستعر نشب بداخلها، كحريق اندلع فجأة في ثنايا أعماقها.. قوتان متضادتان تجذبانها كلٌ في جهة.. نفسها الأمارة بالسوء تجذبها في الاتجاه الأسهل الذي تميل إليه النفس وتركن: بماذا كنت ستفعلين غير ذلك يا "وعد"، أنتِ مجبرة على ما فعلتِ، دفعتكِ قسرًا مرارة الأيام وقسوتها، فلا تصعبي الأمر على نفسك. نعم هو ذنب، لكن بإمكانك التوبة بعده، حتى إن بإمكانك رد المال حينما تجود عليكِ الحياة بكرمها, هذه ليست سرقة.. بل مجرد سلفة.. سلفة في رقبتكِ ستردينها يومًا ما.. انقذي والدتك بثمن ذلك السوار ثم توبي إلى الله ولا تعودي إلى هذا الذنب مرة أخرى.

بينما نفسها اللوامة تزجرها وتعنفها بكيف طاوعتكِ يدك على أن تمتد إلى الحرام الذي لا بركة فيه؟.. ألا تعرفين أن الشافي هو الله؟.. الله الذي تغضبينه الآن وتعصينه وتتحدينه وتبارزينه بمعصيتك هو وحده بيده شفاء أمك, هل علمتكِ أمك وكبرتكِ وعفت نفسها عن الحرام من أجل أن تقعي فيه أنتِ؟.. أي حسرة ستملأ قلب المسكينة إذا علمت أن ابنتها وزهرة عمرها سارقة آثمة؟"..

اندفعت عبراتها كالفيضان يغرق وجهها بدموع الندم، حتى لفت بكاؤها انتباه أحد المارة، توقف ليسألها عما بها، فتركته وهرولت في الاتجاه الآخر وهي تحاول بصعوبة السيطرة على بكائها العنيف.

****

أعياها التفكير في كيفية الخروج من المأزق، الذي أوقعت نفسها فيه. من أين لها أن تعرف عنوان "هايدي" أو رقم هاتفها، وعلاقتها بزميلاتها في الفصل تقتصر على المدرسة فحسب، وأبواب المدرسة الموصدة تهدم آمالها في اللجوء إلى أحد مدرسيها.. آه يا "وعد" ماذا ستفعلين بتلك المصيبة التي حلت فوق رأسك؟..

تحول عقلها فجأة إلى أمها وعلاجها. انتبهت إلى أنه لم يتبق سوى القليل على بدء جلستها العلاجية، فلتعد إلى معهد الأورام وتبحث عن حل لتلك المشكلة أولًا، ثم تفكر في كيفية إعادة هذا السوار إلى صاحبته. دسته في جيبها، وهي تتحسسه من الخارج كل فترة، تطمئن على وجوده.

لم تكد تدخل العنبر الذي تقيم فيه أمها، حتى وجدت فراشها خاليًا. دق قلبها بجنون طبولا أفريقية في يوم حرب.. أسرعت السير تبحث عن أي ممرضة تسألها أين ذهبت أمها.. هتف قلبها: احفظها يا إلهي.

- ماما فين؟.. مش موجودة في سريرها؟

- ماتقلقيش هي في الجلسة؟

هتفت "وعد" بدهشة:

- ازاي؟.. والدواء اللي ناقص؟

ابتسمت الممرضة:

- الحمد لله قدرنا نوفره.

سرت قشعريرة غريبة تجتاح جسدها كله، تغلف روحها بهالة مهرة. شعور بالخزي والدنو واستصغار النفس، إذ جرت وفكرت وخططت ونفذت, طرقت أبواب الجميع إلّا الباب الوحيد الذي لا يُغلق أبدًا والذي يحوي خلفه خزائن الدنيا ومعينه لا ينفذ، لم تفكر في أن تقف أمامه وتنادي بمطلبها ، فتركت من يملك، وسألت من لا يملك!

تحسست السوار من فوق جيبها كأنه أفعى سامة. أرادت أن تنزعه من جيبها وتتخلص منه بأي طريقة كانت. لم تعد تقوى على الاحتفاظ به، أو احتضانه بجيبها ولا لثانية أخرى.

عادت "وعد" إلى العشة تغسل ثياب أمها وتحضر أخرى نظيفة، وتبدل ثيابها هي الأخرى. اصطدمت بجارتها العجوز تخبرها بأن أمين شرطة سأل عنها وأمر بضرورة حضورها إلى القسم!

انتابتها عاصفة من الخوف والرعب، وأخذت تضرب بجسدها بلا رحمة، اضطربت حتى كادت أن تسقط على درجات السلم من فرط توترها. دست السوار بين فرجات الجدار الخشبي تخفيه رعبًا، ثم بدأت مهمتها في غسل الملابس بنصف عقل طار هو الآخر عندما سمعت طرقًا قويًّا على باب العشة فنهضت بتثاقل تقدم رجل وتؤخر الأخرى. رأت أمامها رجلًا طويل القامة، على وجهه غلظة وعيناه تمسحان المكان. ارتجف قلبها، وتقطعت أنفاسها، حتى كادت تشعر بأنها تعاني سكرة الموت.

بصوت غليظ كقسماته طلب منها اصطحابه من أجل استجوابها في قضية ما وبخل في الإفصاح بأكثر من ذلك، ونزلت معه وعيون الجيران تتبعها بفضول.

وصلت إلى قسم مصر القديمة، وجلست على مقعد خشبي تستند بظهرها إلى الجدار والخوف ينهشها. دقائق طالت بها، حتى سُمح لها بدخول غرفة التحقيق وهي تلعن السوار الذي تمنت لو كانت يدها قد اقتطعت قبل أن تمتد إليه. بكت بغير سبب ظاهر أمام الضابط، الذي أخذ يتفحص وجهها بعناية وهو يلقي عليها الأسئلة واحدًا تلو الآخر.. توترت، جف ريقها، امتدت يدها إلى كوب المياه الذي طلبته على استحياء.

شعرت بالمياه أشواكًا تنساب داخل حلقها توخزه، ألم حارق يتصاعد من بطنها إلى جوفها، وبصوت متقطعة نبراته أجابت عن أسئلته بأنها غادرت الصف فور تسليمها لورقة الإجابة، وأنها لم ترى سوار "هايدي" من قبل!

لكن حنكة الضابط وفطنته أخبرته بأن هذه الفتاة تخفي سرًا، فكل كلمة وكل لمحة منها تشي بجرمها، فأصدر أمرًا بتفتيش العشة. لم تكد "وعد" تسمع ذلك حتى انخرطت في البكاء، فلم تعد تصبر على كتمان صرخات ضميرها بأكثر من ذلك، فاعترفت أنها سرقت السوار وأرادت بيعه لكنها تراجعت.

أرادت إعادته إلى "هايدي" فلم تعرف لها رقمًا ولا عنوانًا، فتاه ذلك الاعتراف الأخير أمام اعترافها الأول بالسرقة, لا يهم الضابط أندمت أم لم تندم، فلا يُحاكم الناس في محاكم الدنيا بنواياهم وما تُخفي صدورهم!

أودعت الحبس على ذمة التحقيق، وما كادت تدخل إلى الزنزانة وتسمع صوت صرير المزلاج من خلفها، حتى قلبت بصرها في وجوه الجالسات بالداخل، فشعرت بأن الدنيا تميد من حولها، وسقطت وسط الزنزانة مغشيًا عليها.

****

استفاقت "وعد" تطالعها وجوه غريبة تحمل أمارات الإجرام، فانتفضت جالسة على الأرض وقد هربت الدماء من وجهها، تحملق فيهن بفزع. أطلقت بصرها حولها، فحاصرته جدران الزنزانة الأربع.. فتذكرت.. وودت لو لم تفعل.

مسحت وجهها بكفيها، تزيل بهما فائض المياه التي نثرتها إحدى السجينات فوقها لتستفيق من إغماءتها. لكنها ما كادت تمسحها حتى تبلل وجهها بقطرات أخرى ساخنة, ينهشها الندم ويكاد يفتك بروحها ويمزقها أشلاء على تلك اللحظة التي امتدت يداها لتأخذ السوار.. تذكرت كيف كانت تنظر إليه كطوق نجاة، فأصبح الحبل الذي يلتف حول عنقها ليخنقها. كاد عقلها يجن وطيف "أمل" يتراءى أمامها موبخًا، فيزيدها عذابًا وشعورًا بالخزي لم يسبق أن خبرته قبلًا, انهارت أحلامها وخبت آمالها بسبب خطأ صغير، خطأ كلفها كل شيء.

نهضت بصعوبة، وعيون بعض السجينات تتابعها. كن عشرة نساء في الحجز، مظهرهن أثار الرعب في نفس "وعد". اقتربت من الباب الخشبي الكبير تطرق فوقه بكفها، بخفة في بادئ الأمر، ثم سرعان ما اشتد طرقها، فأتاها هتاف غاضب من خلال الكوة المفتوحة في النصف الأعلى من الباب:

- عايزة ايه يا بنت الـ.....

ازدردت ريقها بخوف، وحاولت أن تبلل شفتيها اليابستين بلسان جاف وهي تقول بصوت خرج منها بصعوبة:

- عايزة أكلم أمي في التليفون.

- انتي فاكرة نفسك فين يا.....

- أنا بس عايزة اتطمن على ماما لأنها في المستشفى، عايزة أعرفها اني هنا زمانها قلقانة عليا.

- اترزعي في أي مصيبة تاخدك ومااسمعش صوتك تاني يا إما ورحمة أمي لآجي.....

تقهقرت "وعد" بخوف، والتفتت تفتش عيناها تحت المصباح المتراقص ضوءه المتدلي من منتصف السقف المتآكل طلاؤه عن مكان في الغرفة الصماء يسعها لتجلس. جالت ببصرها في الوجوه برهبة وحذر لهنيهة، ثم استندت بمؤخرة رأسها إلى الجدار وهي تحتضن ساقيها بشدة تضمهما إلى جسدها طالبة الأمان، تنظر بأعين دامعة إلى السقف، وصور شتى مرعبة تظهر لها هناك، حيث الطلاء المتآكل.

يوم كامل مر على "وعد" في الزنزانة،كررت خلاله محاولة مناشدة العسكري أن يسمح لها بالاتصال بأمها أو حتى بالتحدث مع الضابط، فما كان جزاؤها إلا سيلًا من السباب يجعلها تتوقف عن توسلاتها خوفًا وتعود إلى مكانها بأسى.

وأخيرًا سمعت صوت المزلاج الصدئ يصدر صوتًا عنيفًا، ثم ينفتح الباب بعده، ليظهر من خلفه عسكري ذو هيئة صارمة ينادي اسمها:

- وعد خليل.

انتفضت واقفة بحماس تنظر إليه بلهفة، فأطبق على ذراعها بكف قوي يسوقها إلى حيث الحجرة التي دخلتها بالأمس أثناء التحقيق. لكن خلف المكتب طالعها وجه ضابط آخر غير ذاك الذي حقق معها. اتسعت عيناها دهشة من المفاجأة، التي تحولت إلى الفزع، ثم الخجل والرغبة في أن تنشق الأرض لتبتلعها في الحال، وهي ترى "هايدي" جالسة على أريكة صغيرة

مستندة إلى الجدار المواجه لمكتب الضابط، وإلى جوارها امرأة تشبهها، فعلمت ممن ورثت "هايدي" جمالها، بينما يجلس على المقعد إلى يسار الضابط رجل خمسيني يبدو عليه الهيبة والوقار.

اندفعت "هايدي" واقفة تكيل وتغلظ عليها قولًا، بينما "وعد" مطاطأة الرأس، متجعدة قسماتها، مغمضة عينيها، رافعة كفيها تخفي وجهها خجلًا. أوقف الضابط "هايدي" بحزم وأمرها بالهدوء، فمالت "هايدي" قائلة لأمها بغيظ:

- البت دي لازم تتحبس يا ماما.

- أكيد طبعًا.. دي حرامية.. لازم يحبسوها هي سايبة ولا ايه.. ده غير اللي عملته فيكي في الامتحان.. منها لله ضيعت عليكِ الامتحان.

رمقت والدة "هايدي" "وعد" بغضب وهي تتفرس في ثيابها الرثة وظهر كفيها اللذين لايزالان يحلان محل ملامح وجهها وقالت بازدراء:

- ازاي الأشكال دي يحطوها في الفصول مع بنات الناس المحترمة؟

بتشفٍ بثَّت "هايدي" سمومها:

- أصلًا دي بنت مش محترمة يا ماما وبلاويها كتير.

التزمتا الصمت، بعدما وجه الضابط أوامره إلى "وعد" بالجلوس، فأزاحت كفيها ببطء ليكشفا عن وجه ممتقع بشدة.

جلست على المقعد المواجه لوالد "هايدي" إلى يمين الضابط، الذي قال وهو يسند ظهره إلى مقعده وينقر بقلمه فوق المكتب:

- عايزين نحلها ودي.. الصلح أحسن عشان مستقبل البنت.

اندفع والد "هايدي" قائلًا بحزم وبصوت وقور كهيئته:

- صلح ايه يا فندم.. البنت دي حرامية ولازم تتربى.

- عيلة وغلطت.

- اللي غلط يتربى عشان يتعلم انه مايغلطش تاني.

- بس دي بنت، ولو القاضي حكم عليها هتبقى سابقة في ملفها.

- كانت تفكر في كده قبل ما تمد ايديها وتسرق.. صدقني يا فندم لو الأشكال دي ما اتعاقبتش هتسرق تاني وتالت ورابع.. والمجتمع هيبقى غابة!

تابعت "وعد" الحديث الدائر، وشعاع أمل يخترق الظلام الذي علقت بين براثنه. لكن الشعاع انطفأ عندما صاحت "هايدي":

- دي أصلًا مش أول مرة تسرق.. "وعد" سرقتني قبل كده

اندفعت الرؤوس الأربع تجاهها تحملق فيها أربع أزواج من الأعين المتسعة دهشة وفضولًا، سألها الضابط باهتمام وقد توقف عن النقر بقلمه وتحفزت جلسته:

- سرقتك قبل كده!

تعمدت ألا تنظر إلى "وعد" التي ترمقها مصدومة:

- أيوة سرقتني.. وأنا سامحتها، وعشان ما اتعاقبتش كررتها تاني وسرقت.. والله أعلم ممكن تكون كمان سرقت حد غيري وهم كمان سامحوها أو ماعرفوش ان هي اللي سرقت.. كان في حاجات بتضيع من الفصل كتير وأكيد هي اللي سرقتها.

هتفت "وعد" التي لم تعد تتحمل الصمت ازاء هذه الإفتراءات:

- أنا يا "هايدي"؟.. أنا سرقتك؟

بغل وحقد قالت وهي تتذكر ما فعلته "وعد" بها:

- أيوة.. انتي هتستعبطي ولا ايه يا حرامية؟

- انتي كدابة.. وربنا هينتقم منك عشان بتفتري عليا.

انطلق صوته الحازم يفض المشاجرة الكلامية المتصاعدة وتيرتها:

- جرى ايه انتي وهي.. انتوا في قسم مش في شارع؟

ثم التفت إلى "وعد" يسألها بصرامة:

- انتي سرقتيها قبل كده؟

بحماس نفت:

- لا والله العظيم ما سرقتها.. دي بتتبلى عليا.

بشك نظر الضابط إلى "هايدي" التي قالت بقوة:

- وأنا هتبلى عليها ليه يعني.. والله سرقت سلسلة دهب شافتني لما قلعتها وحطتها في شنطتي فسرقتها من الشنطة.

سألها إن كانت قد بلغت مديرة المدرسة أو إحدى المعلمات فأجابت بتوتر:

- لأ.. لأنها فضلت تعيط زي ما بتعيط دلوقتي وتترجانيماافضحهاش.. فصعبت عليا.

- في شهود؟

- أيوة.. واحدة صحبتي كانت موجودة معايا لما "وعد" اعترفتلي ان هي اللي سرقت.

لمعت عيناها بخبث, فقد حاكت جيدًا رداء التهمة فوق جسد "وعد"، بمعاونة صديقتها الصدوق التي كانت على أتم الاستعداد لتشهد معها زورًا، ساد الصمت للحظات قطعها والد "هايدي" بترفع وانتصار:

- شفت يا فندم.. ده اللي بقوله لحضرتك.. البنت دي لازم تتعاقب عشان تعرف حجم الغلطة اللي غلطتها.. وتعرف ان الغلطة لها تمن.. لو سبناها كل مرة من غير عقاب.. هتتجرأ أكتر وأكتر على الغلط.. لازم تعرف ان في قانون بيحكمنا.. احنا مش عايشين في غابة.. ومسؤلية حضرتك انك تطبق القانون عليها وعلى اللي زيها.. عشان نحمي ولادنا من مخالطة الولاد المنحرفين دول

****

حاولت"وعد" النوم، علها تتخلص من ذلك الصداع المدمر الذي يعصف برأسها، أو تريح مقلتيها من لهيب دموعها؛ لكنها فشلت في النوم بعد ساعات من التقلب فوق الأرض العارية، التي تنخر بصقيعها في عظامها. تقلبت كأنها ترقد فوق جمرات لا تهدأ، حتى هتفت إحدى السجينات بها بغلظة:

- ما تبس يا بت ركبتيني العصبي.. اتهدي ونامي بقى.. الله!

تجمدت "وعد" في مكانها، تخشى إثارة غضب تلك السجينة.

سكنت، إلى أن استسلمت للنوم دون أن تذكر كيف ومتى، حتى ناداها الضابط في الصباح. لم تصدق عندما أشار إلى الهاتف بلامبالاة، سامحًا لها بالاتصال بأمها، بعدما أخبرها بأنه قد تم انتداب محامٍ لها، لعدم استطاعتها أن توكل واحدًا. كانت تجهل ما لها من حقوق، لذلك رأت فعل الضابط من الكرم الحاتمي!

اتصلت بـ "أم مرزوق" تخبرها بصوت مضطرب وبعبارات مقتضبة ما آل إليه حالها، ثم طلبت منها الاتصال بمعهد الأورام واخبار والدتها بما حدث بعدما

أعطتها رقم الغرفة , لجأت لـ "أم مرزوق" لتكون ناقلة ذلك الخبر الكارثي بسبب الشعور بالخزي الذي سيطر عليها، فلم يكن بمقدوها أن تخبر أمها بنفسها، كانت أضعف من أن تفعل.

كوتها نيران الشوق في تلك اللحظة إلى صوت "أمل" وأحضانها وقبلاتها وكلماتها التي تحيل العتمة نورًا، وزاد من عذابها جهلها بحالة أمها الصحية طوال اليومين اللذين أمضتهما بعيدا عنها, همست في نفسها بمرارة بعدما عادت إلى الحجز وهي تسمع صوت المزلاج من خلفها " أنا آسفة يا ماما.. سامحيني".

تراءى لها أن الثالوث الكريه الفقر والجوع والجهل، الذي لطالما قض مضجعها تحاول جاهدة الفكاك منه، لم يكن سوى الرأس التي تخفي تحتها أزرع وأرجل أكثر قبحًا.

****

ودت لو ارتدت على أعقابها في اتجاه الحجز مرة أخرى هاربة من نظرات "أمل" التي شقت قلبها إلى نصفين. تمنت أن تصرخ بها، تعنفها، تضربها، تفعل بها ما يذهب غيظ قلبها، ولتكف عن طعنها بتلك النظرات الأكثر قسوة من حجر صوان. سمعت "أم مرزوق" تسألها:

- ازيك يا "وعد" يا بنتي.. انتي كويسة؟

لم تجبها.. لم تنظر إليها، اندفعت تجثو على ركبتيها أمام أمها وتطوق خاصرتها بذراعيها اللذين ازدادا نحولًا، تدفن وجهها في صدرها بقوة وجسدها كله ينتفض ببكاء محموم:

- أنا آسفة يا ماما.. آسفة قوي.. ماعرفش أنا عملت كده ازاي.. اعملي فيا أي حاجة بس ماتزعليش مني.

لم تحرك "أمل" ساكنا، فرفعت "وعد" رأسها تنظر إليها بأسى شارحة:

- والله كنت هرجعها.. مارضتش أبيعها وكنت هرجعها لـ "هايدي".. بس ماكنتش عارفة طريقها.. والله صدقيني كنت هرجعها.. أنا مش حرامية.

امتزجت نظرات العتاب والغضب بدموع المقل، واندثرت خلفها حتى لم يبق منها إلا النذر اليسير. قطع المحامي المنتدب لحظات الشجن متنحنحًا:

- زي ما قلت القضية خلاص هتتحول للنيابة.

تساءلت "أمل" بلهفة:

- طيب وبعدين.. ايه اللي هيحصل؟

مط شفتيه قائلًا:

- الموضوع في ايد النيابة، على حسب ما يشوف القاضي.. إما يديها حكم مخفف أو مشدد.. وللأسف "هايدي" اتهمتها بالسرقة قبل كده وفي شاهدة.. ودي نقطة مش في صالحها أبدًا.. والحالة الاجتماعية والمادية لـ "وعد" ومرضك وانشغالك عنها ممكن قوي يخلوا القاضي يديها حكم عشان سلوكها يتظبط في المؤسسة العقابية.

سلمت "أمل" أمرها إلى الله، وقبل أن تغادر بصحبة "أم مرزوق" شدت على يد "وعد" وهي تقول بنبرة قوية ونظرات ثاقبة تعرب عن مدى أهمية ما تنطق به:

- اللي ربنا رايده هيكون.. لو طلعتي من هنا ولقيتي ربنا اختارني عنده.. هتلاقيني سيبالك ظرف مهم مع "أم مرزوق" فيه حاجة تخصك.. لو بتحبيني هتنفذي كل حرف فيه.

بهلع قالت "وعد":

- ماما ما تقوليش كده.. انتي هتبقى كويسة.. وهخرج من هنا وهنكون مع بعض تاني.

دقت أجراس الرحيل فتشابكت الأيدي الأربع تتعانق أصابعهما بقوة، وكل منهما تستنشق عبق الأخرى وكأنه أكسير الحياة، تنظران إلى بعضهما وكأن كل منهما وتين قلب الأخرى إذا انقطع انقطعت الحياة، لوهلة راودها جنونها لأن تركض بصحبة أمها وتهرب من ذلك الجحيم الذي سُيِّجت به.

ماتت الكلمات على الشفاة وأعلنت الدموع ساعة الحداد وهي تسقط هناك.. في بئر الأحزان.

فدار بينهما كأس العذاب.. وكان وداعهما كوداع الأموات!

بعد عدة أيام انضم إلى ثالوثها الكريه عضو رابع لم تحسب له حساب، باغتها في أشد لحظاتها بؤسًا وقهرًا واحتياجًا، عندما كانت غافلة عنه بهومها، ربما لأنها ظنت أن الحياة لا يمكنها أن تكون أشد قسوة مما هي عليه الآن.

امتلأ مكتب الضابط بعويلها ولطماتها على وجهها وجسدها، وكادت أن تشق ثيابها بأظافرها وأسنانها من هول الصدمة، أخذت ترغي وتزبد كمن فقد عقله.. أو كاد، تتفوه بكلمات تخرج من بين شفتيها بغير معنى. لم تفلح تهديدات الضابط الغاضب في إنهاء حالة الهياج التي اعترتها، فأمسك بها يحاول تقييد حركتها الشعثاء المضطربة، فإذا بالفتاة التي علمت للتو بموت أمها، تزامنا مع موعد عرضها على النيابة، تسقط تحت أقدامه مغشيًا عليها.

جلست في عربة الشرطة التي تقلها إلى النيابة، ويدها مصفدة إلى يد العسكري بجوارها, لا تملك ترف الحصول على وقتٍ لالتقاط أنفاسها والخروج من صدمة هذا الخبر المفجع. نوبات صراخ وبكاء تأتيها بغتة، تهدأ بعدها من التعب، لتعاود الكرة من جديد.لم تتفوه بكلمة واحدة، لم تعزف أوتارها الصوتية سوى لحن الألم. وعندما أُجلست على الأرض بجوار غرفة القاضي، تنتظر لحظة عرضها عليه، كانت قد استنزفت كل قواها.

لم تفقد "وعد" أمًا فحسب، بل فقدت بموتها كل شيء. وقفت أمام القاضي بملابسها المتسخة المهترئة، ووجهها الذي خالطت فيه دموعها ذرات التراب، فأضحى أرضًا خصبة للألم الذي أزهر وأينع.

فوجئت "هايدي" بضميرها، الذي استيقظ أخيرًا من سباته، وهي ترى "وعد" وقد أضحت كالمومياء. أفزعت للحال المفجعة التي كانت عليها، وعندما علمت بموت أمها ازداد ضميرها هياجًا، حتى كادت أن تعترف بكل شيء وتنكر ما كادته لها من اتهامات باطلة، أخذها القاضي في حسبانه وهو يضع حيثيات حكمه، خاصة بعدما فقدت "وعد" عائلها الوحيد. لكنها عادت فخافت من تبعات اعترافها ذاك.

خافت أن تعاقب بالحبس الذي لن تطيقه، وعلى سمعتها وسمعة عائلتها. نعم تأثرت بحال "وعد"، ولكن ليس لدرجة أن تفديها بنفسها.

أخرجها من شرودها صوت القاضي وهو يعلن الحكم على "وعد" بعقوبة مشددة ثلاث سنوات، تقضيها في المؤسسة العقابية.

انعقد جبين "هايدي" تأثرًا، وهي تنظر إلى "وعد" التي تلقت الحكم بلا أي رد فعل. بدت وكأن حواسها لا تنتمي إلى هذا العالم، تسبح روحها في عالم آخر، سبقتها إليه أحب الناس إلى قلبها، وودت لو لحقت بها الآن بلا تأخير. لا تريد العيش بين هؤلاء البشر تريد الرحيل.. تريد كأمها الخلاص من هذا العالم بجحيمه وحممه.. هناك لن تتعذب، لن تقاسي ظلمًا، هناك لن تجد إلا عدلًا.

كادت أن تهتف بالقاضي أن يراجع قراره، وترجوه أن يبحث في كتبه ومراجعه، عله يجد طريقة تغير عقوبتها إلى الإعدام.

كادت ترجوه أن يفعل، لولا انهيارها أرضًا، بعدما فشل جسدها -كعادته في الأيام الأخيرة- في تحمل ثقل جسدها وهمومها معًا.

* * *

الفصل الثاني

أشـواك

لا تذكر كم لبثت في هذا المكان.. أيامًا؟.. لا، علها أسابيعًا أو حتى شهورًا، أو ربما سنوات. لا تعرف، فلم يعد للوقت أهمية.. بل لم يعد هناك وقت؛ توقف بندولها عن الحركة منذ أمد لا تعرف مداه.

أصوات تتنامى إلى مسامعها، متباينة في طبيعتها وشدتها، في اقترابها وابتعادها.. ضاحكة أحيانًا، مملة كثيرًا، غليظة غالبًا، ودودة نادرًا. أصوات لا تعرف أصحابها، متداخلة جملها وكلماتها وحروفها؛ حاولت التركيز لتفهمها، لكنها تفشل في كل مرة، لتسبح في عالم آخر رسمته بريشتها، واختارت له ألوانًا مبهجة، تتخلله أحيانا بعض الظلمة، لكنها لاتلبث سريعًا أن تغمرها بألوانها الخاصة، فيستحيل الأسود إلى قوس قزح. عالم اختارت شخوصه بعناية: هي، أمها، "أم مرزوق"، "زياد"، وأشخاص قلائل لا تعرفهم مطموسي الأوجه يلعبون دور الكومبارس في الخلفية.

اختارت لكل منهم لونًا مميزًا لثيابه.. لأمها اللون الأخضر بلون أوراق شجرة السنديان، بصلابتها وغزارة عطائها وجمال مظهرها، لا يمسها الخريف قط.

ولـ "أم مرزوق" اللون الأزرق بزرقة عينيها. كانت تريها صورها في ريعان شبابها، وكم كانت حقًا جميلة؛ حتما ستحب اللون الأزرق. ولـ "زياد" لونًا رماديًا يميل أحيانًا إلى الأبيض ويشع بضوء مبهر، وأوقات أخرى يزداد قتامة ويختلط ببعض الزرقة، فلا يكاد يميز من لون السماء بعد هروب شمسها.

لنفسها لم تختر لونًا محددًا.. تارة تجد فستانها بلون زهرة اللوتس، أو بلون سفوح الجبال، أو العصافير على الشجر.. وتارة تجده بلون قاع المحيط، أو صخرة صغيرة على رمل الساحل.. أو بلون الأرق!.. يختفي عالمها الوهمي، وتضيع أركانه بين صور وأصوات من عالمها الحقيقي، تفرض نفسها عليها وتجبرها على العيش معها، فتغمض عينيها بقوة علها تختفي من أمام ناظريها، وتخفي أذنيها بكفيها حتى لا تنفذ الأصوات منهما.. وتحلق مرة أخرى في فضاء خيالاتها وأوهامها.

في إحدى المرات، وفي منطقة ما بين الوهم والحقيقة، رأت أمامها شمسا حقيقية جدًا، بضوئها الساطع ولونها البرتقالي المشرب بالحمرة. كانت جميلة، أجمل من تلك الشمس التي كانت تراها منذ... لا تعرف منذ متى، لكنها الآن أجمل.. وأقرب.. وأكبر. شكلها غريب، ليست دائرية كما عرفتها، أصبحت أسطوانية.. لا بل مخروطية.. أو هرمية، كلا إنها مستطيلة، أو لعلها ليست أيًا من تلك الأشكال تتخذ. بغير شكل ثابت هي، إنها تتغير.. تكبر وتتسع.

الآن أصبحت مزعجة، مزعجة جدًا.. بل مؤلمة.. حارقة.. خانقة.. تشعر بلفح أشعتها على بشرتها الساخنة. إنها تقترب.. تأكل ما حولها بشراهة فهد جائع أمام غزال جريح شُلت حركته.

بغتة، انفصلت عن وهمها، واستثارت كل حواسها، حقيقة لا خيال، فأطلقت صرخة عالية لم تتجاوز حنجرتها..ثم أزاحت الغطاء من فوقها عنوة، ووقفت تتلفت حولها تبحث بلهفة عن منفذ للهرب. أين ذلك الباب اللعين؟!

أليس لهذا المكان باب؟!

مومياء شاحبة تبدو، وكأنها خرجت للتو من مقبرة شيدت منذ آلاف السنين. الباب!.. هاهو.. تبًا!، إن قبضته شديدة السخونة.. لا ليست ساخنة، هاهو ينفتح، وتهرول في ممر طويل، حتى تصل إلى آخره، وتقف لتلهث، ولتلتفت تنظر إلى الغرفة المتوهجة والتي تلتهمها ألسنة النيران من الداخل!

امتلأ الممر بالنساء اللاتي قسمن المهمات بينهن بغير اتفاق. تكفلت الكثيرات منهن بالصراخ، بينما تولت أخريات مهمة إحضار طفايات الحريق والإسراع بإفراغها على الوحش الحارق بالداخل. ثم امرأة تبدو عليها الهيبة، ترتدي زيًا عسكريًا تشق الجمع، الذي ما إن رأوها حتى أفسحوا لها الطريق المؤدي إلى الغرفة، التي انطفأت نيرانها مخلفة رمادًا ودخانًا خانقًا، وسمعت بعضهن يهمس: "الست المديرة جت".

ارتطمت النوافذ بالجدران في خط واحد، فالتقى هواء المبنى الساخن بالهواء البارد خارجه في صراع يحاول كل منهما التأثير في درجة حرارة الآخر.

وقفت "وعد" خلال كل ذلك كقط مفزوع تائه. أخذت امرأة ممن يرتدون ثيابًا عسكرية في الصراخ على الفتيات بغلظة، تأمرهن بالتجمع داخل صالة الطعام بالأسفل، فنزلن الدرجات مسرعات، بينما وقفت "وعد" تشعر بالحيرة، حتى اقتربت منها تلك المرأة وساقتها من ذراعها إلى الطابق الأول، حيث صالة الطعام واسعة، وعدة طاولات مستطيلة تم رصها بجوار بعضها البعض طوليًا بطول الغرفة، وعلى جنبيها عدد كبير من المقاعد بامتداد الطاولات، وفي الفراغ حولها عدة طاولات مستديرة، يلتف حولها عدد آخر من المقاعد، والتي اكتظت جميعها الآن بالفتيات.

تسلقت بعضهن الطاولات وجلسن فوقها، وتعالت الأصوات تخبر كل منهما الأخرى عن مشاعر الخوف والفزع التي اعترتها منذ قليل. هزت "وعد" رأسها

فشعرت بألم حاد يكاد يشق رأسها إلى نصفين، لا تدري هل نبت فيه فجأة أم أن خلاياها نسيت أن تُحمِّل أعصابها إشارات الألم إلى مخها ليترجمها بعد الهلع الذي عاشته.

- بنات عنبر (ج)، المديرة عايزاهم في مكتبها حالًا.

أخرجت تلك العبارة "وعد" من شرودها، وأنستها ألم رأسها. رأت عددًا من الفتيات يتحركن باتجاه الباب، يقدمن رجلًا ويؤخرن الأخرى، وعلى وجوههن تعتمل مشاعر التوتر والاضطراب والخوف. شعرت فجأة بإحدى الحارسات تطبق على ذراعها قائلة بحدة:

- يلا ياختي ماسمعتيش.

كانت كطفلة مذعورة في بيئة غريبة تتعامل معها بحذر بالغ، قدماها تحملانها بصعوبة، وهي تسير متخبطة إلى غرفة فسيحة ازدانت بعدة لوحات كبيرة ذات إطار ذهبي مزخرف للرؤساء السابقين للبلد، وأسفلهم علق صفٌ من الصور لرجال لا تعرفهم يجمع بينهم زيهم العسكري، وقد ابتلعت الحجرة مكتبًا كبيرًا عتيق الطراز، علق خلفه بطول الجدار ستار كبير داكن اللون، وفي أحد الزوايا رأت طاولة تضم عدة أوسمة ونياشين لم تستطع "وعد" قراءة ما كُتب فوقها لبعد المسافة بينهما.

أمرت المديرة بصوت جهوري باصطفاف البنات، واللاتي كن ثلاثين فتاة، في صفين، فاستجبن على الفور. تملكها الخوف والمديرة تتفرس في وجوههن بنظرات ثاقبة بينما تعقد ذراعيها خلف ظهرها وتقول:

- دي مش أول مرة تحصل فيها حريقة في عنبر "ج"، المرة اللي فاتت سبت "النبطشي" بتاعتكو تتصرف.. لكن المرة دي أنا اللي هعاقبكم كلكم.

تقدمت إحدى الفتيات خطوة، تراقبها "وعد" متعجبة من جرأتها على التحرك من مكانها، وسمعتها تقول:

- حضرة المديرة.. أنا هتصرف في الموضوع ده.

هتفت المديرة بغضب عارم وهي ترمق الفتاة بنظرات نارية:

- موضوع ايه اللي هتتصرفي فيه وانتي مش عارفة تسيطري على عنبرك يا حيلتها.

ثم أردفت بحزم شديد:

- اختيارك "نبطشي" كان غلطة من الأخصائية.

ثم صاحت بحدة وهي تنظر إلى إحدى الحارسات:

- فين الست "مشيرة".. شوفوهالي في أنهي داهية؟

لم تكد تنتهي من كلماتها الغاضبة، حتى سمعت طرقات على الباب ثم دخلت امرأة ذات وجه أبيض مستدير تعلوه أمارات التوتر والاضطراب. هتفت بها المديرة:

- ايه يا ست "مشيرة".. لو مش قد المسؤلية قولي واحنا نجيب حد غيرك يشوف شغله.

قالت "مشيرة" وقد اندفعت الدماء متفجرة في وجهها:

- صدقيني دي آخر مرة هتسمعي حضرتك مشكلة في عنبر "ج".. والبنت اللي عملت كده هعرفها وهعاقبها عقاب عسير.. وأخليها عبرة للبنات كلها.

- دي آخر فرصة ليكي يا "مشيرة".

وبازدراء أشارت إلى الفتيات:

- يلا انتي وهي على عنبركو.

غادرن الغرفة، تتبعهن الأخصائية النفسية "مشيرة"، والتي تتولى مهمة الإشراف على عنبر "ج". دخلن العنبر وأغلق الباب خلفهن بالمفتاح.

اكتست ملامح "مشيرة" وصوتها ونظرات عينها بشراسة مخيفة وهي تهتف بصوت كفحيح الأفعى، قذف الخوف في قلب "وعد":

- أنا هربيكو يا شوية......

باردتها تلك الفتاة، التي تحدثت في غرفة المديرة، بصوت مضطرب متلعثم:

- ماتقلقيش يا ست "مشيرة".. أنا...

باردتها بعنف وهي تضع سبابتها فوق وجهها:

- اتكتمي مااسمعش نفسك.

امتقع وجه الفتاة، فأردفت "مشيرة" بصرامة:

- يلا جهزي نفسك عشان هتتحولي "تصنيف"!

تناثرت ابتسامات الشماتة على أوجه الفتيات وهن يتطلعن إلى التي دمعت عيناها وهي ترجو "مشيرة" بلوعة:

- لا أرجوكي يا ست "مشيرة".. بلاش تصنيف..عاقبيني أي عقاب تاني.. احبسيني انفرادي..احرميني من الأكل.. أي حاجة أبوس ايدك بس بلاش "تصنيف".

دفعتها "مشيرة" في صدرها بعنف وقالت قبل أن تغادر:

- يلا لمي حاجتك.. نص ساعة وتكوني تحت.

راقبت "وعد" ما يحدث في دهشة وهي تتساءل عن ماهية القوانين السارية في هذا المكان. ماذا يعني هذا الـ "تصنيف". ولماذا تخشاه الفتاة إلى هذه الدرجة؟! أنوع من العقاب هو؟! لماذا تبدو أمارات السعادة على وجوه الفتيات وزميلتهن يطالها هذا العقاب؟!

تركت أسئلتها معلقة برأسها بلا إجابة، وتوجهت إلى فراشها تلقي بجسدها فوقه وهي تتطلع إلى الفراش المحترق المجاور له، والذي تفحم بالكامل. استرجعت برؤيته مشاعر الفزع التي تجرعتها عندما رأت النار تشب فيه مرتفعة بألسنتها حتى طالت السقف، الذي اصطبغ بدوره باللون الأسود في مواضع متفرقة.

التفتت تنظر إلى الجهة الأخرى، حيث فتاة متمددة فوق فراشها في استرخاء. على استحياء وجهت إليها "وعد" سؤالًا:

- ممكن تقوليلي أنا هنا من امتى؟

خرج صوت "وعد" غريبًا على أذنيها، وكأنه صادر من شخص آخر غيرها، تُرى متى تحدثت آخر مرة إلى شخص ما؟! نعم.. تذكرت، إنه اليوم الذي لا تعلم متي كان، عندما كانت تصرخ باكية بقوة، بينما حارستان تسوقانها بعنف سحلًا إلى حيث تجلس الآن، ثم تقيدان حركاتها الجامحة بربط يديها وقدميها إلى الفراش، وتنحني فوقها طبيبة ذات معطف أبيض تحقنها بشيء تجهله وهي تكيل لها السباب، حتى أضحت صرخاتها تبتعد شيئًا فشيئًا، وبدت وكأنها قادمة من هوة ساحقة، ثم أظلم كل شيء..

كانت تستيقظ لتجد الظلام يلف المكان فتنتحب بشدة وهي تنادي أمها: "سبتيني ليه.. خديني من هنا.. ماتسبينيش لوحدي". فتستيقظ بعض الفتيات غاضبات تسبها واحدة وتزجرها أخرى، لتلزم الصمت وإلا... فتبتلع شهقاتها وهي تنظر إلى ما حولها برعب، بينما جسدها ينتفض.

أجابت الفتاة على سؤالها وهي ترمقها كما تفعل مع الزرافات في حديقة الحيوانات:

- 5 أيام.. أو 6.. حاجة كده!

تعجبت "وعد" من الإجابة، وهي التي كانت تظن أنها أمضت هاهنا دهرًا!

- احنا قلنا ان انتي خلاص بتودعي.

نظرت إليها "وعد" مستفهمة، فأردفت الفتاة التي تركت فراشها وجلست بغير دعوة مجاورة "وعد" فوق فراشها:

- كنتي سخنة مولعة حرارتك عالية مابتنزلش.

ثم أتبعت كلامها بفضول:

- الست الأخصائية قالتلنا ان أمك ماتت.. هو انتي قضيتك ايه؟

ارتسم الألم على وجه "وعد"، واغرورقت عيناها بغثاء من العبرات، فأردفت الفتاة هامسة:

- مخدرات ولّا.....

بادرتها "وعد" بسرعة:

- لا طبعا.. أنا هنا عشان أنا...

صمتت هنيهة تحاول بصعوبة استفراغ الكلمة المحشورة داخل حلقها، وبصوت خافت يكسوه الخجل أردفت:

- سرقة

- كم سنة؟

- 3 سنين.

- ايه ده.. دي مش أول مرة بقى!

امتقع وجه "وعد" وقالت مدافعة عن نفسها:

- لا والله دي أول مرة في حياتي أعملها.

- طيب ليه خدتي 3 سنين.. المفروض سنة ولا حاجة.

ثم أشارت برأسها إلى فتاة وقفت تبدل ملابسها بلا خجل في الفراغ المستطيلي بين الأسِرَّة:

- البت دي ممسوكة سرقة أول مرة وخدت سنة.

بمرارة شرحت لها "وعد":

- واحدة ربنا ينتقم منها اتبلت عليا وكذبت وقالت اني سرقتها قبل كده.

- وهي ليه عملت كده؟

- منها لله قلبها اسود.. ربنا ينتقم منها.

حاولت "وعد" رسم بسمة على شفتيها وهي تقول بسذاجة:

- اسمك ايه؟

- "عبير"

- أنا ارتحتلك يا "عبير".. ممكن نبقى صحاب؟

ضحكت الفتاة:

- كان نفسي.. بس خلاص ماعادش إلا 3 أيام وأخرج من هنا.

نظرت "وعد" إلى الفتيات حولها بتوجس، لا تعرف كيف ستمضي أيامها بينهن. رأت الفتاة التي صرخت الأخصائية "مشيرة" فيها منذ قليل وقد انتهت

من جمع أغراضها في حقيبة كبيرة، وبرأس مطأطأ وعبرات تسابق كل منها الأخرى غادرت العنبر والعيون تتابعها.

التفتت تسأل "عبير" بفضول:

- هم هيعملوا فيها ايه؟

بلا مبالاة أجابت "عبير":

- هتتصنف.

- يعني ايه هتتصنف؟

- يعني هتروح عنبر تاني.

- طيب وهي ليه بتعيط؟.. عشان هتبعد عن صحابها اللي هنا؟

أطلقت الفتاة ضحكة عالية وهي تنظر إلى "وعد"باستخفاف قائلة وهي تستلذ دور الأكثر خبرة:

- لا طبعًا صحابها ايه.. البنات هنا بيكرهوها موت.. دي "النبطشي" بتاع العنبر.. يعني أكتر حد مكروه في العنبر.

تجعد جبين "وعد" وهي تشعر بالغباء، لكنها لم تستطع كبح جماح فضولها:

- يعني ايه "نبطشي".. وليه بيكرهوها؟

أمالت "عبير" برأسها تجاه "وعد"، وأفصحت بنبرة العارف ببواطن الأمور:

- بصي يا ستي.. كل عنبر هنا له "نبطشي".. اللي بتكون أقدم بنت في العنبر وأكتر واحدة محكوم عليها.. بتختارها الست الأخصائية عشان تكون بدلها طول ما هي مش موجودة في العنبر.. وكل عنبر له أخصائية مسؤلة عن البنات اللي فيه.. فهمتي؟

- "النبطشي" هو قائد العنبر يعني؟

- بالظبط، قائد العنبر.. وبتختار مجموعة مساعدين من العنبر نفسه.. اسمهم "السِهْرايَة".. ودول بيكونوا 6 أو 7 بنات حسب ما تشوف "النبطشي".. وبيكونوا تحت طوعها وبينفذوا كل أوامرها.

- طيب وباقي العنبر؟

- باقي العنبر بقى دول شوية الغلابة اللي "النبطشي" و"السِهراية" بيطلعوا عليهم عقدهم النفسية.. والويل للي تخالف الأوامر.. بتنضرب لما يعدموها العافية.

رفعت "وعد" حاجبيها وقالت باستهجان:

- طيب وليه مش بتشتكو للأخصائية أو للمديرة؟

قالت "عبير" ساخرة:

- نشتكي ايه يا بنتي افهمي بقى.. شكلك هتتعبي قوي هنا.. يا بنتي كل اللي بيحصل ده بيكون بعلم الأخصائية والمديرة.. واللي تخالف أوامر "النبطشي" الأخصائية نفسها هي اللي بتعاقبها.

صمتت "وعد" تحاول أن تجد مبررا أو منطقا لممارسة تلك القوانين الشاذة، ثم سألتها:

- برضه ما قلتيش يعني ايه اتصنفت.

طال الحديث، فأراحت "عبير"جسدها فوق فراش "وعد" واستندت برأسها إلى مرفقها وهي تقول:

- لما "النبطشي" نفسها بتغلط، الست الأخصائية بتعاقبها "بالتصنيف".. معناه انها بتنقلها من العنبر بتاعها اللي هي القائد بتاعه لعنبر تاني هتبقى فيه مجرد نزيلة عادية.

- مممم.. بس ده مش عقاب كبير يعني.

- لا ما انتي ماتعرفيش انها قبل ما بتروح العنبر الجديد لازم تمر على عنبر الاستقبال يعملو عليها الأول حفلة ضرب طول اليوم لحد ما جسمها يورم وبعدها تطلع العنبر الجديد.

نظرت إليها "وعد" بدهشة، فأردفت "عبير":

- أي بنت بتدخل العقابية لازم يتعملها حفلة ضرب في عنبر الاستقبال قبل ما تطلع عنبرها.. بس انتي كان حظك حلو لأنك كنتي جاية شبه ميتة ومنهارة وحرارتك عالية فنفدتي من حفلة الاستقبال دي.

مزيج من الخوف والاشمئزاز اعتمل في نفس "وعد" تجاه تلك الممارسات الشاذة في حق قصّر!

كانت تلك هي بداية تعرفها على قوانين دولة العنبر، تلك القوانين الغير مكتوبة، والغير منصوص عليها في الأوراق الرسمية المنظمة للعمل داخل المؤسسة العقابية، إلا أنها جاري العمل بها وكأنها قوانين سماوية لا يجوز مخالفتها!

والويل لمن يخالفها، قوانين لا تعلم واضعها، ولا على أي أساس بُنيت، لكنها تعلم شيئًا واحدًا.. أن العمل بهذه القوانين يخالف فطرتها الطيبة المسالمة التي جُبلت عليها، نقطة الشر بداخلها لم تصل إلى تلك المرحلة المستفحلة والتي تستلذ فيها بتعذيب غيرها، والاستمتاع بالسلطة التي يمنحها القائمون على هذا المكان لبعض النزيلات إن كانت ستؤذي باقي النزيلات.

تملكتها الرهبة والريبة وتوجست خيفة، لا تدري كيف تمضي أعوامها الثلاث في هذا المكان، كيف ستتعامل مع "النبطشي" والتي لها اليد العليا في العنبر بعد المديرة والأخصائية، كيف ستتوافق مع مجموعة "السهراية" اللاتي تقتصر مهمتهن على التأكد من الالتزام بقوانين الحكم الذاتي داخل دولة العنبر!

في الليل، بعدما ساد الهدوء داخل العنبر، تدفقت عبراتها في صمت، دون أن يهتم لأمرها أحد. توارت في ثنايا عقلها صورة العشة، وحكر أبو دومة، والحارات الضيقة، وبائع الفول الذي يوقظها في الصباح الباكر بصوته الجهوري من نومها العميق، ورائحة القمامة التي تشمئز منها تنبعث من كل مكان، وذرات الغبار التي تحمل بينها الهواء.. قتامة القسمات وشحوب الأوجه وأنين الأجساد.. بكاء الأطفال وصياح الكبار وعراك الفجار.. الشحاذين والباعة الجائلين.. حتى البرج العالي الذي كانت تراه من نافذة العشة وتتمنى أن تخطو بأقدامها داخله، اختفت صورته من قلبها وعقلها.

لم يبق سوى صورة "أمل".. طيبتها وحنانها، مس يدها لجبينها في المرض، كوب الشاي الذي كانت تعده لها وقت المذاكرة، ألم جسدها الذي كانت تخفيه عنها، جلستها على الأرض منذ الصباح تبيع الخضر من أجلها، عملها بالمستشفى والذي أنقض ظهرها، ذبولها وتفانيها وضمور شذاها على مدى سنوات، لتبقى هي زهرة ندية يعبق شذاها أرجاء الدنيا.

هل عاشت أمها لنفسها يومًا؟ كلا، لم تفعل.. كانت تتنفس لأجلها هي.. تكد وتتعب من أجل أن تصيرها طبيبة يشار لها بالبنان، لا لأجل شهرة ولا مال يُذهب بالضمائر والعقول، بل لأجل أن تكون دواء لكل مريض محتاج.

خجلت..كادت أن تموت خجلًا من نفسها، ومما كانت تتمناه قبلًا أن تكون ابنة لامرأة أخرى، تعيش حياة أفضل، تأكل وتشرب وتلبس ما تشتهيه نفسها.

يستطيع الطعام الفاخر، الذي اشتهته دائمًا وما ذاقته قط، أن يشبع جسدها وتتلذذ به معدتها، لكنه لا يستطيع أن يمنحها لذة كسرة خبز جافة تضعها أمها داخل فمها الآن. تستطيع كل تلك الثياب الأنيقة ذات الماركات العالمية، التي كانت تراها فتنبهر، أن تمنح جسدها التألق والتميز، لكن لا يمكنها أبدًا أن تروي ظمأ جسدها لعناق دافئ لم تعرفه إلا وهي بين ذراعي أمها السخيتين، ملاذها الآمن الذي تحتمي به من قسوة الدنيا وشرور معمريها. كانت الحصن الذي تلوذ به فتحتمي، والقوة التي تستند إليها فتقف، والضعف الذي تركن إليه فترتاح. لَطيّات الزمن فوق وجه أمها وكفيها أحب إليها الآن من طيات الحرير فوق جسدها.

****

استيقظت ساعتها البيولوجية في السادسة صباحًا، لتجد أنها الوحيدة المستيقظة في هذا الوقت. أرادت الخروج من العنبر وتفحص أرجاء هذا المكان الذي أصبح مأوى قسريًا لها لثلاثة أعوام قادمة، والذي حالت حالتها النفسية والجسدية في أيامها الأولى دون تفحصه. ظلت قبضة الباب عصية عليها، فلما يئست عادت إلى فراشها لا تدري ماذا تصنع. انتبهت إلى استيقاظ فتاة أخرى في نهاية الغرفة المستطيلة، مستلقية في فراشها تعبث بشعرها ساهمة. ودت لو ذهبت واستهلت معها حديثا، لكنها أحجمت خجلى، واتكأت على وسادة خلف رأسها، ترمق آثار الحريق السوداء بالسقف وهي تتخيلها وحوشًا ضارية تبغي الانقضاض عليها والتهامها بلا رحمة.

ألقت بصرها تجاه "عبير" النائمة كالأموات، يتصاعد من أنفها شخيرًا ينافس شخير أفراس النهر، وتمنت لو استيقظت لتقتسم معها هذا الملل.

في الثامنة صباحًا، وعندما أوشكت أن يقتلها الضجر، تنامى إلى مسامعها صوت مفتاح يدور في باب العنبر، قبل أن ينفتح على مصراعيه فتظهر خلفه

إحدى الحارسات، تلقي نظرة مطولة على الفتيات ثم تنصرف، ليتبع ذلك صوت فتح أبواب العنابر الأخرى.

شعرت "وعد" بنفسها كطير انتشى فرحًا لرؤية باب قفصه مفتوحًا، حتى وإن كان قفصه داخل قفص آخر أكبر حجمًا، موصدة أبوابه بإحكام. همت بالخروج من العنبر، فإذا بالأخصائية "مشيرة" تدلف من الباب بنظراتها الحادة التي تجعلها تنكمش في نفسها، فعاودت الجلوس فوق فراشها بتوجس. صفقت بيديها وهي تصيح في الفتيات ليستيقظن، ففعلن مرغمات، ووقفن في طابورين متوازيين بامتداد الممر بين الأسرة، ووقفت "وعد" في منتصف الطابور الأيسر. تبادلت الابتسام مع "عبير"، التي تفرك عينها وآثار النوم لازالت بادية على محياها وهي تتثاءب بقوة، ثم تطلعت بفضول إلى الأخصائية "مشيرة" التي قالت:

- مين عليها الدور تتولى مهمة "النبطشي"؟

تذكرت "وعد" كلمات "عبير" بالأمس وهي تخبرها أن أكثر فتيات العنبر جرمًا وأقدمهن هي من تتولى دور "النبطشي".

التقت أنظار الفتيات عند فتاة طويلة القامة, قوية البنية بشكل ملفت، تظهر عضلاتها البارزة من ساعديها العاريين، لتشي بطول ممارستها للرياضة التي أنبتت تلك الطبقات العضلية.

وبفضول، تأملت "وعد" آثار جرح مخيف بطول جبينها، تمت خياطته بشكل سيء وبغير احتراف، مخلفة تشوهًا بارزًا منفرًا، مما أكسبها مظهرًا يفتقر إلى الأنوثة. سمعت إحداهن تقول وهي تشير برأسها إلى الفتاة:

- "دنيا" هي اللي عليها الدور يا ست "مشيرة".

لكنها فوجئت بالفتاة المدعوّة "دنيا" تقول بثقة بصوت هادئ قوية نبراته:

- مش عايزة.. اختاروا اللي بعدي!

ران الصمت للحظات، ظنت "وعد" خلالها أن الأخصائية "مشيرة" ستنفجر في وجه هذه الـ "دنيا" معنفة إياها لرفضها، أو ربما ستعاقبها بـ "التصنيف" كما عاقبت من قبلها. ولكن لدهشتها، تجاهلت الأخصائية رفض الفتاة ونظراتها المتحدية، وأوكلت المهمة إلى الفتاة التي تليها في الأقدمية، وكانت فتاة تُدعى "هانم"، متوسطة القامة والبنية، دميمة الوجه بشكل لا يصدق، تمسح رشح أنفها بظهر كفها عادة، الأمر الذي أثار حفيظة "وعد" وتقززت منه بشدة، وقد استقر في عقلها ألا تصافح هذه الفتاة أبدًا!

منذ اللحظات الأولى، ظهر للعيان مدى قوة "هانم" وقدرتها على فرض سيطرتها على باقي الفتيات بعنبر "ج"، تحت نظرات الأخصائية "مشيرة" الراضية والمباركة. بعدما انتهت مراسم تنصيب "النبطشي" الجديد، وما يصاحبه من اختيار مجموعته المسماه بـ "السهراية"، انتظمت الفتيات في طابور واحد، وتوجهن إلى غرفة الطعام لتناول وجبة الفطور. جلست "وعد" على المقعد المجاور لـ"عبير"، الأمر الذي كان يضفي عليها شيئًا من الاطمئنان، وبينما كانت تلتهم طعامها بنهم شديد، مالت عليها "عبير" قائلة والطعام يملأ فمها:

- بعد الفطار بننزل الحوش.. ونتقسم مجموعات. اللي عايزة تجري واللي عايزة تلعب و اللي عايزة تروح المكتبة.

- نلعب ايه؟

- سلة، طايرة، بينج بونج.. ألعاب كتير..

هزت "عبير" كتفيها بلامبالاة وهي تستأنف تناول طعامها.

وبغير عمد، التقت نظرات "وعد" بعيني "دنيا" عبر الطاولة، فسرت رجفة في جسدها، ألصقت نظراتها بصحنها لا تجرؤ على رفع رأسها من جديد.

هامسة، وكأنها تخشى أن تسمعها "دنيا" الجالسة على بعد عدة مقاعد منها:

- هي "دنيا" دي جريمتها ايه؟

بهمس مماثل أجابت "عبير" وهي ترمق "دنيا" بنظرة حاولت أن تبدو غير متعمدة:

- قتلت جوزها.. ابعدي عنها دي شرانية.

- واضح!

****

بدأت "وعد" جولتها داخل المؤسسة العقابية بصحبة "عبير"، التي لعبت دور المرشد. أخذتها إلى الساحة حول المبنى، فوجدتها وقد كسا النجيل أرضها وازدانت بالأشجار والورود، في الجهة المقابلة للبوابة الخارجية التي يدلف منها الأهالي الزائرون والمسؤلون والمراقبون لسير العمل داخل المؤسسة، إلا أنها وجدت "الحوش" خلف المبنى الكبير، وقد غمرته مياه الصرف الصحي، مما اضطر الفتيات إلى العزوف عن الأنشطة الرياضية واكتفين بلعب البنج بونج تحت أشعة الشمس المتوارية خلف السحب، وتوجهت بعضهن إلى المكتبة، وأخريات تناثرن في أرجاء المكان، كل منهمكة فيما لهاها.

مرت "وعد" أيضًا بمكاتب الأفراد العاملين بالمؤسسة من موظفي الشئون الاجتماعية، وكذلك ورش العمل والأنشطة المختلفة، كتعليم الطبخ، والخياطة والتفصيل، والرسم، والتطريز.

بدهشة تساءلت "وعد":

- هو أنا ممكن أتعلم الحاجات دي هنا؟

أجابتها "عبير" التي كانت تجدل بين أصابعها عودا من الخوص:

- أيوة.. بتسجلي اسمك في الدورة اللي تحبيها.

ثم استطردت:

- آه.. وعلى فكرة بيتعمل معرض كل فترة بنبيع فيها الحاجات اللي بننفذها في الورشة.. وانتي وشطارتك.. كل ما كان شغلك حلو كل ما اتباع أسرع وبسعر أعلى.

لاحت على شفتي "وعد" ابتسامة، وأطلت من عينيها نظرة متحمسة. استقر في نفسها ضرورة الاشتراك في إحدى هذه الورش حتى تتكسب منها المال؛ لكنها عجزت عن اختيار النشاط الذي تميل إليه، فأرجأت التفكير في ذلك إلى وقت لاحق.

في اليوم التالي، شاركت "وعد" في لعبة كرة السلة مع ثلة من الفتيات. بصبر، أخذت إحدى الفتيات تشرح لها قواعد اللعبة التي تلعبها للمرة الأولى، بعدما رأت رغبتها وحماستها لمشاركتهن.

أخطأت "وعد" السلة في كل مرة تحاول قذف الكرة بداخلها، وتحولت سعادتها بالمشاركة معهن إلى خيبة أمل، بعدما أثار فشلها سخرية الفتيات، فآثرت الخروج من اللعبة للحفاظ على ما بقي من ماء وجهها. انتبذت مكانا قصيًا، شاردة كانت بينما تتكئ بذقنها إلى كفيها المتشابكين والمتعامدين فوق ركبتيها تراقب الفتيات من حولها.. فتلك تجلس منفردة كما تفعل هي، وتلك تمازح رفيقتها، وأولئك يلعبن في استمتاع، وذاك العامل المسن يجتز الأشجار ويقلمها واقفا فوق سلم خشبي غير متزن كاد أن يسقط به بحركة مندفعة.

شهقت "وعد" ووقفت على حين غرة تهم بنجدته، إلا أنه تعلق بغصن شجرة، واستعاد السلم توازنه تحت قدميه، فعاد إلى عمله منهمكًا، كأن شيئًا لم يكن.

تجولت "وعد" في الساحة حتى حان موعد الغداء، ظنت واهمة أن أيامها ستسير بنفس الوتيرة الهادئة، ولم تعلم أن الأيام العاصفة في طريقها إلى الكشف عن برقها ورعدها.

****

كان ذلك بعد حصة الأعمال اليدوية التي انضمت إليها "وعد" بغير حماسة، عندما نشب شجار عنيف داخل العنبر. بهلع راقبت "دنيا" التي جثمت فوق جسد إحدى النزيلات، وهي تشهر قطعة بلور حادة، وتضعها فوق عنق الفتاة النابض بجنون. نظرت إلى الفتيات حولها تلتمس فيهن النجدة لإنقاذ الفتاة، التي أخذت تئن ألمًا، بعدما اندفعت الدماء من عنقها وهي تحاول دون جدوى أن تخلص نفسها من الجسد الثقيل الجاثم فوقها، بينما اللامبالاة بادية على وجوه الفتيات وكلهن يراقبن المشهد، إلا اثنتين أو ثلاث كانت "عبير" إحداهن، آثرن الابتعاد وآوين إلى فرشهن.

انطلقت "وعد" تهرول خارج العنبر، بأنفاس متقطعة تبحث عن إحدى الحارسات. رأت الأخصائية "مشيرة" واقفة في الطابق الأول تتحدث إلى إحدى الموظفات بالمؤسسة، فاندفعت صوبها كالطلقة وهي تهتف بهلع متقطعة الأنفاس:

- الحقي يا ست "مشيرة" في خناقة في العنبر.

شزرًا رمقتها "مشيرة"، ثم عادت لتكمل حديثها وكأن شيئًا لم يكن.

وقفت "وعد" بتململ غير قادرة على تحمل اللامبالاة البادية من الجميع، فحياة إحدى فتيات عنبرها في خطر محدق، كيف يواجه الجميع هذا الأمر

المروع بمثل هذا البرود؟! وأخيرًا تحركت "مشيرة" صوب العنبر برفقة "وعد"، بعدما رمقتها بنظرة غامضة لم تفهم معناها, دلفتا إلى العنبر وهي تظن أن الأمر سيسير كما كان يحدث في مدرستها، عندما تدخل المعلمة يتوقف الضجيج فورًا ويعود كل فرد إلى مكانه، لكن هذا لم يحدث!

استمرت هتافات الفتيات الواقفات في حلقة حول الفتاتين المتصارعتين أرضًا حتما كان سيُذكر هذا المشهد "وعد" بمشاهد مصارعة الديوك إن كانت قد رأت واحدًا!

نقلت "وعد" بصرها بين الفتاتين ثم إلى "مشيرة" وهي ترجوها بنظراتها أن تفعل شيئًا، فعقدت ذراعيها أمام صدرها لتقول ببرود:

- خلاص كفاية.. ابقوا اتخانقوا بعدين.

أسمعت "دنيا" الفتاة سيلًا من السباب والتهديدات إن هي جَرُؤَتْ على إغضابها مرة أخرى، ثم وقفت وهي تعدل من هندامها تاركة الفتاة تتنفس الصعداء، وهي تغطي جرح عنقها النازف بكفها.

بحزم وجّهت "مشيرة" كلماتها إلى "هانم":

- لو ماكنتيش عارفة تحكمي عنبرك زي اللي قبلك عرفيني عشان....

ظنت أن "مشيرة" ستعنف "هانم" على الشجار الذي نشب في عنبرها، إلا أنها صعقت عندما أردفت "مشيرة" بغضب وهي تشير إليها بسبابتها:

- البت دي جاية تحكيلي على الخناقة.. الظاهر لسه ماتعلمتش القوانين هنا.

وقبل أن تفيق "وعد" من دهشتها، خرجت "مشيرة" صافعة الباب خلفها، وأغلقت إحدى فتيات السهراية باب العنبر بالمفتاح من الداخل، بعدما تبادلت الإشارات الخفية مع "هانم". وقبل أن تفهم ما يحدث، اندفعت

"هانم" ومجموعة السهراية صوبها يوسعونها ضربًا مبرحًا بالأيدي والأرجل. شلتها الصدمة في بادئ الأمر حتى عن الصراخ، ثم ما لبثت أن صاحت تطلب النجدة من الفتيات.. من "عبير" التي كانت واقفة ترقب ما يحدث لـ "وعد" بعينين دامعتين. الأخصائية "مشيرة"، والمديرة، والحارسات.. لكن لا حياة لمن تنادي.. لا عاصم اليوم من "هانم" ومجموعتها.

استمرت حفلة التعذيب لقرابة ربع الساعة، تخللها سباب أضحى كالنقط فوق الكلمات، لا يمكن الاستغناء عنه. وانتهت بأن هددوها إن هي جَرُؤَت على تكرار خطئها.. ذاك الخطأ الذي لا تعرفه حتى الآن!

أمرتها "هانم" بعنف وهي تشير إلى زاوية الغرفة:

- هتقعدي هنا، مافيش أكل، مافيش شرب، مافيش حركة.. لو اتحركتي من مكانك هنزلك تتحبسي انفرادي.. ولما تطلعي هتتضربي تاني.. سمعتي؟

أومأت "وعد" برأسها إيجابا، وعبراتها تختلط بالدم المنبثق من جرح شفتها العلوية، لا تجرؤ حتى على رفع صوتها بالبكاء أو الأنين. جلست حيث أشارت "هانم"، بينما انطلق الجميع بعدما سمعوا البوق يعلن عن موعد طعام العشاء. تلكأت "عبير" حتى انصرف الجميع، ثم اقتربت من "وعد" تنظر إليها بأسى، بينما هذه الأخيرة تجلس على الأرض مستندة إلى الجدار تخفي رأسها المتشنج بين ركبتيها، وجسدها يرتجف بشدة. بخجل قالت:

- آسفة يا "وعد".. ماكانش ينفع أعمل حاجة.

رفعت "وعد" وجهها الدامي تنظر إليها بلوم صارخ، فانسابت العبرات فوق وجنتيها وهي تردف بألم:

- لو كنت ساعدتك كانوا ضربوني زيك.

بشفتين مرتجفتين تساءلت:

- هم ليه ضربوني؟

- لأنك خرَّجتي سر العنبر يا "وعد". كل عنبر له أسراره اللي ماينفعش تطلع بره لأي حد، ما ينفعش واحدة من العنبر تتكلم مع حد عن أي حاجة بتحصل جوه.. لازم سر العنبر يفضل جوه العنبر.

- والمديرة.. والست "مشيرة".. ازاي...؟!..

بادرتها "عبير" وابتسامة ساخرة على شفتيها:

- يا "وعد" انتي في العقابية، عارفة يعني ايه العقابية، يعني قوانين مش مكتوبة في الكتب ولا اتدرست في الكليات ولا بتعترف بيها المنظمات، بس موجودة وبتتطبق ويا ويل اللي يتحداهم ويعارضهم.

بعد مغادرة "عبير"، انشغل عقل "وعد" في التفكير في دولة العنبر..

قادة في أيديهم السلطة، لا يحق مراجعتهم أو محاسبتهم.. وشعب عليه السمع والطاعة وتقديم فروض الولاء وإلّا..!

****

استفاقت "وعد" من نومها على أصوات الفتيات اللاتي دخلن العنبر وفتحن التلفاز، وارتفع صوته لينافس ضجيج الفتيات الذي لا يهدأ. بعضهن نعتنها بـ "القوقع", اشارة إلى تقوقعها حول نفسها في جلستها وفي تصرفاتها حيث كانت تتجاهل كلامهن, واتخذن منها مجالًا للسخرية، تلاقت عيونها المتعبة بعيون "عبير" المشفقة حتى باغتتها "هانم" بصوتها الأجش:

- قومي يلا يا بت نظفي الحمامات.

انعقد لسان "وعد" وتجمدت في مكانها، فصاحت "هانم" بغضب:

- ايه يا برنسيسة سمعتي ولا أسمعك؟

توعدتها نظرات "هانم" وحاجباها المرفوعان بحفلة تعذيب أخرى، فنهضت مستدمعة العينين، بينما عظام جسدها تئن ألمًا. استندت بظهرها إلى الباب، بعدما أغلقته، وأجهشت في بكاء عنيف، حتى نضب معين دموعها وهدأت رجفة شفتيها، فشمرت بنطالها وأكمام منامتها وهي تنظر حولها في تقزز.

كانت "أمل" تمارس هذا العمل من أجله السنوات طويلة دون شكوى أو تذمر.. من أجل أن تصير هي الدكتورة "وعد".. ادفعي الثمن يا "وعد"، فقد استحققتِه بجدارة.

انفتح الباب من خلفها، وهي جاثية بركبتيها العاريتين وإحدى راحتيها تستند إلى الأرض، بينما الأخرى تفركها فركًا. التفتت تستطلع القادم، فانقبض قلبها وهي ترى "دنيا" بجرح جبينها المقيت ووجهها القاسية قسماته، فأشاحت بوجهها عنها ودقات قلبها تتسارع بحدة تخشى أن تفتعل معها شجارًا، حتمًا لن يكون في صالحها، وهي صاحبة الجسد الهزيل أمام قوة تلك الفتاة. راقبتها من طرف خفي وهي تتوجه إلى المغسلة، تملأ كفيها بالماء المندفع من الصنبور. اصطدمت نظراتهما في المرآة، فأشاحت "وعد" بوجهها بسرعة تكمل عملها بتوتر، حتى إن أنفاسها توقفت و"دنيا" تمر من خلفها. خرجت بهدوء، فأخذت "وعد" شهيقًا عميقًا زفرته ببطء، وهي تشعر بالراحة لمغادرة تلك المخلوقة المكان.

عادت إلى عنبرها تجر أقدامها التي بالكاد تتحمل ثقل جسدها المنهك، رمت بنفسها فوق الفراش، وألقت نظرة على "هانم" الجالسة فوق فراشها مع مجموعة السهراية، بعدما ضموا الفراش المجاور لفراشها إليه ليسعهن جميعًا. راقبتهن بريبة من أسفل البطانية، التي رفعتها حتى غطت الهالات السوداء تحت عينيها، وهن منكبات باهتمام على شيء لا تدري كنهه.

أصابها الهلع بعدما تبينت حقيقة ذاك الذى استرعى اهتمامهن وانتشين على أثره.. مسحوق مخدرات.. كانت ترى الفتيان يقفون على نواصي الحارات في الحكر يتعاطونه مستخدمين نفس التكنيك الذي تستخدمه الفتيات الآن!

أدارت ظهرها إليهن، بعدما جذبت الغطاء، حتى لم تبد منها شعرة واحدة، فما درت كيف ومتى ألم الكرى بجفنيها. أيقظها شعور بثقل في فراشها من الجهة اليمنى، أتبعه ارتطام هذا الثقل بقدمها من نفس الجهة، فقاومت سلطان النوم الذي يأمرها بالعودة إلى كوابيسها، التي عليها أهون من مشقة الاستيقاظ وتحريك جسدها المتعب. أزيح الغطاء من فوق وجهها، ولفحها الهواء البارد، تتبعه نغزات ليست بالرقيقة ولا بالعنيفة لكتفها، جعلتها تفتح عينيها قسرًا ، ثم ما لبثت أن اتسعتا فزعًا، وهي تتطلع إلى "دنيا" الجالسة بجوارها فوق الفراش، يحيط بها فراغ الغرفة وضوء مصباح ضعيف قادم من مكان ما، فأضحى وجه "دنيا" بجبينه المشوه أكثر رعبًا من ذي قبل. وقبل أن تحاول التحدث، لمعت مدية في كف "دنيا" الأيسر، فشهقت "وعد" خوفًا وهمت بإطلاق صرخة، وئدت قبل أن تنطلق من حلقها بكف "دنيا" الذي التحم بشفتي "وعد" بقوة يمنع صراخها.

ترددت في عقلها كلمات "كعب الغزال": "نهايتك مرسومة بالدم.. والموت كاتب معاده على جبينك بريشة الألم".

فازدادت رعبًا وأيقنت أنها وصلت إلى تلك النهاية المشؤومة وأن نبوءة تلك العرّافة ستتحقق الآن وأنها اللحظات الأخيرة لحياتها في هذه الدنيا, بعد أن تسلبها إياها "دنيا"!. لكن بسطت "دنيا" أصابع كفها الأيمن، لتكشف عن شريط حبوب فضي اللون، ظنته "وعد" مدية، أخرجت منه قرصين صفراوي اللون. نظرت "وعد" إليها بوجل، فنزعت "دنيا" كفها من فوق فمها وقالت بخفوت:

- خدي.. هيريحوكي.

هزت "وعد" رأسها نفيًا بعنف شديد، وبحركة غريزية ألصقت شفتيها ببعضهما بقوة، وكأن "دنيا" سترغمها على ابتلاع القرصين. بحدة، لكن محافظة على خفوت صوتها قالت:

- فاكراني هديكي ايه يعني.. ده مسكن.

أجفلت وهي تنظر إليها ببلاهة، لا تدري كيف تتصرف. قربت "دنيا" كفها صوب "وعد"، وبتردد بدا واضحًا كشمس الظهيرة التقطت "وعد" القرصين، وانحنت بجسدها إلى أحد جانبي فراشها وهي ترمق "دنيا" بنظراتها وتمسك زجاجة المياه الموضوعة على الأرض بجوار الفراش وترشف منها رشفات قليلة بعدما دست القرصين في فمها، وهي تلعن العرَّافة ونبوءتها.

شعرت بنغزات مؤلمة في بطنها، عزتها إلى أحد أمرين، إما الجوع الذي قرصها بعدما حرمت من تناول وجبة العشاء، أوتأثير ذلك الدواء الذي لا تدري ماهيته، ولا تثق فيمن أعطتها إياه. تبًا لك يا "وعد" لماذا وافقتها؟!.. ألن تكفِّي عن حماقاتك؟!

وبدون كلمة أخرى، نهضت "دنيا" إلى فراشها لتتدثر، تاركة "وعد" خلفها غير قادرة على النوم مرة أخرى، وقد أجهد التفكير عقلها..كم هي غريبة هذه الـ "دنيا"!

في الصباح، غادرت الفتيات العنبر لتناول الفطور، واعتملت الحيرة في نفس "وعد"، لا تعلم هل مسموح لها بتناول الفطور أم ستمنعها "هانم" من ذلك. لم تدم حيرتها طويلًا، إذ قالت لها "هانم" بترفّع قبل مغادرتها العنبر متأبطة ذراع إحدى فتيات السهراية:

- أرجع ألاقي العنبر ده ممسوح.

فلما لم ترد "وعد"، والتي كانت تنظر إلى العنبر النظيف أرضًا وجدرانًا، هتفت بها:

- سامعة؟

مُكرهة هزت رأسها إيجابًا!

كانت "دنيا" هي آخر من غادر العنبر، انتبهت "وعد" لنظراتها الغريبة التي تحدجها بها, فأشاحت بوجهها عنها كعادتها، وهي لا تدري هل تشعر بالامتنان لها لمنحها المسكن بالأمس، أم تنقم عليها؛ لأنها سبب العقاب الذي تقاسيه الآن!

بجسد لايزال منهكًا امتثلت، وبإتقان شديد مسحت العنبر.كم كان ذلك اليوم موحِشًا مظلمًا ثقيلًا على نفسها؛ خاصة وهذا يوم "عبير" الأخير في المؤسسة. صحيح أنها لم تكن لها حليفًا قويًا، ولم تستطع الزود عنها، إلا أنها على الأقل كانت تشعر معها بالألفة، ولا تعتقد أنها ستجد ذلك مع فتاة أخرى بعنبرها.

****

انصرمت من الزمن ثلاثة أشهر، لم تعاقب خلالها مرة أخرى. تلقَّنت القوانين جيدًا، وبالطريقة الأصعب، فحاولت قدر استطاعتها أن تبقى بمنأى عن المشكلات. كثيرًا ما كانت تود التدخل لفض نزاع ما، أو لتوجيه نصيحة، أو لإنكار منكر، إلا أنها تُحجم مخافة أن تأتي بما يُغضب النبطشي "هانم" ومجموعة السهراية.

كانت تخشاهم أكثر مما تخشى الأخصائية "مشيرة"، والتي لا تدري "وعد" حتى وظيفتها في المؤسسة!, فهي تراها مرة أو مرتين يوميًا، تأتي لتفقد أمور العنبر والفتيات، وتختفي حتى تراها في اليوم التالي!

كانت "هانم" هي الآمر الناهي في العنبر كما لو أنها حاكم دولة ما، ولقد كان العنبر كذلك بالفعل، دولة صغيرة لها سياساتها الخاصة، ولها حاكم ووزراء وشعب، تجاورها عدة دول أخرى، تعيش جميعها في رحم الدولة الأم!

بغير قصد، نجحت "وعد" في إطفاء حريق صغير كاد أن يشب في العنبر. ومما لاشك فيه، فقد تكتمت الحادث الصغير، الأمر الذي أعجب "هانم"، فكافأتها بترقية جيدة، وضمتها إلى مجموعة السهراية الخاصة بها، مما جعل خوفها وقلقها الدائمين يتراجعان إلى أدنى معدلاتهما.

تغيرت معاملة الفتيات لـ"وعد" بعد توليها المنصب، من التجاهل إلى الاهتمام الذي ينطوي على الكثير من الحسد والغيرة والغيظ. "وعد" لم تكن سعيدة بتبعات ذلك المنصب من مهام، خاصة عندما كانت تصدر الأوامر إلى مجموعة السهراية بمعاقبة إحدى النزيلات بالضرب، أو بعمل حفلة استقبال لإحدى النزيلات الجدد.لم تستطع أبدًا أن تدرك المتعة في هذا الاستقبال الوحشي! كن يضربن الفتاة بغل واستمتاع غير عادي، رغم كونهن لا يعرفنها، فقط لأن الأوامر صدرت لهن بذلك!

لم تستطع أن تتلذذ -كما يفعلن- بانتهاك آدمية الفتيات؛ ومن جهة أخرى لا تستطيع رفض أوامر النبطشي أو الأخصائية "مشيرة"، وإلا نالت من العقاب أضعاف ما تناله النزيلة المعاقبة. كانت تتظاهر أمامهن بالغلظة والقسوة والبلطجة، وفي نفسها تود أن تربت على كتف إحداهن معتذرة. وفي حفلات الضرب، تشارك ظاهريًا بضرب غير مبرح، يظهره قاموس السباب الذي تعلمته كضرب جدّي. كم أنقذت فتيات من وطأة عقاب قاسٍ بغض طرفها عن زلاتهن التى لا تحتمل الصفح في عين غيرها. وفي شهرها السادس في المؤسسة، كانت قد نجحت أن تحظى بحب أغلب نزيلات عنبرها، وأصبحت -بعد اختبارات ثقة عديدة- مستودعهن لحفظ الأسرار.

لا تدري "وعد" من أين أتت بالطاقة لمواجهة مشاكلهن ومحاولة حلها ببضع كلمات طيبات, فسنها صغير وتجاربها في الحياة محدودة، إلا أن هذه التجارب كانت بالعمق الذي جعلها متعقلة في تصرفاتها وقراراتها بدرجة تفوق سنوات عمرها التي تزيد عن السابعة عشر ببضعة أشهر. انشغلت بهمومهن عن همومها، وبتطييب جراحهن عن نكأ جراحها، فكانت تجد سعادتها في امتنان عيونهن ونعتها بـ "أم قلب أبيض".

مجموعة السهراية كن من شعرن بالغيرة، فحاولن تشويهها لدى النبطشي "هانم" لتعزلها عن المجموعة. لكن "هانم" كانت سعيدة جدًا لقلة المشاكل المفتعلة من فتيات عنبرها، بعد أن اتخذن من "وعد" حائط مبكى يفرغن عليه طاقاتهن السلبية، مما يعني نجاح "هانم" في السيطرة على عنبرها، فأصبحت "هانم" هي النبطشي المقرب إلى الإدارة، ولم تفلح فتيات السهراية في إحداث الشقاق بين "هانم" و "وعد"!

كانت "وعد" تستمتع بشدة عندما تبدأ بصفحة بيضاء كالثلج، تحيلها بألوانها إلى لوحة من نتاج أناملها، فتشعر بالزهو وتمسك الورقة بين أصابعها بعناية شديدة، كأنها لوحة فنية قيمة لأحد المشاهير. أصبح الرسم هوايتها المفضلة، تجد فيه روحها، والحرفة التي تتكسب منها أيضًا، بالمشاركة في المعارض التي تقيمها المؤسسة لعرض نتاج الفتيات. لكنها احتفظت ببعض رسوماتها لنفسها، واعتزمت عدم المشاركة بها في المعارض، إذ استودعت فيها إِرْبًا من روحها، تُحمّلها معانٍ شديدة الخصوصية، أغلى من أن تفرط فيها ببضعة جنيهات, فسلكت معها غير السبل التي سلكتها مع غيرها. كانت أيضا إحدى الزائرات المداومات للمكتبة، تمضي وقتها بين قصص الفانتازيا والأميرة النائمة وسنووايت، ومثل تلك القصص الساحرة.

في ذات يوم، جلست في مكانها المعتاد في الساحة الأمامية، حيث الحديقة الغناء، تستوحي منها ما تطبعه في ذاكرة أوراقها البيضاء، وفي يدها قطعة فحم، وعلى قدميها قلم رصاص وقطعة خبز جافة، تمحو بها آثار الفحم على الورق. اقتربت "دنيا" منها، فتجاهلتها علها تنصرف، إلا أنها جلست بجوارها واجمة.

اضطربت "وعد" وتوقفت عن الرسم، بعدما أفسدت عليها هذه المخلوقة خلوتها بنفسها. همت بترك لها المكان بعدما تعكرت أجواءه، إلا أن "دنيا" استوقفتها قائلة:

- ممكن أتكلم معاكي شوية؟

تجمدت "وعد" في مكانة لبرهة، قبل أن تعاود الجلوس ببطء وهي تقول بحدة خرجت رغمًا عنها:

- عايزة ايه؟

مرت فترة صمت، راقبت خلالها عصفورًا يتنقل من فرع شجرة إلى آخر وهو يغرد بصوت أطربها، فتمنت أن تحظى مثله بالحرية خارج هذا المكان المحاط بالأسوار العالية والمنغلق على أناس أجبرت على العيش معهم. وأخيرًا تحدثت "دنيا":

- شكلك بدأتي تاخدي على المكان هنا؟

بتحفظ أجابت "وعد" على سؤالها الضمني:

- يعني..

- ما تقلقيش هتتعودي.. كل حاجة صعبة في أولها.. بس بعد كده بتبقى عادي.

ثم أردفت وهي تخترق الأسوار العالية ببصرها:

- أنا هنا من سنتين ونص.. بس مروا عليا كأنهم ميت سنة

ثم التفتت تنظر إلى "وعد" مباغتة اياها بقولها:

- تعرفي اننا شبه بعض؟!

رفعت "وعد" حاجبيها دهشة واستنكارًا، ولم تعقب، فاستطردت "دنيا" ضاحكة بغير مرح:

- صدقيني شبه بعض أكتر مما تتصوري.

وكما ضحكت فجأة، اختفت ضحكتها فجأة، وتجعد جبينها وهي تقول:

- احنا الاتنين بنعمل حاجات غصب عننا عشان نعرف نعيش هنا.

ثم أردفت ببسمة ساخرة:

- انتي بتمثلي انك واحدة من مجموعة "هانم".. بتضحكي في وشها وأنا عارفة كويس انك بتكرهيها.. ماعرفش هي عارفة كده ولا لأ.. بس تبقى غبية قوي لو افتكرت انك صاحبتها بجد.

ظلت "وعد" محتفظة بصمتها، فاستطردت "دنيا" بنفس السخرية:

- وأنا بلعب دور قتالة القتلة.. البلطجية اللي ماحدش قادر عليها

استفزتها العبارة الأخيرة، فانفلت لسانها:

- بس انتي فعلًا قتالة قتلة!

كان الصمت هذه المرة من نصيب "دنيا". فحاولت "وعد" ألا تثير حفيظتها:

- مش انت قتلتي جوزك واتحكم عليكي بـ خمستاشر سنة؟.. أنا هنا في قضية سرقة.. باعترف اني غلطت، بس ظروفي كانت صعبة وفي لحظة ضعف مديت ايدي وسرقت، وندمت بعدها.

السرقة غير القتل, الظروف ممكن تجبرك انك تسرقي لكن مفيش أي ظروفك تبررلك انك تقتلي..

ثم أردفت باستهجان:

- وإذا كان على الطريقة اللي بتعامل بيها مع "هانم" وغيرها فإنتي قلتي بنفسك دي الطريقة الوحيدة عشان أعرف أعيش هنا.. يا تمثلي انك معاهم.. يا تتحملي عقاب انك تكوني ضدهم.

زوت "وعد" ما بين حاجبيها وهي تتطلع إلى عبرات مترقرقة نبتت في عيني "دنيا"، التي لم يسبق أن رأت ضعفها فضلًا عن بكائها، فخرست هيبة وإجلالًا لتلك العبرات التي لطالما احترمتها؛ لأنها تراها نزف شرخ في جدار الروح، كالدم لا ينزف إلا لشرخ أحد الأوعية التي حوته إلا أن هذه الأخيرة أسهل في المداواة من الأولى وأقل ايلامًا ولا تترك أثرًا.. بينما شرخ الروح يخلف ندوبًا لا تبرأ أبدًا. بجبين مقطب وصوت كالشجن قالت "دنيا" وعيونها تسبح في بحر ذكرياتها الثائر:

- كنت عايشة في بيت جميل، بين أب وأم أنا كل حاجة في حياتهم، بنتهم الوحيدة اللي بيعملوا كل اللي يقدروا عليه عشان يسعدوها، ماكنتش بحتاج أطلب، كنت بس باتمنى والحاجة تكون عندي. كنت شاطرة في دراستي عشان أخلي ماما وبابا مبسوطين مني، ماكنتش بعمل مشاكل زي باقي البنات اللي في سني، وعمر ما كان ليا علاقة بأي ولد، لأني كنت أنا وبابا وماما صحاب بتكلم معاهم في كل حاجة من غير ما أخاف.

قالت جملتها الأخيرة وازداد لمعان العبرات في عينيها، قبل أن تتساقط فوق وجنتيها لترثي أطلال ذلك الماضي السعيد، وبصوت متهدج:

- بابا ماكنش له إلا أخ واحد، عمي "حسين"، راجل طماع وجشع، ورغم انه الأخ الكبير إلا انه كان دايما بيلجأ لبابا عشان يحلله مشاكله.

وبسخرية أردفت:

- المادية طبعا.

اتسمت نظراتها بالحدة واكتست ملامحها بالاشمئزاز وهي تكمل قصتها:

- أول ما خلصت ثانوية عامة قرر عمي انه يخطبني لابنه اللي مايتخيرش عنه، شاب فاسد مايشرفنيش اني أكون مراته. رفضت طبعا وقبل مني بابا وماما. عمي اتغاظ وقاطع بابا بسبب رفضه.

حثتها "وعد" على مواصلة حديثها الذي أثار فضولها:

- وبعدين ايه اللي حصل؟

- بابا تعب فجأة، دخل المستشفى أسبوع وبعدها مات، اكتشفنا بعد وفاته انه كتب كل حاجة باسمي، فلوس وأملاك.. عمي لما عرف اتجنن وجه البيت اتهجم عليا أنا وماما عشان عارف ان خلاص ماعدش لينا راجل نتحامى فيه. أصر انه يجوزني لابنه، بس أنا رفضت واترجيت ماما وأنا منهارة انها ماتوافقش، وفعلا ماما وقفت قصاده ورفضت بشدة.

وفي يوم كنت خارجة من الجامعة، لقيت ابن عمي في وشي وقالي ان ماما تعبانه عندهم في البيت. حاولت أتصل بيها كتير بس ماكنتش بترد عليا وده قلقني عليها أكتر.. ومشيت برجليا للفخ اللي نصبهولي.

هتفت "وعد":

- فخ؟!

بمرارة هزت دنيا رأسها:

- أيوة فخ.. أول ما وصلنا البيت، طلع موبايل ماما من جيبه وقالي بكل حقارة "كنتي بترفضيني بمزاجك انتي وأمك، أنا هخليكوا تبوسوا رجلي عشان أتجوزك"!

اترجيته كتير.. عيطت.. صرخت.. انهرت.. قولتله هسيبلك الفلوس كلها, وافقت نتجوز, حلفت اني مش هقول لحد على اللي هو عمله, لكنه ما رحمنيش, كان عندي أمل ان حد يسمعني وينقذني, بس لا سمعوني ولا أنقذوني ولا بعد اللي حصل رحموني!

أخذت نيران القهر تتصاعد في نفس "وعد"، وابتلعت بصعوبة غصة سكنت حلقها وهي تشعر بألم يوازي ما تشعر به "دنيا" في هذه اللحظة, شاركتها الألم والدموع والصمت، وبدا أن كلتاهما تسبح بأفكارها في البحر المظلم نفسه. تحرك كف "وعد" ليطوق كفي دنيا المتشابكين حول ساقيها، فالتفتت "دنيا" إليها بأعين دامعة وطيف بسمة ساخرة يظهر في زاوية فمها ثم قالت:

- متخيلة مرارة الطعنة لما تكون من حد من دمك، عشان عارف انك ضعيفة ومالكيش راجل يحميكي ويدافع عنك؟

- وبعدين.. ايه اللي حصل؟

أخذت نفسًا عميقًا زفرته بعنف وهي تقول بحدة مستنكرة، تحرك كفها أمام وجهها:

- حصل الشيء الطبيعي في مجتمعنا المتخلف اللي بيحكم على الضحية بالذل والعار ويسيب الجاني يكمل حياته من غير عقاب.

- ازاي؟

قالت بعنف ذكَّر "وعد" بطبيعة "دنيا" الثائرة التي اعتادتها:

- مجتمع عقيم بيحكم على البنت تتجوز الكلب اللي اغتصبها عشان يستر عليها وماتتفضحش!.. مابيفكروش في البنت ازاي هتعيش مع واحد شايفاه أقل من حيوان؟.. وان مش ممكن تكون بينهم حياة زوجية طبيعية أساسها الود والاحترام وانها مستحيل تتمنى ان الحيوان ده يكون أبو ولادها, البنت اللي بتغتصب بتدبح مرتين، مرة من الكلب اللي اغتصبها ومرة من الناس اللي شايفه ان جوازها منه هو الحل.

أردفت وعيناها تمور بالغضب:

- وماما كانت من الناس دي. بعد ما كانت رافضاه بقت تترجاه عشان نكتب الكتاب، والكلب فضل يماطل ويستمتع بدموعها وذلها له ولعمي. فضلت أرفض لآخر لحظة وأترجاها ماترمنيش في النار بايديها.. لكن غصبتني بحجة انها عارفة مصلحتي أكتر مني.

تساءلت "وعد" بخفوت مخافة أن تثيرها بسؤالها:

- وازاي قتلتيه؟

بنظرات غريبة أخافت "وعد" أجابت:

- بعد كتب الكتاب اللي تم في بيتنا، فضل يتكلم هو وعمي مع ماما في تفاصيل الفرح. ماما طلبت مني أعمل شاي، دخلت المطبخ وأنا حاسه ان أنا مش أنا، وان واحدة تانية هي اللي بيحصل لها كل ده، ماحستش بنفسي الا وأنا بفتح الدرج وبطلع منه سكينة.. صوته كان واصل لي في المطبخ حاساه بيقطع في جسمي.. كلمة "دخلة" ماكنتش قادرة أسمعها منه، كنت عايزاه يسكت وصوته يختفي؛ لكن فضل يتكلم ويتكلم ويتكلم، وأنا نفسي أصرخ وأقوله: اسكت اسكت اسكت..

تصدقيني ان قلت لك حسيت كأن في حد غيري ساكن جوه عقلي وهو اللي بيحرك جسمي؟.. كان قاعد على الكرسي وضهره للباب، وماما كانت قاعدة في وشي وعمي بيتكلم في التليفون. شفت نظرة فزع في عنين ماما لما شافت السكينة في ايدي، وقبل ما تتكلم كانت السكينة في رقبة ابن عمي، وايدي التانية لافه حولين راسه، جزيته مرة واتنين وتلاتة..

ثم أطلقت ضحكة بصوت أجش:

- وأخيرا سَكَتْ!

امتزج الحزن في قلب "وعد" بالخوف فأخذ قلبها يدق باهتياج، وهي تتطلع إلى "دنيا" التي بدت في حالة غير طبيعية..

- من الصدمة ماحدش اتحرك الا بعد الجزة التالتة. بعدها اغمى عليا، لما عمي زقني بكل قوته ووقعت على الترابيزة.

تحسست "دنيا" آثار الجرح فوق جبينها الذي خلفتها سقطتها تلك، ثم التفتت تنظر إلى "وعد" قائلة:

- لسه مش شايفة الشبه بينا يا "وعد"؟ أيتام ضحايا لناس مجرمين.

- مامتك ربنا يخليهالك.

- ماما ماتت من سنتين.

ظهر الحزن على وجه "وعد"، بينما اتسعت ابتسامة "دنيا" وهي تقول:

- مش قلتلك اننا شبه بعض.

****

بعد جلسة المكاشفة هذه، تغيرت طبيعة العلاقة بينهما، مما أثار دهشة الجميع.

قربتها "دنيا" من مجلسها، فزادت هالة التقدير حول "وعد"، وتم وضعها تلقائيًا في خانة " خط أحمر ممنوع الاقتراب"، فمن ذا الذي يجرؤ على معاداة "وعد" أو مضايقتها وهي بصحبة حارسها الخاص؟! حتى النبطشي "هانم" لا تجرؤ على ذلك!

زُللت لها الصعاب وفُتحت لها الأبواب، لا تنكر "وعد" أنها أصبحت تستمتع بهذا النفوذ. أن تكون لك هيبة في النفوس، تأمر فتطاع، لهي متعة لا تعادلها متعة. أن تنام وأنت آمن في سربك، لهي راحة ما بعدها راحة.

عززت تلك القوة ثقتها بنفسها بشدة، بعد أن كانت تشعر طيلة عمرها بالدونية بسبب وضعها الاجتماعي، الذي فُرض عليها منذ الصغر، وفي المدرسة بين زميلاتها كانت أقلهن قدرًا وأبسطهن حالًا وأرثهن ثيابًا.. كانت فقيرة إلى حد التشبع، عارية أمامهن من رداء السمو والرفعة. الآن تحظى باهتمام لم يسبق أن حظيت به. البون الشاسع بين وضعها ووضع باقي النزيلات أنبت في نفسها حالة من التسامي.. وكان لابد للقسوة أن تمس قلبها، بعد أن كانت وردة تتفتح بين نباتات الصبار فتجذب الأنظار إليها بحسنها، وتهفو القلوب إليها لشذى عطرها، أصبحت أكثر من لب الصبار مرارة، وأشد من أشواكه قساوة، وفقدت الشعرة الفاصلة بين القسوة والتظاهر بالقسوة.

وعندما أرادت إحدى نزيلات عنبرها الإيقاع بها، بدس حبوب مخدرة تحت وسادتها والتبليغ عنها، اكتشفت "وعد" المكيدة قبل تمام أركانها، وانهالت على الفتاة ضربًا بوحشية.

تجمعت فتيات العنبر وأغلقن الباب، وتعالت أصواتهن بالهتاف والتشجيع، وعندما خارت قواها من التعب وقفت تلهث وهي تنظر إلى الفتاة المكومة أرضًا تئن من الألم، وعلى وجهها خربشات دامية تركتها أظافر "وعد".

في تلك اللحظة، شعرت بشيء قد تغير فيها، كانت في مواجهة مباشرة مع ذاتها وحقيقتها الجديدة, رأت نفسها من الداخل بشفافية, نعم تغيرت، ماتت بعض الأشياء بداخلها وحلت محلها أشياء أخرى مشوهة.. أشياء باتت تراها في تفاصيل وجهها كل صباح وهي تنظر في المرآة!.

****

الصداقة بين "وعد" و "دنيا" لم تكن كتلك التي تنشأ فوق مقاعد الدراسة بين فتاتين لم يتعرفا بعد في أي غابة نعيش، وإنما أرست "دنيا"، بطباعها المتقلبة وشراستها المكتسبة جدارًا عازلًا بينها وبين "وعد".

في مرة، سألتها:

- انتي ما كملتيش دراستك ليه؟

- لما عرفت اني ممكن أكمل دراستي كان الوقت متأخر.. وباب التنسيق اتقفل.. فضاعت عليا السنة.

- باقي كام شهر على السنة الجديدة.. هتقدمي؟

هزت "وعد" رأسها إيجابا، وعلى شفتيها ابتسامة واسعة:

- أيوة.

- كلية ايه؟

- طب.

قابلت "دنيا" إجابتها بابتسامة ساخرة، وقالت وكأنها تشرح لطفل صغير ما غاب عن إدراكه:

- "وعد" مش عايزة أحبطك.. بس طب كلية عملية لازم فيها حضور يعني مستحيل تكملي دراستك فيها وانتي هنا في العقابية.. شوفيلك أي معهد سنتين وانجزي.

قالت بضيق، بعدما صدمتها تلك العقبة:

- مش مشكلة.. هأجل دراسة لحد ما أخرج من هنا.

مطت "دنيا" شفتيها وهي تقول باستفزاز:

- عارفة كان لايق عليكي أكتر اسم "القوقع" اللي البنات كانت بتناديكي بيه.. انتي فعلًا زي القوقع، قوي من بره بس ضعيف جدًا من جوه وفاكر انه في يوم من الأيام هيكبر ويبقى سمكة!.. القوقع هيفضل قوقع.. مرمي في قاع البحر وما حدش بيشوفه.

بتحدٍ أجابت:

- حتى القوقع البحر ممكن يزقه ويطلعه على الشط والناس تشوفه.. تعرفي ان في مطاعم بره ما بتقدمش غير القوقع بأسعار خيالية؟

ساد الصمت بينهما للحظات، يستمعن إلى ضجيج الفتيات حول طاولة الطعام، قبل أن تقول "دنيا" وهي تهز كتفيها:

- عايزة نصيحتي ادخلي فنون جميلة.. رسمك تحفة وعندك موهبة فعلًا ياريت تستغليها.

- فكرت في كده.. بس أنا نفسي أكون دكتوره عشان أحقق وعدي لأمي - الله يرحمها - وأعالج الناس الغلابة اللي زينا.. تعبت قوي عشان تشوفني دكتورة وتعمل مني بني آدمة.

بتحدٍ رفعت "دنيا" حاجبيها وهي تقول ببطء:

- بيني وبينك السنين يا "وعد".. يوم ما هتوصلي مش هتبصي للناس اللي تحتك.. وهتدوسي عليهم بجزمتك.

باندفاع هتفت "وعد" بتشنج:

- مش كل الناس عمك وابن عمك.

تملكها الندم بشدة، فور أن رأت الاضطراب يستعر في خلجات "دنيا"..

- أنا آسفة يا "دنيا" ما كنتش أقصد.

لكن بقي أسفها معلقًا في هواء الغرفة مشحونًا بطاقات الألم المشعة من جسد "دنيا"، وهي تجاهد للسيطرة على مشاعرها التي تأبى أن تُظهرها للفتيات حولها.

كلمات من حروف ونقاط إلا أن كل جزء فيها يعمل كعبوة ناسفة تنفجر بضراوة في نفس متلقيها, فما بال نفس نُسفت من قبل.. في أي حال ممزقة ستكون؟!

****

حل أخيرًا اليوم الذي انتظرته منذ ثلاث سنوات كاملة. بقدر ما كان ذلك مفرحًا، إلا أنها لم تستطع أن تتغلب على مشاعر الحنين التي اعتملت داخل صدرها تجاه من عرفتهن من فتيات، ولا أن تهرب من مشاعر الخوف من

العودة إلى الدوران في طاحونة الحياة مرة أخرى، بعد ما ألفت الحياة داخل المؤسسة.

كانت هذه اللحظة شاقة أيضًا على "دنيا"، التي لم تخفِ تأثرها، في مشهد نادر. وقفت الفتاتان أمام بوابة العنبر، وقد غلبهما التأثر فتعانقتا، وأجهشت "وعد" في بكاء حار، بينما لمعت عينا "دنيا" بعبرات مؤلمة.

أبعدت "وعد" رأسها للخلف وهي تقول بصوت مخنوق حاولت أن تبث فيه مرحًا زائفًا:

- هستناكي.. اوعي تتأخري عليا، باقولك أهو.

ببسمة زائفة كذلك، أجابت "دنيا" وهي تناديها بالاسم الذي اعتادت أن تنعتها به:

- خلي بالك من نفسك يا قوقع.

بغضب مصطنع:

- يوه بقى.. بطلي.. اسمي "وعد".. و ع د

ثم مالبثت ملامحها أن صارت أكثر جدية وهي تقول:

- خلي بالك من نفسك يا "دنيا".. ما تدخليش نفسك في مشاكل مع حد.. خلي فترة عقوبتك تمر على خير.

- ما تشغليش بالك بيا.. وزي ما قلتلك الشقة دي فاضية.. وعمي ما يعرفش عنها حاجة.. خليكي فيها لحد ما تظبطي أمورك.

نظرت إليها "وعد" بتأثر وهي تحرك المفتاح بين أناملها:

- مش عارفة من غيرك كنت عملت ايه يا "دنيا".

- ما تقوليش كده.. انتي عارفة انت ايه عندي.

- هتوحشيني لحد ما أشوفك.

- ماشي زوريني.. لو افتكرتيني زوريني.

- أكيد هازورك.. وهستنى اليوم اللي نتجمع فيه سوا بره المكان ده.

أطلقت "دنيا" تنهيدة حارة وهي تتطلع إلى البوابة العملاقة المغلقة في وجهها وهي تقول بأسى:

- باقي تسع سنين وشوية.. الله أعلم ايه اللي هيحصل.. حاسة ان ما ليش عيش برة.. يمكن حتى اخرج من هنا على قبري.

- ما تقوليش كده بلاش تشاؤم.. التسع سنين هيمروا زي الستة اللي قبلهم ما مروا.. وهتخرجي من هنا وتعيشي وتنسي كل اللي فات .

بشك سألتها:

- تفتكري ده ممكن يحصل؟

بثقة أجابتها:

- أيوة.. أكيد!

****

كانت شقة فسيحة ، تحتل الطابق الرابع بكامله، في بناء من ست طوابق. أغلقت الباب، وتفحصت المكان بما تسمح لها أشعة الشمس الهاربة من ثنايا النوافذ المغلقة.

رغم الغبار وخيوط العنكبوت، وجدتها مؤثثة بذوق رفيع، لم تستطع أكوام الغبار إخفاء محاسنه، وهناك عدة صور تحتل "دنيا" منتصفها بملامحها

الرقيقة وجسدها المتناسق الذي يميل إلى النحافة بعكس ما أصبحت عليه الآن من قوة جسدية اكتسبتها من ممارسة الرياضة في المؤسسة خاصة تلك المتعلقة بكيفية الدفاع عن النفس، وإلى جانبيها رجل وامرأة..

لم تمض فترة طويلة، حتى بدأت تلمح تساؤلات في أعين الجيران عنها وعما تفعله في هذا البيت الذي ظل مهجورًا لسنوات طويلة وكأن صاحبه قد نسيه؛ حتى نطقت إحداهن بهذه التساؤلات بصراحة:

- دي شقتك؟.. وفين مامتك وباباكي؟

أجابت "وعد" بتلعثم:

- ماما وبابا مسافرين.. وأجرولي الشقة من صحابها.. أنا هنا عشان كليتي.

بابتسامة متكلفة ودعتها جارتها وهي تهبط الدرجات مبتعدة، و "وعد" تدلف إلى البيت، لا تدري كيف ستعيش وسط هذا الفضول من الجيران.

كان الوقت يسبق بدء عامها الأول بالجامعة ببضعة أشهر، فشغلت نفسها بالبحث عن عمل تتكسب منه، قبل أن ينفد ما ادخرته من بيع لوحاتها في المؤسسة. وجدت عملًا بمكتبة تبعد مسافة قليلة عن البيت الذي يقع في حي السيدة زينب.

المرتب ضئيل، لكنها قدرت أنه سيكفيها لتقتات منه وتدفع مواصلاتها من وإلى الجامعة، بل وستحاول ما استطاعت أن تدخر منه ليفي مصروفاتها الدراسية، وحمدت ربها أنها لن تدفع للشقة إيجارًا, أعجب العجوز صاحب المكتبة بتفانيها في العمل، فهي ممن يعمل فيتقن مهما كان العمل صغيرًا أو غير مهم، وفرحت هي للمعاملة الطيبة التي يعاملها إياها.

أسبوعان مرا، ثم عقدت العزم على زيارتين، الأولى لـ " دنيا" التي أوصتها ألا تنساها، والتي سعدت بها بشدة، فمنذ وفاة أمها وهي مهجورة ككهف عتيق.

أعدّت لها "وعد" كل الطعام الذي اشتهته لسنوات وغاب عن قائمة الغداء في المؤسسة، أخبرتها أنها تحب الحمام كثيرًا وأنها اشتاقت لمذاق لحمه، وأخبرتها أيضًا أنها تحب الدجاج المشوي على الفحم، لذلك عندما فتحت "وعد" أمامها بحماس العلب التي ملأتها بطعامها المفضل احتشدت العبرات في عيني "دنيا" بتأثر. تذكرتها، وزارتها، وأحضرت معها ما اشتهته نفسها رغم ضيق حالها، انسابت الدموع فوق وجنتها حارة وهي تعانق "وعد" بقوة دون أن تنطق بكلمة واحدة، تعانقتا وكل منهما تتشبث بالأخرى دون حرف واحد, فضمة قوية صادقة تغني دائمًا عن كثير الكلام.

خرجت من عندها وقد عزمت أن تؤدي واجبها التالي.كم اشتاقت إلى زيارتها، حتى وإن لم تكن حاضرة بجسدها.. يكفي ثراها لتشعر أنها قريبة منها، تريد أن تعتذر عما بدر منها، وعن موتها دون أن تراها.. تريد أن تبكي حتى تبلل تربتها بدموع الندم، فتستشعر صدق توبتها. ولأنها لا تعرف أين دفنت، فالشخص الوحيد الذي يعرف هو "أم مرزق"، تلك المرأة الطيبة. تُرى، ألازالت تحتفظ بتلك الوصية الذي تركتها أمها بحوزتها؟ تُرى ماذا استودعت أمها فيه؟ مهما كان ما تحتويه الوصية، عاهدت نفسها أن تنفذها بدون أي مناقشة. تساءلت كيف هي "أم مرزوق" وماذا فعل بها الزمن.. تُرى هل لايزال يهجرها أبناؤها؟ ألم يشتاقوا إليها ولو مرة؟ هل العشة لازالت على حالها، أماستوطنها أناس آخرين؟ هل احتفظ مالك البيت بأغراضهما، أم فرط فيها، أم أخذتها "أم مرزوق" لحين خروجها؟

أسئلة كثيرة تقاذفت عقلها وهي تحث السير، تقترب من مكان "حكر أبو دومة" الذي.....

أزيل عن بكرة أبيه!

عرفت فيما بعد، أنه خلال السنوات الماضية، تزايد أرق الطبقة المترفة والمسؤولين من الحكر العشوائي، الذي يشكل بيئة غير صحية تلد أعتى المجرمين وأشرسهم. قرأت الخبر في جريدة قديمة، بخط عريض في الصفحة الأولى: "تنفيذ قرار إزالة البيوت العشوائية بحكر أبو دومة خلال أيام"، "العشش السكنية تهدد حياة المواطنين وقد تنهار فوق رؤوس ساكنيها". لم تذكر الجريدة أين سيذهب قاطنوا الحكر!

ألقت جسدها فوق الفراش، ودفنت رأسها تحت الوسادة.. لم تبكِ.. نامت.. وتمنت أن تستيقظ بعد مائة عام.. أو لا تستيقظ!

* * *

الفصل الثالث

أشواق

(نرجو من الدكتورة "وعد خليل" سرعة التوجه إلى الاستقبال)

امتلأت صالة الاستقبال الواسعة بأشلاء زجاجية، إثر تحطم إحدى ضفتي البوابة. ثلاث ممرضات فشلن في كبح جماح الطفلة ذات الاثني عشر عامًا، والتي راحت تتفلت من بين أيديهن بمرونة قرموط صغير، تهشم كل ما تصل إليه يداها الرعناوتين.

تختلط أصوات التحطيم بصوت صراخها العنيف، ليلهب أعصاب الأفراد القلائل، الذين يرمقون ما يحدث بفضول شديد. وأخيرًا، نجحت إحدى الممرضات في تقييد يديها، وأخرى فعلت بقدميها، وطفقت الثالثة تلف ذراعيها حول جسدها، الذي لا يزال يتلوى محاولًا أن يتفلت من قبضاتهن الحديدية. أفسحن المجال لـ "وعد"، التي أتت مسرعة مرتدية معطفها الأبيض تحاول تهدئة الطفلة. أفرغ أحد الأطباء المهدئ في جسد الصغيرة، بعدما أحكمت الممرضات تثبيتها في الأرض جيدًا، وشيئًا فشيئًا تحوّل صراخها إلى أنين أشبه بمواء قط جائع، حتى سكنت أخيرًا.

استلمت "وعد" تلك الحالة من مرضاها المتابعين معها منذ فترة، وهي تلقي بأوامرها:

- خدوها لأوضة الفحص عشان دكتور "وائل" يشوفها.

اقتربت منها امرأة باكية، كانت تقف بجوار البوابة..

- بنتي هتبقى كويسة يا دكتورة؟

أجابتها "وعد" بغلظة شديدة وهي تضع كفيها في جيبي معطفها:

- كان لازم من البداية تكونوا على تواصل مع طبيب نفسي يتابع حالتها ويفهمكم ازاي تتعاملوا معاها بطريقة سليمة.. خوفكم المَرَضي عليها ضرها أكتر ووصلها للحالة دي.

متجاهلة بكاء المرأة، نظرت إلى ساعة معصمها، التي أشارت إلى الثامنة والثلث مساءً.. ابتعدت في ممر طويل وهي تخلع رداءها الأبيض، ثم تتوقف عند أحد أبوابه وتدلف منه. ألقت المعطف فوق أريكة صغيرة بإهمال، وحملت حقيبتها من فوق المكتب الذي زينته لافته أنيقة كُتب فوقها (دكتورة "وعد خليل".. أخصائية تخاطب!).

****

توقفت عند محل البقالة المواجه لمسكنها، وابتاعت خبزًا ولبنًا وبيضًا، ثم توجهت إلى البناء تصعد الطوابق الأربعة بصعوبة، بعدما أنهت يومًا آخر متخمًا بالأعمال.

مرت بها إحدى الجارات التي كانت تهم بالنزول، وألقت عليها نظرة مطولة وعلى ما تحمله في يدها فتجاهلت "وعد" نظراتها الفضولية، فقد اعتادت مثلها، بل ما هو أكثر من نظرات فضولية خلال السنوات الماضية،كفتاة

تعيش بمفردها في بناية تكتظ بالعائلات، التي تحوي رجالًا وشبابًا، وربما استقر في نفوس جيرانها أنها ستأتي يومًا بفضيحة تعصف بهدوء بنايتهم الهانئة، فهي تعيش بمفردها بلا ضابط ولا رقيب، حتمًا ستزل أقدامها يومًا في وحل الخطيئة، أو لعلها زلت بالفعل وتخفي حقيقتها خلف قناع الجدّية الذي يعلو وجهها دائمًا، أو لعلها ستلقي بشباكها على زوج هذه أو تلك، أو تعبث بعقل هذا الابن أو ذاك, ومرت الأيام وهن ينتظرن تحقق تلك النبوءة، ويحذرن بناتهن من مخالطة تلك الفتاة التي تعيش بمفردها، والتي تتغيب طيلة اليوم عن بيتها لتعود إليه ليلًا.

وفي ليلة لا تنساها عندما كانت في عامها الأخير بالجامعة، انتظرها جارها الذي يقطن بالشقة التي تعلوها، عندما دلفت من البوابة وهمت بصعود الدرج، وكان هو في طريقه إلى الخارج، فقطع الطريق أمامها, فحاولت أن تنفذ من الفراغ بين جسده والجدار إلا أنه سارع بغلق المنفذ بجسده. رمته بنظرة حادة، وجزت على أسنانها بشدة وهي تقول بخوف حاولت ألّا يظهر فوق قسمات وجهها:

- عديني لو سمحت.

رسم فوق شفتيه ابتسامة صفراء بلون أسنانه الصدئة وهو يرمقها بنظرات وقحة بعثت النفور بداخلها وهو يقول بصوت لزج:

- طيب ما تعدي.. هو أنا ماسكك!

تأجج غضبها واحتدت:

- أعدي ازاي يعني.. ما تحاسب الأول؟

اتسعت ابتسامته قائلًا وهو يتفرس فيها بوقاحة:

- أحاسب على ايه.. هو أنا لسه خدت حاجة.. لما أبقى آخد هبقى أحاسب!

كانت عيون الذئب اللامعة بمكره في غفلة عن كفها الذي دسته في حقيبتها لتخرج قلمًا. وعلى حين غرة، اندفعت تغرسه بشراسة النمور في رقبته، بينما تتشبث أظافر كفها الآخر بلحم عنقه، كقطة برية غاضبة، وهي تطلق زمجرات غاضبة مختلطة بقاموس السباب الذي حفظته في المؤسسة، حتى تجمع الجيران يغيثون الرجل الذي انبثقت الدماء من رقبته، وعلق تحت أظافرها بعض من خلاياه.

سمعت الزوجة استغاثات زوجها المختلطة بصرخات "وعد"، فنزلت مهرولة، على حين كذّب الجميع "وعد" وصدقوا الزوج الذي صاح بأنها فتاة مجنونة شرسة تلقي عليه التهم جزافًا، ورمى الشك حولها أنها قد تكون فتاة عاتية الإجرام هاربة من جريمة ما، أو فتاة سيئة السمعة ستلحق العار ببناياتهم. وأخيرًا دلفت "وعد" إلى شقتها خائفة مذعورة بأعين دامعة وقلبها يدق باب صدرها بجنون,كانت تشعر بالذعر، ليس فقط من تحرشات الرجل، ولا من تعنيف جيرانها لها.. كان أكثر ما يفزعها هو الصورة التي ستراها الآن في مرآتها إن هي نظرت إليها.. تماما كما كانت تنظر إلى ... "دنيا"!

منذ تلك الحادثة، وجميع سكان بنايتها يناصبونها العداء، ولم تعد تشعر بالأمان، ولو أغلقت على نفسها ألف باب وباب.

أدارت المفتاح في الباب ودلفت إلى الشقة، خلعت نعلها وتركت ما تحمله أرضًا، ثم توجهت إلى أقرب أريكة لتتمدد فوقها لدقائق، لكنها أيقنت إن هي أطالت البقاء هكذا فسيغلبها النعاس، فبتثاقل شديد توجهت إلى غرفة النوم وبدلت ثيابها ثم عادت لتحمل الأغراض وتتوجه إلى المطبخ وتعد شطيرة أنهت آخر قضمة منها بينما تسحب الغطاء فوق جسدها وتغرق في سبات عميق.

ارتفع رنين منبه هاتفها كعادته في مثل هذا الوقت من كل يوم ماعدا يوم الجمعة، لتشير ساعته إلى السابعة صباحًا. نهضت بنشاط غاب عنها وهي

تأوي إلى فراشها بالأمس، فأخذت دشًا سريعًا لا تتجاوز مدته عدة دقائق، ثم ارتدت ملابسها على عجل، ولم تنس إغلاق النافذة التي فتحتها ليلًا، ثم نزلت الدرجات بنشاط متوجهة إلى عملها اليومي في " مركز براءة لتأهيل الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة".

أول ما اهتمت به فور دخولها المركز، السؤال عن حال الطفلة التي أدخلتها بالأمس، لذلك توجهت إلى الاستراحة التي يتجمع فيها الأطباء في أوقات الراحة، فمسحت القاعة بعينها، ولمالم تجد بغيتها، سارت إلى إحدى الغرف، وتنحنحت حين وجدت رجلين لا يتوقفان عما بدا حديثا خاصًا.

باردها أحدهما مرحبًا:

- صباح الخير يا دكتورة "وعد".

- صباح النور يا دكتور "وائل".. عملت ايه مع "شيماء"، البنت اللي دخلت امبارح بالليل.

- كويسة ما عندهاش حاجة جديدة.

ثم استطرد:

- بخلاف طبعا التوحد اللي أنتِ مشخصاه.

- وضعها صعب.. أهلها مش عارفين يتعاملوا مع حالتها.

بابتسامة أجاب:

- أنا واثق فيكي يا دكتورة.. ان شاء الله حالتها هتتحسن على ايدك.

توترت كعادتها كلما ابتسم لها تلك الابتسامة الخلابة، التي تخترق سويداء قلبها؛ لكن ظل وجهها كما هو تعلوه الجدية، ثم استأذنت منصرفة. تمتم زميلهما الواقف معه بضيق وبصوت مختنق:

- شكلك بتحبها.

بنفس البسمة أجاب "وائل" وهو ينظر إليه بخبث:

- دكتورة "وعد" مافيش حد ما بيحبهاش هنا، الصغير قبل الكبير.

كان شابا طويل القامة رقيق البنية أسود الشعر خمري البشرة.. نطقت قسماته بالغيظ وهو يشغل نفسه بوضع ملصقات صغيرة فوق أنابيب الاختبار المتراصة فوق الطاولة. قهقه "وائل" قائلًا بخفة:

- أنا برده اللي بحبها.. يا عم اتحرك بقى قبل ما حد يعلقها منك.

ظل يزاول مهمته غير المهمة، كأداة لإفراغ توتره فحسب. قال لينكر أمرًا لا يمكن إنكاره:

- ومين قالك اني بحبها أصلًا؟

هتف "وائل" بجدية:

- بطل جبن شوية.. هتضيعها من ايدك بجبنك ده.. طالما بتحبها وعايزها خليك راجل وروح قل لها.

بنفس الجدية هتف الشاب منفعلًا:

- اللي ايده في المياة مش زي اللي ايده في النار.

تنهد "وائل" بعمق، ثم قال بود وهو يريح كفه فوق كتف الشاب:

- انت اللي مكبر الموضوع.. انت شاب محترم ومؤدب وابن ناس ومتعلم، وما شاء الله بتشتغل وليك مرتب ثابت وإيجار المحل اللي ورثته عن والدك بيطلعلك كل شهر مبلغ كويس.. حتى الشقة موجودة.. ما تتجوز مع والدتك، ما هي مالهاش غيرك.. يعني مليون بنت تتمناك!

بمرارة تقطرت من صوته:

- مليون بنت غيرها يا دكتور "وائل".. دي دكتورة وأنا فني معمل!

ثم أردف بأسى:

- وبعدين حتى لو هي وافقت، تفتكر أهلها اللي مهاجرين أمريكا من سنين ممكن يوافقوا على ارتباطي بيها؟.. صعب!

- بص اللي أنا شايفه انك تعرض عليها الموضوع وتشوف إذا كانت هتوافق ولا هترفض.. لو وافقت تبقى حققت حلمك وارتبطت بالإنسانة اللي قلبك حبها.. ولو رفضت يبقى ريحت نفسك من عذاب التفكير وساعتها تشيلها من دماغك خالص.

وبعدين دكتورة "وعد" شخصيتها قوية جدًا ولما بتحط حاجة في دماغها بتنفذها.. الكبير قبل الصغير هنا بيعملها ألف حساب.. يعني لو هي وافقت عليك هتقدر بسهولة تقنع أهلها.

صمت برهة ليفكر، ثم هز رأسه وهو يقول باضطراب:

- مش هقدر يا دكتور.. ما عنديش الجرأة اني أقف قدامها وأفاتحها في الموضوع ده.

- طيب قل لي انت ناوي على ايه.. أقصد لو هي وافقت.

- أتقدملها طبعًا.. دي أمي مستنية اليوم ده بفارغ الصبر.. وكل شوية توريني في صور عرايس.

اتسعت ابتسامة "وائل" وهو يقول بخفة:

- خلاص سيب الموضوع ده عليا.

- هتعمل ايه؟

- هفاتحها أنا!

****

ترى هل فضحتها مشاعرها هذه المرة، أم أنها أخفتها كعادتها ببراعة؟! هل نجحت عيناه بلونهما الرمادي المائل للزرقة في النفاذ الي حيث صورته التي استولت على الجزء الأكبر من قلبها تنسج بها آمالا وأحلاما تعيشها كل ليلة ؟! هل سمعت أذناه المقطوعة التي يعزفها قلبها كلما تحدث إليها؟

بالطبع لم يفهم، ولن يفهم، ولا تتمنى أبدًا أن يفهم. لم تحلم به ليكون واقعًا، بل ليغذي خيالاتها التي تفصلها عن الواقع.. أحيانًا!

تحب واقعها، لكن تكره وحدتها، حققت الكثير، لكن بقيت واحدًا لا أكثر! ظنت أن ذاتها بنجاحاتها ستتضاعف.. ظنت أنها ستغدو نسخًا عديدة تكمل بها فراغات الصورة.. أكملت مواضع عدة، لكن بقيت أجزاء فارغة تشوه جمالها. لكنها تعلمت أن تعيش بها كما هي، وأن تنسج الناقص بخيالها، فتراها تامة الكمال.

ابتسمت لنفسها برضا، فهذا هو بيت القصيد.. أن ترضى.

كانت راضية باختيارها لقسم النساء والتوليد لتخصصها، فرحة به، مولعة بفكرة أن تمتلك عيادة خاصة وتأتيها النساء من كل مكان، بعدما تشتهر ببراعتها وتفانيها في عملها.

خططت جيدًا لهدف وضعته نصب عينيها، وبذلت من أجله الجهد، وهي تعود من الجامعة كل يوم إلى عملها بالمكتبة التي توفر لها مصروفاتها الشهرية، وعملها الآخر كبائعة في أحد محلات الملابس في فترة مسائية, فتذهب إلى

الجامعة في صباح اليوم التالي وقد أجهدها التعب وأرهقها قلة النوم, وفي إجازة آخر العام تدخر المال الذي ستشتري به الكتب الدراسية في العام التالي, لم تكن تلك الحياة سهلة كسهولة كتابة هذه الأسطر على الورق، ولم يكن أمامها سوى أن تبلغ هدفها، رغم ما كانت تشعر به من اليأس وعدم جدوى نجاحها وتخرجها، بل بعدم جدوى حياتها أصلًا، خاصة عندما تقضي الليالي باكية فوق فراشها البارد، لا تجد من يمسح دمعاتها، وفي المرض حينما يكبلها الألم وتعجز عن الخروج لشراء الدواء، فتزيد الوحدة طباعها حدة، على الرغم من قلب الطير الذي كان يخفق داخل صدرها.

حمتها جديتها وانطوائيتها من الوقوع في الكثير من أفخاخ الحياة، كانت ترى الناس من حولها وحوشًا بأقنعة لطيفة لن يلبث القناع أن يسقط ليكشف عن وجوه مشوهة، كانت ترى فيهم الجشع والطمع والكره والحقد والسادية، تماثيل مجسدة للشر تتخفى داخل ألبسة من الخير.

وأحيانًا ترى بعضهم عرايا لا يهتمون حتى بوضع ورقة من خير يسترون بها سوءاتهم.

حلمت كثيرًا بيوم تخرجها والتحاقها بركب طبيبات النساء والتوليد الأشهر والأبرع، لذلك لم تظن أبدًا أن عملها التطوعي في مركز تأهيل الأطفال قد يغير مسار حياتها تمامًا! انجذبت إليهم، أحبتهم، تملكوا فيها كيانها كله. عندما كانت تظن أنها تخفف عنهم وتملأ عليهم دنياهم، كانوا هم في الواقع من يملؤون بداخلها فراغات شتى.. أحبت حبهم لها، وجدت من الرائع أن تشعر بحب أولئك الذين يملكون القلوب الأطهر والأنقى، عرفت الفرحة مع نجاحها في أن تخرج أحدهم من عزلته، وتدفعه إلى الاندماج مع باقي الأطفال، وتعلمه أن يعيش حياته بصورة لا تعيقه عنها إصابته العقلية أو الجسدية.. رأت في أولئك الأطفال القوة والصبر، تستمد منهم شجاعتها وإصرارها, تسللوا إلى

حياتها حتى تملّكوها فلم تعد ملكًا لها، كانت تخصص لهم وقتًا، فأصبحت تخصص لنفسها وقتًا تقتنصه من يومها، حتى وهي بعيدة تظل منشغلة الفكر بحال هذا وذاك.

لذلك، فبعد تخرجها من كلية الطب وتقديمها لفترة النيابة في إحدى مستشفيات التكامل الصحي بالقاهرة في تخصص النساء والولادة، تبدلت تطلعاتها، واستمرت في عملها بالمركز بعدما اقتنصت بجدارة مكانًا مميزًا داخله.

نالت درجة الماجستير في مجال التخاطب، فأفادتها الدراسة الأكاديمية كعضو فعّال بالمركز، وساهمت أكثر في ترقية مكانته بين باقي المراكز المهتمة بهؤلاء الأطفال، وأصبحت عضوًا دائما في الاجتماعات الإدارية والمؤتمرات الدورية الخاصة بمجالها.

الطبيعة القيادية التي غابت عن الكثير من زملائها، رغم مهارتهم في أداء أعمالهم بالمركز، والتي ربما غرستها بها سنوات السجن، دفعت الجميع إلى أن يتعاملوا معها بجدية، ففي وجود الدكتورة "وعد" لا مجال للتقصير في العمل أو التغافل أو التغاضي عن المهام.

لكن مع نجاحها المهني، افتقدت في مكان عملها صحبة مخلصة. تأذت كثيرًا قبل أن تتعلم أن الغيرة قد تنزل صاحبها إلى منزلة حيوانية، كانت تتمنى رفيقات تسعد بصحبتهن، لكنها في النهاية اكتفت بذاتها كصديقة صدوق، فعلى الأقل لن تسبب لها الأذى.

لعل أقرب زميلاتها إليها "سهام" أخصائية التخاطب خفيفة الظل. لكنها لا تحظى بما تحظى به "وعد" من امتيازات، لفارق المهارة والخبرة والحنكة بينهما. كانت تقربها منها، لولا أن كانت ممن يشغلهن القيل والقال وجلسات

النميمة اليومية، فكانت "وعد" حريصة ألا تخبرها شيئًا عن ماضيها حتى لا تنفضح قصتها بين زملائها بالمركز.

حرصت أن تخفي حقيقتها عن الجميع.. أخبرتهم أنها ابنة لطبيبين هاجرا إلى أمريكا للعمل منذ سنوات، واختارت هي البقاء في مصر وفي هذا المركز.لم يكن هذا التخفي فقط من أجل حمايتها، وإنما لأنها كانت تخجل من فقرها ويتمها وماضيها الشائن، فما كانت لتدمر الهيبة التي تحيط بها وتستبدلها بنظرات الازدراء، أو حتى العطف والشفقة.

وحده مدير المركز من يعرف. أخبرته قبل تطوعها منذ سنوات، فلم ترد أن تخفي عنه أمرًا كهذا، حتى لا يكتشفه فيتزلزل عملها بعد مجهود السنين. ولحسن حظها، تفهم الأمر وتكتم عليه، بعدما أجرى اتصالاته بالمؤسسة العقابية وحصل على تقرير جيد عن سلوك "وعد" طوال فترة حبسها، وكان تردده في بادئ الأمر دافعًا أكبر لأن تثبت له أنه لم يسئ القرار، وأنها على القدر الذي أراده من المسؤلية والأمانة, وبعد تخرجها تحولت من فرد متطوع إلى طبيبة بالمركز لها أجر شهري جيد أتاح لها معيشة طيبة.

خلال تلك السنوات، كانت تزور "دنيا" باستمرار. لعلها انقطعت عنها عدة أشهر بسبب انهماكها في العمل، إلا أنها كانت تعود فتعاتب نفسها وتطلب إذنًا لتحصل على يوم إجازة تقضي بعض سويعاته بصحبتها.

أما الرسم، فلم تفتر عنه. كانت يوم الجمعة تعد كوبًا من الشاي بالحليب، وتفتح باب الشرفة والنوافذ على مصارعها، فتدلف أشعة الشمس مرحبة من كل مكان، ثم تجلس إلى الطاولة تارة وعلى الأريكة تارة، وأحيانًا تتربع فوق الأرض متخذة إياها حاملًا لألوانها ولوحتها، تشرع في بث دبيب الحياة فيها.

شاركت طيلة السنوات التي تلت خروجها من المؤسسة في المعارض الصغيرة التي تعثر على إعلاناتها في المواقع الإلكترونية أو في الجرائد، وتمكنت من الفوز عدة مرات، ولم يحالفها الحظ في أخرى. لكن حتى تلك المرات التي لم تحظ فيها بفوز اكتفت بالفخر الذي تشعر به وهي تنظر لإنجازها الصغير الذي صنعته بأيديها.لم يصبح الرسم حرفة، كما تنبأت لها معلمة الرسم في المؤسسة، لكنها ظلت هوايتها التي تدخل على قلبها سرورًا لا يدخله سواها.

باستثناء ذلك، فقد كانت حياتها تدور في فلك المركز الذي تقضي فيه أغلب يومها، والبيت الذي يعد فندقًا تبيت فيه ليلتها، وزيارات دورية لـ "دنيا" كل عدة أسابيع. لذلك، كانت في أمس الحاجة إلى الأحلام، تكسر بها روتين حياتها، وتروي بها مشاعر ظمآنة على الدوام. لكن هناك أحلامًا يجب أن تظل كما هي.. مجرد أحلام. إن حاولنا جرها إلى الواقع فسيخبو بريقها وتذوي هالة القداسة حولها، وتغدو الحياة أقسى مما كان، فلا إلى تلك الأحلام سنعود، ولا بدونها تستقيم حياة!

****

تواجه "وعد" هذه المرة تحديًا كبيرًا، فحالة الطفلة "شيماء" من الصعوبة بمكان. تعاني من مرض التوحد Autism بصورته الحادة، مما ألحقها بزمرة الأطفال من ذوي الاحتياجات الخاصة.

تعلم أنها ستبذل الكثير من الجهد والوقت إن أرادت للطفلة التحسن. وكانت تملك كلاهما، ومستعدة لأن تهبهما عن طيب خاطر.

نظرت عبر المستطيل الكبير المفتوح أعلى باب الغرفة التي تم احتجاز "شيماء" فيها، رأتها تتحرك باضطراب بالغ، تدور حول نفسها مرات ومرات، ثم تجلس فوق الفراش، فما تكاد تستريح فوقه حتى تنهض مرة أخرى، تدور في

الغرفة وهي تقضم أظافرها واحدًا تلو الآخر، وقد تناثرت الدمى فوق الأرض في كل اتجاه.

أشفقت "وعد" عليها، فأشد ما يكرهه الطفل المصاب بالتوحد هو أن يضطر إلى تغيير مكان أو عادة؛ لكن حالة "شيماء" العدوانية دفعت بأمها إلى إلحاقها بالمركز، بعدما كادت أن تؤذي نفسها وتؤذيهم بنوبات غضبها الحادة وتحطيمها لكل ما حولها.

ولجت من الباب وأغلقته خلفها، فظلت الطفلة تنهض وتدور وتجلس فوق الفراش، دون أن تعير "وعد" أدنى انتباه. حاولت أن تجري معاها حوارًا، فلم تستجب. "شيماء"، بقسمات وجهها التي تشوبها تكشيرة غريبة، امتنعت أيضا عن تحقيق تواصل معها بعينيها، وأبقت على مسافة بينها وبين "وعد" تاركة مساحة فارغة حول جسدها تتجاوز المترين، كلما حاولت هذه الأخيرة تقليص هذه المساحة.

تركزت عيون "شيماء" بغتة على أسورة تزين معصم "وعد" ترمقها بذهول وانبهار.

كانت رخيصة بلا قيمة تُذكر، إلا أنها جذبت انتباهها بشدة، فرفعت "وعد"معصمها تحرك الأسورة حوله، وهي تراقب نظرات "شيماء"، وتقرأ في عينيها الرغبة في أن تتلمسها.

فرحت لهذا الهدف الذي سجلته في مرماها، والذي سيشكل نقطة انطلاق لتحقيق تواصل بينهما. تعلم أن بداخلها الآن رغبة استحواذية للمس الأسورة، رغبة لن تستطيع مقاومتها، ولن تستطيع إخماد جذوتها المشتعلة في خلاياها. اشترطت عليها "وعد" شرطًا مقابل أن تعطيها الأسورة وتسمح لها بلمسها، فوافقت "شيماء" بهزة من رأسها.

كان حوارا خفيفًا عن اسمها، وعن طعامها ومشروبها المفضلين، أجابت فيه بامتلاك قدر لا بأس به لناصية اللغة بصوت وتيري خال من الحياة، أشبه بصوت روبوت، وهي تلتهم الأسورة بعينيها، وتشعر بحكة تجتاح جسدها كله.

أراحتها "وعد" من هذا العذاب ونزعت الأسورة وقدمتها إليها، فتناولتها "شيماء" بلهفة وهي تديرها حول أصابعها تتلمس كل جزء فيها،كأنما حاجة ملحة تضطرها لأن تفعل.

اكتفت "وعد" بما حققته من نجاح لهذا اليوم، وانصرفت إلى طفل آخر بحالة أخرى.

عصرًا، توجهت إلى الاستراحة وطلبت مشروبًا دافئًا، حيث لحقت بها "سهام" وتجاذبتا أطراف الحديث، الذي حولته "سهام" بمرحها إلى صخب أثار انتباه بعض ممن حولهما، فانضمت إليهن طبيبتان وممرضتان، وما إن تخلل الجلسة الحديث عن إحدى زميلاتهن بقذف مباشر، حتى نهضت "وعد" تاركة المكان، ممتعضة من أن تصبح مثل هذه الأحاديث هي سلواهن، لا فرق بين طبيبة وممرضة وعاملة، جميعهن يعبثن بألسنتهن في حياة غيرهن, بحقائق تتخللها أكاذيب، أو أكاذيب تتخللها حقائق! تُرى لو علموا بماضيها فأي قصة ستنسجها عقولهن المريضة عنها؟.. وكيف من سياط ألسنتهن ستنجو؟.. دائمًا تنزل نفسها منزلة الغائب الذي يتحدثن عنه وترى الحديث من خلال عينيه، لأن جل ما تخشاه هو أن تصبح قصتها يومًا ما مضغة في أفواههن!

****

بعد مرور ثلاثة أيام من دخولها المركز، أمرت والدة "شيماء" بحضور الجلسة العلاجية. أرادت أن تعلمها التواصل الجسدي مع ابنتها، والذي تعلم أنه سيحتاج وقتًا طويلًا قبل أن تُظهر الطفلة استجابة له من أي نوع.

كان لـ "وعد" رأيها الخاص بشأن ذلك التواصل الجسدي، إذ تحب أن يقوم الطفل بهذا التواصل أولًا مع أمه أو أبيه، لا مع معلمة أو طبيب، لأن الطفل المصاب بالتوحد يتأذى إذا افتقد شخصًا تعلَّم أن يقيم معه ارتباطًا حميمًا، فكانت تفضل أن يكون هذا الارتباط الحميمي مع أقرب الناس إليه، مع من لن ينفصل عنه أبدًا.

طلبت من الأم أن تحتضن "شيماء" احتضانًا قويًا ومحبًا في نفس الوقت. حاولت الطفلة التفلت من أحضان أمها، إلا أن هذه الأخيرة كانت تطوقها بإحكام استجابة لتوجيهات "وعد". استمرا على هذا النحو قرابة الساعة، مما أنهك الأم جسديًا وعاطفيًا، ولم تحرز "شيماء" تقدمًا ولم تبد عليها أي استجابة، فاكتفت "وعد" بهذا القدر، ثم ساقتها إلى حجرة ضمت عدة أطفال يحاولون حل أحجية من الورق المقوى لتكتمل صورة حصان أبيض اللون، له جناحان يطير بهما في السماء، فاكتفت "شيماء" بالنظر إليهم بلا مبالاة!

كانت قد انتهت من متابعة مرضاها وتعبت، ففوجئت بـ "وائل" يدلف إلى مكتبها، ويخبرها أنه يريدها في أمر خاص.

حدد لها موعدًا في استراحة المركز، فاحتالت دماؤها نارًا، وعلى حطب قلبها غلت قدور، بينما ظلت محتفظة بقناع الجدية على ملامحها وهي تشير له برأسها بالموافقة. عَصفَت بعقلها الخواطر, وماجت بقلبها الأماني، تتقاذفها بين مد وجزر، وصاحبها الشرود طيلة اليوم، ولم يكد يحل الموعد حتى ودّت الفرار بنفس قدر التوق للقياه.

اصطكت ساقاها وتعرق كفاها وهي في طريقها إلى الاستراحة، وتكدّرت عندما وجدتها خالية منه. حركت كرسيًا من مكانه واستقرت فوقه، وهي تنقر برؤوس أناملها فوق الطاولة بعصبية، حرضها عليها توترها الذي بلغ منتهاه، حتى أقبل بخطاه الواثقة وابتسامته الخلابة ونظراته الآسرة.. هل من الممكن حقًا أن.....

توقفت عن الاسترسال في أفكارها، واستقبلته بهزة صغيرة من رأسها هي كل ما استطاعته بعدما اضطربت كل حواسها، وألجم لسانها، رأى قسماتها بجديتها المعهودة التي تبعث في قلب محدثها بالتردد. اعتذر بأسلوبه المهذب عن التأخير، فردت بهزة أخرى، وتسللت إلى أذنيها مقدمة قصيرة استهل بها حديثه عنها، أدبها، خلقها، مهارتها... فصافحت عيناها الأرض تخفي سعادتها بكلماته والتي كانت تشع منهما كشمس فاضحة، وتتخلى رويدًا عن دور المرأة الحديدة الذي اختارته لنفسها، وتركت بعض المشاعر الرقيقة تطفو على صفحة وجهها, ففرت ابتسامة صغيرة من حبس ثغرها، وتجلت على وجهها في بهاء.

عقدت جبينها بتقطيبة شديدة، عندما فقدت بغتة خيطًا من حديثه، تحاول أن تدرك ما فاتها بإرهاف السمع.. لماذا انقلب ضمير المتكلم فجأة إلى غائب؟! حتى ظهر لها الخيط في منتصف إحدى العبارات، " سمير"!.. من "سمير"؟!

- أول ما عرفت قلتله انت فعلًا أحسنت الاختيار، ومش هتلاقي زي دكتورة "وعد"، هو بس محرج يتكلم معاكِ، فقلت أرفع عنه الحرج وأوفق راسين في الحلال.

قال جملته بمرح اتسعت به ابتسامته، بينما حاولت هي التظاهر بالتماسك, زائغة العينين تنظر له في بلاهة. أردف:

- فياريت تديني رقم والدك أديه لـ "سمير".. ده لو انتي موافقة طبعًا يا دكتورة؟

استدعت صوتها بصعوبة من مخبئه، فخرج متحشرجًا:

- أ.. مش قادرة أدي قرار دلوقتي.

قال بسرعة:

- طبعًا أكيد.. خدي وقتك يا دكتورة.. أنا بس بسأل عن موافقة مبدئية.. يعني أنا شرحتلك ظروفه بالظبط، وأكيد هو هيكون أقدر مني على الشرح والتعبير عن اللي جواه.. عشان كده لو تحبي انكوا تتكلموا مع بعض الأول قبل ما.....

بادرته بعصبية وهي تنهض لتنصرف:

- بعد اذنك يا دكتور " وائل".

صمت لبرهة ثم قال:

- أكيد طبعًا اتفضلي..

****

سال الدمع المترقرق في ضوء القمر على مدن الحزن المرتعشة فوق شفتيها، يشق أزقة حارقة فوق وجنتيها, مسحت بكفها أمطار عينيها تحاول أن تعيد وصل ذراتها المبعثرة تحت أنقاض قلبها الذي سقط من عليين، فما أصعب الخيبة بعد طول ترقب. بصبر وارت أحاديث قلبها المحببة إلى نفسها لشهور طويلة، وها هي تمضي في مواراة أحاديثه والتي أضحت كثيرًا مؤلمة.. مخزية.. تطعن قلبها وأنوثتها في الصميم.

قررت وهي تمضي ليلتها ساهرة محتضنة وسادتها المتشبعة بعبراتها ألا تذهب إلى عملها في اليوم التالي، لكن هذا القرار تبخر مع بزوغ الفجر، وبعناد شديد واعتداد بالنفس تهيأت للذهاب. اهتمت بانتقاء ردائها، لم تكن ممن يستهويهن العبث بوجوههن بفرشاة وأحمر شفاه، فاكتفت بخط كحل حول عينيها، من

مكحلة قديمة عثرت عليها ملقاة بإهمال في أحد الأدراج، تدفعها رغبة مستعرة بداخلها أن تشعر أنها جميلة، وأن ترى ذلك في عيون من يراها.

انتشت عندما وجهت إليها كلمات مازحة عن سر الاعتناء بمظهرها اليوم بالذات. لعله العناد أو الرغبة في الثأر لقلبها المهان ما دفعها لأن تبحث عن "وائل"، الذي استقبلها ببشاشة قابلتها بالعبوس، لتعلن له بحدة لم يجد لها "وائل" مبررًا:

- ياريت تبلغ أستاذ " سمير" أسفي.. أنا مش موافقة.

هيأت نفسها لأن تُسمعه كلمات قاسية إن حاول المضي في اقناعها، لكنه لم يفعل. تلقى ردها بكلمات متفهمة، مما أغاظها. ودّت لو أخطأ فتنفجر في وجهه، حتى تخمد الجذوة المشتعلة بقلبها وتهدأ قليلًا.

شعرت بوتيرة الراحة تتصاعد داخلها، إلا أنها لم توقف القهر المتنامي داخل قلبها. أرادت الفرار من المركز، لكنها لم تفعل.. غابت رأفتها في ذلك اليوم، وهي تصرخ في وجه إحدى العاملات بقسوة:

- لو الغلطة دي اتكررت تاني هرفع الكلام ده للإدارة وهتطردي من هنا.. يا تشتغلي صح يا تاخدي بعضك وبالسلامة.. ألف واحدة تتمنى تشتغل بدالك.

أرادت أن تعاقب نفسها أن انساقت وراء عواطفها وتخلت لأول مرة عن حذرها، فنهرت ماضيها كله في تلك العاملة..

غبية يا "وعد"..!!

لم تطق العودة إلى بيتها، فتوجهت إلى إحدى المكتبات التي كانت تتردد عليها كل فترة. لم تكد تحيي أمينة المكتبة بابتسامة صغيرة وكلمات معتادة محفوظة، وتجلس فوق أحد المقاعد حتى تساءلت في نفسها: ماذا أفعل هنا؟! غادرت المكتبة وسارت في الطرقات بلا وجهة، تلقت اتصالًا من "سهام"

فخشت إن أجابت أن ينقل صوتها ما تشعر به من ضيق واختناق، فتصبح مجال تسليتها اليوم، وقد يصل خبرها إلى "وائل" فيفطن إلى حقيقة مشاعرها تجاهه، وهذا ما قد يقضي عليها تمامًا.

عادت إلى بيتها محملة بوجبة ابتاعتها من أحد المطاعم، بعدما قرص الجوع بطنها ليذكرها بأنها لم تضع في جوفها شيئا منذ مساء الأمس.

رفعت صوت التلفاز عَلَّه يشوش عقلها.. وعندما يئست من أن تقنع نفسها أنه يوم عادي كبقية الأيام، توجهت إلى الشرفة واستندت إلى سورها بمرفقيها وتركت لعبراتها العنان.

شعرت بتسرب بعض ألمها مع دموعها خارج جسدها مع كل رعشة فاستكانت بعد حين. أزاحت ببكائها عن نفسها حمل التظاهر أنها بخير، وما أثقله من حمل، يؤذيها أكثر من الألم نفسه. ودّت لو تسمع كلمات هي في أمس الحاجة إليها، ودّت لو صارحها أحدهم منذ أمد بالحقيقة العارية التي غضت الطرف عنها إلى الآن، جهلًا أو حماقة. قبلت أن تعيش وهمًا صنعت منه العادة حبًا زائفًا يستنزف مشاعرها وطاقاتها. حب موهوم ظن نفسه حبًا وأوهمها أنه حبًا فصدقته ونظرت إلى الوهم بحب!

اعتادت أن تفكر فتعلم القلب أن يشعر ودأبت العين على أن ترى، وها هي تتجرع ويلات خيالها الجامح.

ظنت أنه يعيش في أحلامها فحسب ولا تأثير له على حاضرها ولا مستقبلها، كم كانت ساذجة!

****

يبدو أن رفضها حرّض رجولته المُهانة على الظهور أمامها، وخوض ما لم يجرؤ على خوضه من قبل. في البداية، لم تربط بين الرجل الذي حدثها "وائل" بشأنه وبين "سمير" فني المعمل، الذي بات يسلمها التقارير بنفسه، ويخبرها بأمور فنية لا تعنيها، ويطلب منها خدمات تخص مرضى لا يعرفهم! ثم انتبهت إلى أنه حتمًا هو ذاك الذي حدثها "وائل" بشأنه. ماذا يريد بإلحاحه، ألم يتلق رفضها؟!

بعدما انكشفت مشاعره لها، أصر أن يظهر لها منه ما خفي عنها، علها ترى فيه موطن جمال غفلت عنه.لم يعلم أنها إنما غفلت عن شخصه ككل، إذ أصابتها الدهشة عندما أخبرها بغير ضرورة في وسط كلامه أنه يعمل في هذا المركز منذ عام ونصف. لم تخبره بأنها المرة الأولى التي تراه لئلا تجرح مشاعره بأكثر مما فعلت برفضها إياه, حاولت الاحتجاب منه ما استطاعت، إلا أنه كان يخرج لها من كل مكان، فاضطرت أن تخبره بحزم أن يترك ملاحقة الأعمال غير المهمة، إشارة إلى ما يتحجج به للتودد إليها.

مرت الأسابيع، ولم يرفع "سمير" رايات اليأس، إلا أنه قلّل من إقحام نفسه في عملها، مخافة أن يفسد من حيث يريد الإصلاح. لا تدري متى وكيف طفقت تتلذذ بمحاولات استمالتها إليه، وأحبت دور الفريسة التي يحوم حولها صياد مثابر، يملك خبرة بدائية في الصيد، مما يتيح لها حرية الوقوع في شبكته أو الفرار إلى أعماق البحر.. وربما آثرت أن تُصطاد!

أصبحت تنتظر ذلك التقرير الذي لم تطلبه، والذي يعرضه عليها من تلقاء نفسه..ذلك الحديث عن الطفل المريض الذي استرعى انتباهه فأراد الاستزادة من معرفة تفاصيل حالته.. وتلك الكلمات الموحية التي ينثرها بين ثنايا حديثه ببراءة مصطنعة. أخذت أفكارها منحنى جديدًا، فلم تستطع السيطرة عليها. ثم كيف ولماذا تسيطر عليها، وقد بدأت للمرة الأولى في حياتها تتذوق أحاسيس

الأنثى المرغوبة، التي يسعى رجل إليها بحب، ويرغب فيها كإنسانة، ويود لو يظفر بها كزوجة؟!

لا تنكر أنها وجدت في تصرفاته السلوى لقلبها، فكان كقطعة ثلج تهدئ به لسعة من نار موقد نسته مشتعلًا، واقتربت منه بغير اكتراث.

إنه شاب جيد، تتميز تصرفاته ببساطة وتلقائية محببة، يتمتع بعزم وإصرار كبيرين، وحسب ما فهمت من "وائل" أنه يتمتع بظروف اجتماعية ومادية ممتازة إذا ما قورنت بظروفها، ولم تكن "وعد" ممن يضعون المؤهل والشهادة الجامعية نصب أعينهم في الحكم على الآخرين, بعدما اختبرت وضاعة بعض ذوي المناصب والشهادات، ورفعة بعض من لا يستطيعون قراءة الكلمات!

داعبت مخيلتها أحلامًا ترجوها أن تبث فيها الحياة. لم تكن بعد قد تخلصت من رفات شهور وطنت نفسها فيها على أن تكن مشاعر خاصة تجاه "وائل"، فلا زالت تشعر بالاضطراب وبتزايد ضربات قلبها كلما التقته. لكنها تريد ما لا يستطيع أن يقدمه لها طيف "وائل" في أحلامها.

تريد طفلًا يسكن أحضانها، ملكًا لها، تهبه جزء من نفسها وروحها، تعيش له وبه.. تريد رجلًا تستبدل لين وسادتها بصلابة كتفه، وتنصهر حياتهما معًا.. أن تسمع أنفاسًا أخرى تتردد مع أنفاسها داخل البيت.. تريد من يزيل عنها آلام وعذاب سنوات طوال تركت جروحًا غائرة في روحها، لم تتعلم بعد كيف تداويها. تريد وطنًا يسع أفكارها وأحلامها، ضحكاتها ودموعها، عقلها وجنونها، إذا أراد "سمير" حقًا أن يكون لها هذا الوطن فستكحل أقدامها بلون ترابه وتتظلل بعرش سمائه.

يبدو أنها ستوافق على الارتباط به إذا عُرض عليها طلبه مرة أخرى. لكن كيف ستخبره عن ماضيها؟.. وهل سيقبل هو بها كما هي؟

****

لا يملك "سمير" ترمومترًا خاصًا بقياس أمزجة النساء، لذلك أضاع شهرًا آخر قبل أن يعرض عليها الارتباط مرة ثانية لكن هذه المرة بدون وسيط.

- ما عنديش مشكلة من حيث المبدأ.. بس محتاجين نعرف بعض أكتر.

وفي جلسة ضمت كليهما في استراحة المركز، قدم لها إجابات للأسئلة التي سألتها والتي لم تسألها، والفرحة تطل من عينيه لم يحاول إخفاءها.

كان يتحدث بتلقائية وبساطة قربتها نفسيًا منه شيئًا فشيئًا. شاب شرقي تقليدي هو، بسمات الخُلق والخِلقة، تشعر أنها قابلت نسخة منه في مكان ما. استمعت بانتباه شديد إلى حديثه الذي طال، وعندما تبادلا الأدوار ليسأل هو وتجيب هي، انسحب بساط الارتياح من تحت قدميها، إذ أراد الدخول إلى أراضي شائكة من حياتها..

- طيب ممكن تديني رقم والدتك عشان أخلي والدتي تكلمها؟

تلعثمت وهي تجيب بأول ما تبادر إلى ذهنها:

- أصلهم في عمرة دلوقتي.

- وايه المشكلة.. هاتي الرقم ولما تخلص عمرتها والدتي تتصل بيها.

لماذا لا تصارحه؟ إلى متى ستخفي الحقيقة؟ أرادت بشدة أن تلقي بالحمل الذي يثقل عاتقها، لكن خوفها منعها. رأته يبتسم بود وهو يقول:

- خلاص فهمتك.. عايزة تتأكدي من قرارك الأول.. ماعنديش مشكلة براحتك أنا هستناكي.

بعد يومين لم تذق خلالهما غمضًا، ضائعة في دوامة من التفكير المحموم، أتاها يطلب منها أن تقبل دعوة والدته على الغداء في منزلهم. وما كادت تبدي رفضها، حتى تصاعد رنين هاتفها، فطلب منها ببشاشة أن ترد على الرقم غير

المدون في ذاكرته. فعلت، لتفاجأ بصوت امرأة قوي، عرفت بنفسها كوالدة "سمير". اضطربت "وعد" لهذه المفاجأة وهي تنظر إلى "سمير" الذي يعلو البشر مُحيّاه.. لم تقبل المرأة بأعذارها الواهية، فوافقت "وعد" وقلبها يدق بسرعة طبول كرنفالية.

أول انطباع أخذته "وعد" عن والدته أنها امرأة قوية، تمامًا كصوتها الذي سمعته عبر الهاتف. أصابتها نظراتها الفضولية المتفحصة بالتوتر، ونبتت فوق جبينها حبات من العرق، جففتها بمنديلها بأصابع غير متزنة. رمت بنظرها تجاه حوض الأسماك الذي يقبع في الزاوية، فشغل رأسها سؤال: تُرى ألا يصيب التوتر تلك السمكات عندما تشعر أنها مراقبة كما يحدث معها الآن؟

لم تتوقف المرأة عن طرح الأسئلة وحصار "وعد" حتى ندمت على حضورها. كان "سمير" يتدخل كل فترة ليبدد شحنة التوتر التي تحتل مكانًا بينهما، يسببها تدقيق أمه في إجابات "وعد" التي لا تشبع فضولها.

كل هذ التوتر جعل "وعد" تقرر حاسمة وهي تنزل الدرجات أنها يجب أن تعترف لـ"سمير" بكل شيء وبسرعة.

في اليوم التالي، انتظرته في كافيتريا المركز، بعدما هاتفته لتخبره بمكانها. جلس أمامها وابتسامته لا تفارق وجهه.. خافت أن تؤلمه أو يؤلمها، فتلعثمت وتسارعت وتيرة أنفاسها..

بدأت في التحدث بروية، كاشفة عن نفسها أمامه ببطء، وكلما اقتضبت في الكلام وجدته يناورها بالأسئلة لتوضيح كلامها المبهم.

غامرت بالسير فوق ذاكرتها متشبثة بأهداب الأمل لتعبر منها سريعًا، فترك كفها بغتة كمن لدغه عقرب، لتبتلعها الرمال بلا شفقة أو رحمة!

****

لم يشفع لها عنده حبه الذي تغنَّى به، ولا سمعتها الطيبة بين الجميع في المركز، بعدما حدثته عن ماضيها. ولم تحاول هي شرح نفسها بأكثر مما شرحت.. لم تحاول استمالته ليشعر بصدق توبتها.. لم تحاول حتى أن تُفهمه دوافعها؛ شعرت أنها ستهين نفسها أكثر إن فعلت.

نظرات عينيه وكلمات الاستهجان العفوية الجارحة ألجمت لسانها بطوق من كبريائها. لمست منه نفورًا بعد رغبة، وصدًا بعد مَيْل.

حل به صمت القبور، وعلا الاضطراب ملامحه، فولت مسرعة. انتظرت أن يأتي خلفها ويسألها، يستفهم منها، يحثها على أن تشرح له أكثر. انتظرت أن يأتي فتحدثه عن حداثة سنها، وظروفها القاسية، وطيش فتاة في السادسة عشر أرادت إنقاذ حياة أمها بأي وسيلة. انتظرت أن يأتي فتحكي له عن صدق توبتها، ونقاء سريرتها، وتعاهده أن تكون زوجة صالحة له وأمًا طيبة لأبنائه.

أرادت أن تحكي.. فتبكي.. فتمتد يده لتشد على عضدها

فقط لو أظهر تفهمًا.. أو كان بها رؤوفًا..

فقط لو!

****

توهج مبنى المركز ليلًا بإنارة زرقاء مبهرة من الداخل والخارج، في حضور الإدارة وكل العاملين به وأهالي الأطفال، وذلك ليلة الأول من إبريل، في احتفالية خاصة بيوم التعريف بمرض التوحد وزيادة الوعي الدولي به، والذي تحتفل به أكثر من 45 دولة على مستوى العالم، منذ أن أطلقت تلك المبادرة من منظمة "التوحد يتحدث" عام 2010 .

توهجت مبانٍ ومعالم شتى بتلك الإنارة الزرقاء المميزة لذلك اليوم.. الأهرامات في مصر، مبنى امباير ستيت في نيويورك، برج طوكيو في اليابان، والتمثال المسمى بالمخلص في البرازيل، ودار أوبرا سيدني في أستراليا، جبل الطاولة في جنوب أفريقيا، المطارات والجسور والمتاحف وقاعات الحفلات الموسيقية والمدارس والجامعات والمطاعم والمستشفيات، وبعض المحال التجارية في شتى بقاع الأرض.

كان يومًا خاصًا، استمتع فيه الأطفال، واستمع الضيوف من الأهالي إلى كلمات ألقاها الأطباء وأخصائيو التخاطب، لزيادة التوعية بشأن هذا المرض وكيفية التعامل معه وطرق علاجه، وانتهت الحفلة بتوزيع مجموعة كتب صغيرة، كدليل لكل أم وأب للتعامل مع أطفالهم.

حاولت "وعد" الاندماج في الحفل، وتناسي ما أهمها، وشاركت الأطفال أحاديثهم وضحكاتهم، وقد تعلق بعضهم بذيل ردائها في محبَّة. صوبت بسمة واسعة تجاه "شيماء" التي جلست بجوار أمها في استكانة، فلم تبادلها الابتسام، إلا أن عينيها المصوبتين تجاه "وعد" نطقت باهتمام أسعد قلبها.

استمعت إلى شكاوى الأمهات، وواست بعضهن، ومنحت بعضهن الأمل من خلال كلمات بسيطة خرجت من قلب صادق مُحب.

لكن رؤيته أحالت الحفل إلى صندوق خانق شلَّ حركتها.

كان واقفًا هناك ينظر لها في أسى. كم هو جبان!..كان بإمكانها أن تخدعه، وتزيف حقيقتها أمامه، وتريه منها ما أراد أن يراه، لكنها لم تفعل.. لم تستطع أن تفعل. سمحت له أن يراها كما هي، ليتزوجها ويبني معها بيتًا وأسرة وهو يعلم من هي.. ليحبها كما هي. تنهدت بقوة، متمنية من أعماقها وهي تغمض عينيها لتحبس دمعة خائنة: "كم أن هذا الماضي مخزٍ وقاسٍ، ليتني أستطيع أن أزيله من ذاكرتي بممحاه سحرية"!

زاد همها سماعها لهمسات تنتقل هنا وهناك بخبث بين زميلاته، عن انفصال "سمير" و "وعد"، متسائلين عن الأسباب، مع عبارات الاستهجان لارتباطهما منذ البداية. كيف توافق طبيبة على الارتباط بفني معمل؟ تبًا، ألا يكتفي كل منهم بالانشغال بما يخصه؟!.. ما أوقحهم ولا مراء!

كانت كقنبلة انتزع فتيلها؛ لذلك عندما ضمها مكتبها بـ"سهام" في اليوم التالي، وسألتها عما حدث بينها وبين "سمير" فني المعمل، فاجأتها بإلقاء سماعتها الطبية بغضب لم تستطع السيطرة عليه، فوق إحدى اللوحات التي تزين جدار المكتب، فتحَطم الزجاج بصوت مدوٍ ليتناثر فوق الأرض أشلاء. وقبل أن تفيق "سهام" من صدمتها، انفجرت فيها "وعد" كما لم تفعل من قبل، طالبة منها عدم التدخل فيما لا يعنيها. نفَّثت نيران الغضب والقهر المحتشدة داخلها، ثم تركتها "سهام" تنصرف دون أن ترد عليها بكلمة، وهي تتبعها بعينيها الذاهلتين.

لم تعد تهتم إن أخبر "سمير" كل من في المركز عن السبب الذي عرقل ارتباطهما..لم تعد تهتم كيف سينظرون إليها إن علموا.. ما يهم حقًا هو اعتصارها ألمًا وهي ترى الحلقة الفضية التي تطوق إصبعه، بعد ستة أشهر من لقائهما المشؤوم في استراحة المركز. ما يهم هو تلك الغصة المريرة التي تستقر داخل حلقها، وهي تراه يصطحب خطيبته إلى المركز، بينما يرمقها بنظرات مشفرة لم تفهم فحواها، وهي ترمق تلك الفتاة التي فضَّلها عليها والتي حتمًا ليس لها سابقة مشينة مثلها.

ما يهم حقًا هي النار التي تحرق آمالها في أن تحظى يومًا بما تتمناه كل فتاة، وهي ترى دعوة حفل زفافه بيد إحدى زميلاتها.

باتت حتى تخشى النظر إلى "وائل"، لا تدري أكشف له "سمير" النقاب عما أخبرته به، أم أخفاه بمروءة. وفي اللحظة التي فاض بها الكيل وبلغ الألم

منتهاه، أتاها الخلاص في هيئة قافلة طبية، دعت لها إحدى منظمات علاج التوحد، لاستهداف أماكن متفرقة من جميع أنحاء الجمهورية، للتوعية والتدريب على التعامل مع الأطفال من ذوي الاحتياجات الخاصة، والتي قد يسيء المرَبون التعامل معهم بجهل.

كان ينقص القافلة متطوع غير "سهام" للانضمام إلى هذا الركب، حيث بلَّغت المنظمة الإدارة باحتياجهم إلى متطوعين اثنين من العاملين بمركزهم، وبقي مكان المتطوع الأخير شاغرًا لصعوبة المهمة، والبقاء أسبوعًا كاملًا في المكان الذي سيتم توزيعهم عليه، وسيتطلب ذلك بالطبع إجازة بدون راتب من المركز طيلة الأسبوع، لذلك عزف الجميع عن الذهاب، فاستبقت "وعد" بلهفة المكان الشاغر قبل غيرها. لم تعرب عن سرور أو ضيق عندما علمت أن المكان الذي ستقصده برفقة "سهام" وغيرهم من الأطباء والأخصائيين من خارج المركز هو "واحة سيوة". لا يعنيها كثيرًا إلى أين ستذهب، طالما ستبتعد عن هذا المكان لبعض الوقت.

فقط لبعض الوقت!

****

شعر "فرغلي" بحكة شديدة في أنفه، أتبعها بعطسة قوية رُج على أثرها كل جسده، ثم أتبعها بثانية وثالثة، وهو يبحث في جيب بنطاله عن محرمة ورقية، وأطلق سبة عندما لم يعثر على واحدة.

ألقى نظرة على الرجل الذي ظل على مرقده أرضًا قرابة الست ساعات، و"فرغلي" فاقد القدرة على إنقاذه، إن كان لايزال في جسده حياة. ترك الدفتر الوردي من يده، ونهض بتثاقل، بينما تئن عظام جسده وتعزف كل منها لحنها

الخاص. حرك قدميه حول المكان وهو يرمي ببصره في الأفق باحثًا عن طيف إنسان، ثم يعود لينظر إلى الطريق الذي يفصله عنه المنحدر الصخري.

أخذ يصرخ بعلو صوته، كمحاولة من محاولاته المستميتة طيلة الست ساعات الماضية لجذب أنظار أحد أصحاب السيارات القلائل التي تمر، فلم يظفر من تلك المحاولات إلا ببحة في صوته، حاول أن يزيلها بآخر رشفة من زجاجة المياه الوحيدة التي اشتراها من الكافيتيريا قبل الحادث بقليل. نظر بأسى إلى الأغلفة الفارغة لقطع البسكويت والمقرمشات التي التهمها منذ أربع ساعات، ولم يبق منها على فتات واحدة. تحسس بطنه الكبير المتدلي من حزام بنطاله مناجيًا، حيث أخذت تعاقبه عن حرمانها من الطعام بتقلصات مؤلمة، لا يدري كيف سيتحمل المزيد منها، فلا أمل يلوح في الأفق.

- بتعمل ايه إهنِه يا جدع انت!

التفت "فرغلي" بقوة، بعدما شنَّف سمعه هذا الصوت البشري، فرأى رجلًا يرتدي جلبابًا واسعًا، يعتلي ظهر حماره ويمسك في يده عصا، لولا وجود الترعة كحاجز بينهما لهجم عليه "فرغلي" محتضنًا إياه بقوة. بلهفة هتف بعلو صوته وهو يضم كفيه على شكل بوق ويقربه من فمه:

- الحقنا أبوس ايدك، نشفنا من البرد، والراجل اللى معايا لازم نوديه المستشفى.

نقل الرجل نظره ببطء إلى حيث الرجل الراقد أرضًا، وهو يهتف سائلًا بعدما رفع حاجبيه دهشة:

- هو نايم على الأرض اكدِه ليه؟

رد "فرغلي":

- ده مش نايم.. شكله مات.. أو يمكن لسه فيه روح.. مش عارف.. لازم ننقله المستشفى.

- جول والله!

- أمال يعني باهزر معاك.. بقولك.. مافيش طريقة نعدي بيها الترعة دي؟

- طب ما تعدي هو حد حايشك؟

بغيظ هتف "فرغلي":

- هو أنا مستنيك تقولي عدي.. ما أنا لو بعرف أعوم كنت عديت من زمان.. وبعدين الراجل اللى معايا ده هعديه ازاي من وسط الترعة؟

- ما تخافِش.. دي البهيمة بتعوم فيها لوحديها.

- بهيمة!.. الله يكرم أصلك.. لا شوفلي حل تاني.

حك الرجل رأسه بطرف عصاه ثم صاح:

- طب خليك اهنِه.. هروح جوام جوام أجيب انفار من حدانا في الغيط يشيلوك هيلا بيلا انت والجدع المفرفر ده.

- غيطكو ده بعيد؟

- لا مش بعيد.. ما تجلجش "سريع" هيوصلني طوالي.

- طيب أبوس ايدك ما تتأخرش.. ها؟

- ما تجلجش.

لكن "فرغلي" كاد أن يصاب بارتفاع حاد في ضغط الدم وهو يرى الحمار "السريع" يتبختر فوق الأرض بصاحبه، فقال بغيظ وهو يضرب كفًا بكف:

- الله يحرقك انت و "سريع"!

تقدم بضع خطوات ليكون بمحازاته ثم هتف:

- ما ينفعش تمد شوية.. بقولك الراجل عايزين ننقله المستشفى.

- ما آني بمد أهو.. معلش أصل "سريع" بعافية حبتين.. ما تجلجش مش هعوّج.

- طيب معكش موبايل تكلم حد يجيلنا؟

- لا نسيت النومبايل بتاعي في البيت.

- نومبايل!. طيب.. ماتتأخرش.. ها؟

****

في المساء ، تلقت "وعد" اتصالًا من أحد المسؤلين في المنظمة التي تنظم القافلة الطبية، ليبلغها بميعاد الاجتماع الذي ستتلقى فيه التعليمات الخاصة بمكان سفرها وتفاصيل أخرى، والذي سيكون في اليوم التالي. اجترَّت ذكرياتها وهي تدون العنوان فوق ورقة بخط مضطرب.. يالله!.. أبعد كل هذه السنوات تعود إلى هذا المكان مرة أخرى!

فغرت فاها دهشة وهي ترى تلك الأبراج السكنية المتجاورة التي احتلت مدخل "حكر أبو دومة" سابقًا، والذي لم يبق منه أي أثر. نعم، الآن غدا كل شيء طبيعيًا، الأبراج على ذات اليمين وذات اليسار، أطلت الشرفات على مثيلاتها من الأبراج العالية، واجهة مُشرِّفة لمنطقة راقية، لم تعد العشش والأكواخ وأكوام الخردة والقمامة تُشوهها، لم تعد مشاهد الفقر تجرح عيون ساكنيها. فوجئت بلافتة معلقة على المصعد "نأسف للإزعاج المصعد به عطل"، فزفرت بقوة وهي تخطو بأقدامها فوق درج الطابق الأول، وتتمسك بالدرابزين تتكئ عليه.

نظرت إلى هندامها تتأكد من ضبطه، فوقع بصرها على حذائها الجلدي بسواده اللامع، فتراءت لها تلك الواجهة التي وقفت أمامها تنظر بشغف إلى الحذاء الأسود ذو الفيونكة الكبيرة، تتمنى أن تستبدل به حذاءها البالي الذي رُقع بالخيط الأسود ليسد ثغرات شقوقه. تذكرت كيف تجعَّد وجه أمها يومها حسرة إزاء عجزها عن شراء الحذاء لها، فأصابها الحنين إليها. تمنت لو كان بإمكانها الآن أن تمسح تلك التجعيدات عن وجهها بأناملها، وتصحبها معها إلى حيث هي ذاهبة، فما عادت عاملة نظافة تُعامل باحتقار، بل أم طبيبة ماهرة يُشار لها بالبنان.

"قوليلنا يا "وعد" كيلو القوطة بكام النهارده؟"

ترددت تلك العبارة في عقلها وهي في الطابق الثاني، تسترجع بها ذكريات بائسة. تُرى أين هم الآن، وماذا فعل الدهر بهم؟ هل تنتابهم مشاعر الندم أحيانًا على سخريتهم منها قديمًا، أم كانت في حياتهم مجرد ذرة تراب داسوها، ولا أحد يندم على وطء ذرة تراب؟

فتحت حقيبتها بالطابق الثالث تخرج منديلًا، فانتبهت إلى حافظة نقودها. خرج طيفها من الذاكرة وهي تسير في الطرقات بغير هدى، وقد أعياها البحث عن وسيلة تتحصل بها على ربع المال الموجود في حقيبتها الآن! لو وجدته وقتها ما امتدت يداها لتسرق، وما عانت ما عانت!

"صدقني يا فندم لو الأشكال دي ما اتعاقبتش هتسرق تاني وتالت ورابع.. والمجتمع هيبقى غابة".

تساءلت في نفسها وهي تصعد درجات الطابق الرابع: تُرى هل كان والد "هايدي" مصيبًا في كلامه؟ هل هي وأمثالها سيحيلون المجتمع إلى غابة؛ أم أننا نعيش بالفعل في غابة وهي من تصنع منَّا وحوشًا؟

نظيفة هي الدرجات الرخامية للطوابق الخمس التي صعدتها، تتوهج لمعانًا، لقد عانت عاملة التنظيف في مسحها، وعادت لبيتها منهكة القوى تشتكي من آلام ظهرها ومفاصلها، أو لعلها أخفتها بين جنباتها وكتمت آهاتها وتناستها وهي تتطلع بحنو في وجوه أبنائها, كما كانت تفعل أمها معها.

لماذا كنت ضيق الأفق يا "سمير"؟ كان من الممكن أن أكون لك زوجة وأمًا لأبنائك أفضل منها. قد تكون قد أخفت عنك أبشع مما أفصحْتُ عنه أنا. لهثت وهي ترفع رأسها لأعلى، يفصلها عن مقر الاجتماع طابق واحد..

"هايدي، لن أسامحك قط".. هكذا هتفت بكل كيانها.

مسحت حبات العرق المتلألئة فوق جبينها في الطابق الأخير، جعدته في قبضتها وألقته في سلة معلقة في الردهة، فبرزت من ذاكرتها صورتها وهي في عمر الثالثة، جالسة فوق مقعد خشبي في ممر المستشفى تنتظر خروج أمها من غرفة العمليات، يتقدم منها "زياد" ويعطيها منديلًا، تمسح دموعها، تجعده في قبضتها وتلقيه أرضًا، فيعاتبها بلطف. دمعت عيناها لتلك الذكرى.. فليست أبدًا كأي ذكرى. نسيها, لكن ذكراه لازالت في الفؤاد حاضرة!

قابلتها الواجهة المضاءة لمنظمة علاج التوحد، فلملمت شتات نفسها ودلفت، لتستقبلها رائحة منعشة وأثاث راقٍ منسجم مع المكان. انتظرت عشر دقائق برفقة "سهام"، التي سبقتها في الحضور، حتى تجمع كل المتطوعين، ليبدأ الاجتماع.

تم تقسيمهم إلى مجموعات، وتم اختيار قائد لكل مجموعة، وهو أكبر أفراد المجموعة سنًا. واختير لكل مجموعة وجهة؛ وكما قيل لها سابقًا ستكون هي و "سهام" من أفراد المجموعة التي ستتوجه إلى "واحة سيوة".

بعد ذلك، توجهت كل مجموعة إلى غرفة، وأخذ أحدهم يشرح لهم طبيعة المكان الذي سيتوجهون إليه وطبيعة عملهم، والوجبات والإقامة مدفوعة الأجر طيلة الأسبوع، بالإضافة إلى بدل انتقالات داخل المكان لكل منهم.

مُنحوا استراحة صغيرة، فتوجهت "وعد" إلى النافذة الكبيرة المفتوحة، التي تتوسط جدار غرفة الاجتماع. كانت تقف على أنقاض ذكريات الحكر الذي احتضنها وأمها لسنوات، الحياة تدب في الشارع بشكل طبيعي، تنساب حركة المرور ويسير الناس كل إلى وجهته، لا يلتفت أحد إلى البرج الذي بدا كجزء أصيل من المكان.. وحدها لا تشعر بهذه الأصالة!

شعرت أنها تقف على شرفة برج كرتوني خرج من أحد أفلام الرسوم المتحركة، مكان مستهجن بجينات غير أصيلة.. لا تتصور أن هذا البرج تم بناؤه طوبة فوق طوبة، بل خطر ببالها أنهم حملوه كما هو ووضعوه في هذا المكان!

أطلت على البرج المقابل، الذي يفصلها عنه الشارع العريض، والذي كانت تنظر إليه حين عودتها من المدرسة، وتتمنى أن تخطو فوقه بقدميها، الآن تقف بقدميها فوق أخيه المواجِه له، تستند إلى السور بكفيها ويقف جسدها باعتداد، وللمفارقة كانت الشرفة مواجهة تمامًا لشرفة العيادة التي حلمت يومًا بامتلاكها.

ظهر على جانب فمها ابتسامة ساخرة، فقد أزيلت لافتة العيادة التي كان يعلوها الاسم الرنان للطبيب فلان، ليحتل مكانها لافتة أخرى باسم المحامي علان!

استُئنف الاجتماع فدخلت من الشرفة، همست لها "سهام" التي تجلس على المقعد المجاور لها حول الطاولة:

- مالك النهارده مش طبيعية؟

- مافيش.

اكتفت "وعد" بهذه الكلمة المقتضبة، وحاولت أن تصب تركيزها على الحوار الدائر بين أفراد مجموعتها.

****

توجهت برفقة "سهام" إلى دورة المياه، وبينما كانت تغسل وجهها، حانت منها التفاتة إلى نافذة صغيرة مفتوحة، فانعقد جبينها وهي تقترب منها. كانت النافذة تطل على الجهة الخلفية من البرج.. ازدادت التجاعيد فوق جبينها وهي ترى أطراف الصورة المترامية أمامها. هناك من بعيد، تراءت لها أعشاش من الخشب أو القش، نصبت بجوار بعضها البعض، وشكلت بينها حوارٍ ضيقة. هناك أيضا أكوام خردة وقمامة حول المكان، أطفال يلعبون، ونساء تفترش الطرقات، وملابس معلقة على حبال أمام العشش.. كلب يجلس أمام خيمة مهترئة، ينبح على كل من يقترب منها.. رجال منكبون على الحفر خلف أحد الأكواخ الخشبية.. لون الغبار يلف المكان، رائحة الفقر والمرض والجوع تكاد تتسلل إلى أنفها وهي واقفة هناك في الطابق الثامن من البرج!

بعد انتهاء الاجتماع، تهرَّبت من "سهام" بأعجوبة، وسارت إلى هناك خلف البرج، مدفوعة بعمر قديم عاشته هناك.

اصطدم بها أحد الأطفال وهو يجري، فالتفتت إليه مبتسمة. نظر لها الطفل بفضول، إذ بدت بهندامها الأنيق وجهًا غريبًا لم يعتد أن يراه في هذا المكان. ثنت "وعد" ركبتيها ومدت يدها تقربه منها وهي تسأله:

- اسمك ايه يا حبيبي؟

توجس خيفة، وبدا عليه الخجل، فاتسعت ابتسامتها وهي تقول بحنو:

- أنا اسمي "وعد" وكنت عايشة هنا زمان.

سألها بصوت مغلف بالدهشة:

- والمصحف؟

أومأت برأسها ايجابًا وقالت:

- أيوة.

- وروحتي فين؟

- عايشة في مكان تاني.

- أحسن من الحتة دي؟

صمتت قليلًا وبدا عليها التفكير، ثم قالت وهي تنظر إليه برقة:

- مش مهم أحسن ولا أوحش.. المهم مبسوطة فيه ولا لأ؟

لم يستوعب الطفل كلماتها فأعاد سؤاله:

- مكان أحسن من الحتة دي؟

منحته ابتسامة صغيرة ثم سألته:

- انت عايش هنا مع مين؟

أجاب بحماس وقد بدأ يشعر بالألفة معها:

- مع أمي وأبويا والمقاطيع اخواتي.

- بتحبهم؟

- آه.. بس ساعات بكرهم.. لما أبويا يضربني وأمي تزعق واخواتي يشاكلوني.

اتسعت ابتسامة "وعد"، فسألها بفضول:

- ليه مشيتي من الحتة؟

شردت لبرهة ثم قالت:

- أمي ماتت.. فاضطريت أمشي من هنا.

- كنتي عايشة مع أمك؟

- أيوة.

- أمك بس؟

ابتسمت وهي تقول بينما تمسح على شعره بأناملها:

- وكنت عايشة مع واحدة ست طيبة قوي اسمها "أم مرزوق"

قال الطفل بحماس:

- عارفها.. خالتي "أم مرزوق" العامية.

ردت في قلق:

- هي ماكنتش عامية.

قال ببراءة:

- لا هي عامية ما بتشوفش حاجة خالص.. عشان هي عنيها مش زينا كده.. اللي جوه عنيها ده لونها أزرق، تحبي أوريكي عِشّتها؟

أومأت برأسها، وقلبها تتعالى خفقاته.. مشى أمامها فتبعته وصورة "أم مرزوق" تحتل عقلها، حتى توقف أخيرًا أمام عشة صغيرة وأخذ يهتف:

- خالتي "أم مرزوق".. خالتي "أم مرزوق".

كتمت "وعد" شهقة كادت أن تفلت منها. غطت فمها بأناملها وهي تتطلع بأعين دامعة إلى المرأة النحيلة المنحنية الظهر التي خرجت من العشة تستند إلى عصا خشبية طويلة. ألجمتها المفاجأة وتسمرت قدماها، وسمعت الصبي يقول:

- الأبلة دي عايزة تشوفك يا خالتي.

نظر إلى "وعد" فخورًا بإنجازه.. كانت لاتزال تتفرس في المرأة التي غادر رحيق الحياة وجهها وجسدها. طبقات من الجلد الجاف تتوسطها عينان وفم دقيق لم تعد واضحة معالمه كشق صغير من بين كل هذه الشقوق التي تزاحم وجهها.

اقتربت منها، بينما ترهف"أم مرزوق" السمع وتحرك رأسها يمينًا ويسارًا، تنتظر أن تتحدث تلك القادمة لرؤيتها.. وقفت "وعد" أمامها وهمست مع أول دفقة من دموع عينيها:

- ازيك يا "أم مرزوق".. أنا "وعد".. فاكراني؟.. "وعد" بنت "أمل" جارتك - الله يرحمها -.

ظل وجه المرأة ساكنا بلا انفعال، أو لعله اختفى بين طيات وجهها. مست "وعد" كتفها وهي تقول بصوت مرتجف:

- مش فاكراني؟.. أنا "وعد".. آخر مرة شفتك لما جيتي مع أمي تزوريني في القسم لما كان مقبوض عليا.. وأمي وصتك عليا.. معقول نسيتيني يا "أم مرزوق"؟

اختلجت طيات الجلد، وتحرك رأسها باضطراب.. رفعت كفها المرتعش فالتقى بوجه "وعد"، ثم أخذ طريقه إلى كتفها ليحط فوقه. بصوت مبحوح يكاد يكون غير مسموع تساءلت:

- "وعد" بنت "أمل"!.. انتي "وعد" بنت "أمل"؟!

أومأت "وعد" برأسها إيجابًا ونسيت أنها لا تراها، لكن المرأة شعرت بحركة جسدها تحت كفها، فإزداد اضطراب جسدها ورأسها الذي لا يسكن في مكان. أحاطت "وعد" الجسد الهزيل بذراعيها، تضمها إليها وتدفن وجهها في كتفها.

لم تمنحها العناق، بل اقتنصته منها.. كانت بحاجة شديدة إليه. تركت لعبراتها العنان، وسمحت لنفسها بالبكاء بقوة غير مبالية، حتى ظنت أنها لن تهدأ أبدًا. تحاملت على نفسها لتتوقف عن البكاء وتبعد رأسها، لتنظر في وجه المرأة التي تمثل لها آخر ذكرى من أمها. دخلتا العشة وافترشتا الأرض، وبكلمات مشحونة بالعاطفة تبادلتا حديث الذكريات الشجي.

علمت منها "وعد" أنهم -وبعد قرار ازالة الحكر- منحوا لهم خيامًا مؤقتة، لحين يجد كل منهم مسكنًا آخر.. وجد من وجد؛ لكن "أم مرزوق" التي هجرها أبناؤها ولا تملك إلا معاشًا هزيلًا كانت ضمن من لم يجدوا, لجأت إلى ابنها الأكبر الذي يعيش مع زوجته وأبنائه، لكن بمجرد أن سمعت زوجته استجداء "أم مرزوق" لابنها لتتظلَّل معه بسقف بيته أقامت الدنيا وهددته بالطلاق ومغادرة البيت إن جرؤ على السماح لأمه بالسُكنة في بيتها، فغادرت برأس مُنكَّس وتوجهت إلى ابن آخر فما كان من زوجته إلا كما فعلت زوجة الابن الأول، وبخطى مترنحة وجسد هدَّه الجوع والتعب ذهبت إلى ابنتها، التي ما إن رأتها حتى طالبتها بسرعة الرحيل قبل أن يأتي زوجها ويرى حال الأم التي لا تُشرِّف، دون دعوتها إلى رشفة ماء تروي به فمها الذي شققه العطش.

ومن مكان إلى آخر، عادت مع بعض الأسر التي لم تجد لنفسها مأوى إلى الحكر مرة أخرى، وفي يومين كانت العشش قد نصبت، ودبَّت الحياة خلف الأبراج التي احتموا بها من نظرات الرائح والغادي، وكل مُناهم ألا يتنبَّه إليهم

مسؤول، أو يقوم بشكواهم أحد ساكني هذه الأبراج التي شُيدت فوق أنقاض مساكنهم ومأواهم.

سألتها "وعد" عن مكان قبر أمها، فأطرقت المرأة بأسف، وأخبرتها أن المستشفى آنذاك تولت مهمة دفنها. شردت مع صدمة أنها لن تعرف مكان قبر أمها أبدًا، فلم تشعر بنهوض "أم مرزوق" من جنبها، ولم تشعر بها وهي تعبث بيدها في بعض الأغراض المكومة في أحد جوانب العشة، ثم وبعد حين عادت إليها وهي تحمل بيدها شيئًا ما وتقول:

- وأخيرًا هرد الأمانة لصحابها!

كشفت عن الظرف المتسخ وهي تردف:

- الجواب اللي أمك - الله يرحمها - وصتني أديهولك لو جرالها حاجة.

مدَّت "وعد" كفها باضطراب، وحملته بين أناملها كأنها تحمل رضيعًا تخشى أن تؤلمه أو يسقط منها. وضعته في حقيبتها بعناية، وعبثت فيها قليلًا قبل أن تخرج ما بها من مال, وقبل مغادرتها دفعت به إلى يد "أم مرزوق" وهي تقول بحنان:

- انتي بتعتبريني زي بنتك مش كده؟.. أنا ماليش في الدنيا دي حد غيرك.. انتي الوحيدة اللي باقية لي.. قضينا سنين طويلة نقسم اللقمة سوا.. ما نستش وقفتك جنبي لما كانت أمي تعبانه وأنا عارفة ان ظروفك مش أحسن من ظروفنا ورغم كده مابخلتيش علينا بالقرش اللي حيلتك.. أنا عايزة أخدك من هنا..أنا عايشة في شقة بتاعة واحدة صاحبتي هتخرج قريب من الإصلاحية.. وعايزاكِ تيجي تعيشي معايا.

ارتجفت "أم مرزوق" كورقة خريف في مهب الريح، ولمعت عيناها وهي تنظر إلى "وعد" كأنما تراها، فقالت "وعد" وهي تمسح فوق ذراعها:

- أنا مسافرة في شغل لمدة أسبوع.. لما أرجع هاجي أخدك من هنا.. اتفقنا؟

تحدثت المرأة بكلمات مضطربة تأثرًا وهي تمسح وجهها، فتسابقت الدموع فوق وجنتي "وعد" وهي تغادر العشة، وكلما تراءت لها صورة العجوز وهي تقف أمام أبواب أبنائها تستجدي إحسانهم، امتلأت نفسها ألمًا وقهرًا وشبَّ في كيانها حريق لا ينطفئ!

****

عادت بالمظروف إلى البيت.. كان صغيرًا بحجم الكف، يتراءى لها الخطاب المطوي بداخله. فضت المغلف بلهفة، وجلست فوق المقعد تلتهم بعينيها السطور التي خطتها أمها بخط غير متزن منذ أكثر من 10 سنوات!

(بنتي الحبيبة "وعد"..

حاسه ان أجلي قرب وهسيبك في الدنيا لوحدك بدعي ربنا انه يحميكي ويحرسك بس عارفة إن الناس ما بترحمش.. ياما شفت منهم.. وياما قاسيت بعد ما أبويا وأمي ماتوا وبقيت في الدنيا لوحدي وطمعوا فيا أكتر.

عشان كده مش عايزاكي تعيشي لوحدك من غير ضهر يحميكي

لو مت يا بنتي فوصيتي ليكي انك ترجعي لبيت أبوكي

عارفه ان ده صعب عليكِ وعارفه انك بتكرهيه عشان اللي عمله فيا زمان

بس انتي غيري يا "وعد" انتي بنته.. حته منه ويمكن تكون الدنيا ربته وغيرته وياخدك في حضنه ويعوضك عن السنين اللي فاتت

قلبي بيتحرق كل ما أفكر اني هسيبك لوحدك.. لو بتحبيني هتنفذي وصية أمك.. وأنا عارفة انك هتنفذيها وهتسمعي كلامي وهتريحيني في قبري.. مش كده يا بنتي

خلي بالك من نفسك. وادعيلي واترحمي عليا واوعي تنسي أمك يا "وعد").

انهمرت دموعها كالشلال يغرق وجهها، الذي احتقنت دماؤه وتجسدت عروقه. ضمَّت الخطاب إلى صدرها بقوة، تود لو طبعت حروفه التي كتبتها أمها داخل عروقها كالوشم، فلا تنفصم عنها أبدًا. قرَّبت الخطاب من أنفها تشم عبق أمها المحبوس بداخله لسنوات.. كادت أن تجزم أنها تشم رائحة "أمل"، التي يعرفها قلبها جيدًا.. رائحة الطيبة والحنان، والحضن والأمان، والحلم والغفران.

امتدت يدها إلى الورقة الصغيرة التي صَحُبت الخطاب، والتي خُط فوقها عنوان ورقم هاتف. عندها أطلت القسوة من قسماتها، وقفز من عينيها وحش الكره، يكاد أن يشعل النيران في تلك الورقة الصغيرة. ألقت بها أرضًا تنفر من مجرد مسها، صدرها يعلو ويهبط وتزداد دقات قلبها اضطرابًا، تحاول أن تتذكر ملامحه، لتقذفها بجمرات الغضب, لكن تخذلها الذاكرة.. فتصنع لجسده وجهًا.. وبكل عنف تمزقه!

****

إنها المرة الأولى التي تغادر فيها القاهرة إلى أي مكان، لذلك دست معظم أغراضها وملابسها بداخل حقيبة كبيرة وتركتها بجوار باب الشقة في المساء، ووضعت الخطاب بعناية في حقيبة يدها، بعدما قرأته مرات ومرات. لم تنس أن تهاتف "سهام" وتعتذر لها عما بدر منها تجاهها في فورة غضبها المفاجئ، ولحسن حظها فـ "سهام" تمتلك قلبًا لا يتحمل الخصام، فسامحتها بعدما

عاتبتها بدلال الأصدقاء. أخذهما الحديث عن القافلة فقالت "سهام" ضاحكة:

- حد يجيله فرصه يسافر وما يسافرش.. ده احنا ولا الثور اللى عمال يلف في ساقية ليل نهار؟

- ما احنا هنروح نشتغل برضه!

- لا يا ماما القافلة مش هتبقى زي شغل المركز اللي بيمصوا فيه دمك.. واهو على الأقل نشوف مكان جديد وناس جديدة.

- انتي روحتي سيوة قبل كده؟

- لأ.. بس سمعت انها وهم.. بيسموها الجنة المفقودة.

انتقل صوت "وعد" المندهش عبر الأثير:

- بجد؟.. أول مرة أعرف!

قالت "سهام" ضاحكة:

- وأنا كمان.

- وعرفتي منين؟

- ربنا يخليلنا الإنترنت..

باتت "وعد" ليلتها تتخيل تلك الجنة المفقودة، وتتساءل عن ماهية السعادة وقدرة المكان على بثها كي يقال له "جنة"!

* * *

الفصل الرابع

الجنة المفقودة

في السادسة والنصف صباحًا، حملت حقيبتها الثقيلة بعناء وهي تنزل الدرجات الأربع، لتجد الحافلة الصغيرة في انتظارها أمام البيت، وبها الطاقم المكوَّن من أربعة أفراد والسائق والدليل الذي سيصحبهم طيلة الأسبوع. صعدت الحافلة تبحث بعينيها عن "سهام"، التي تركت لها مكانًا بجوارها، فوقع نظرها على وجهها وقد زادت من السواد حول عينيها فبرزتا، وتوهجت شفتاها بلون ملفت. تركت لها "سهام" المقعد الملاصق للنافذة واحتلت هي الذي يجاوره.

- ايه اللي انتي عاملاه في نفسك ده يا "سهام".. دي قافلة طبية مش فرح!

ضحكت، فالتفتت إليها الأنظار، وأجابت بصوت خافت:

- ياختي سبينا نعيش.

وبهمس أردفت وهي تميل على أذن "وعد":

- يعني عجبك قعدتنا كده؟.. انتِ عديتي ال 29 سنة وأنا خلاص كام شهر وهادخل بوابة الـ30.. اهو يمكن نطلعلنا من القافلة دي بعريسين,

بضيق قالت "وعد":

- اطلعي زي ما انتِ عايزة مالكيش دعوة بيّ.

نظرت إليها "سهام" بخبث وهي تعدل جلستها وتريح ظهرها إلى مقعدها وقالت:

- أموت وأعرف ايه اللي حصل بينك وبين "سمير"؟

زفرت "وعد" بضيق، والتفتت إلى يسارها تشغل نفسها بمتابعة الطريق من النافذة، لتجد وصية أمها تقتحم رأسها، فيزداد ضيقها ضيقًا.

****

صوت مغادرة الزملاء، مصحوبًا بثرثراتهم أيقظها من نومها، فلم تجد "سهام" بجوارها. نظرت من الشباك، فرأتها واقفة مع أحد أفراد الطاقم أمام الكافيتيريا، التي توقف السائق أمامها على الطريق، فمطَّت شفتيها استياءً لتودُد "سهام" المبالغ فيه إلى الرجل بعينيها وضحكاتها وحركات جسدها، وإن تركت بينهما مسافة. أرادت أن تهتف بها يا حمقاء, أفيقي قبل أن تعضين أصابعكِ قهرًا وندمًا، افهمي الرجل كما فهمته أنا، إن تمرّغتِ في الوحل وأنتِ تذبحين قرابين الحب لأجله، إمَّا ستُصيبه هيئتك المزرية بالنفور، أو سَيراكِ والوحل سواء!

أشاحت بوجهها عنهما، وأخرجت من حقيبتها إحدى الروايات، وانتشلت من بين صفحاتها الخطاب، عادت تقرأه بنفس القلب الذي خفق لقراءته في المرة الأولى، ومعه الورقة التي تحوي الرقم والعنوان، اللذين حفظتهما دون وعي، وعقلها تتخلله أفكار شتى مُغلَّفة بالحيرة والخوف والألم. انتبهت إلى صعود

"سهام" للحافلة، فطوت الخطاب سريعًا ووضعته داخل الرواية ثم دستها في حقيبتها، لكنها فوجئت بسؤال "سهام" فور جلوسها:

- كنتِ بتقري ايه؟

هزَّت كتفيها باضطراب وهي تقول:

- رواية جبتها معايا أتسلى فيها.

همت "سهام" أن تسألها عن الخطاب لا الرواية، لكن أنقذ "وعد" ميل أحد الرجال على مقعد "سهام" وابتسامة كبيرة على ثغره، وهو يمد يده بحقيبة بلاستيكية حوت ماء وعصيرًا وبعض المأكولات الخفيفة، فتناولتها "سهام" وهي تضفي على صوتها بعض الرقة:

- ميرسي.. سوري تعبتك معايا.

بنظرة لم تحبها "وعد" قال:

- تعبك راحة.

مر إلى مقعده، الذي يقع خلفهما بمقعدين، فمالت "سهام" إلى الخلف تبتسم له قبل أن تعود وتستقر فوق مقعدها مُعتدلة، ومدت يدها بعلبة عصير إلى "وعد"، التي قالت بسرعة:

- لا شكرًا.

- خدي يختي انتي هتمثلي.

- هو اللي اشتراهم؟

- أيوة.. عزمنا.

- عزمك انتي مش أنا.

- لا أنا وانتي، ما تحبكيهاش. وبعدين احنا هنقضي أسبوع مع بعض يعني ممكن نردهاله في أي وقت.

أشارت برأسها نفيًا، ففتحتها "سهام" لنفسها ضاحكة.

****

طوال الطريق من "مرسى مطروح" إلى "واحة سيوة" قابلتهم الرمال الصفراء على الجانبين.. وهناك في الأفق تظهر بعض الجبال الصغيرة التي تبدو وكأنها تفتتت وخرجت من رحم جبل كبير تناثرت أشلاؤه في الصحراء، وكثيرًا ما احتارت في ماهية أحد الأشكال الهرمية ما إذا كان جبلا صغيرًا أم كثبانًا رملية!

لا أثر للون الأخضر إلا في بعض الأعشاب وفيما ندر. لم يسبق لـ "وعد" أن سارت في صحراء مماثلة، فاتسعت عيناها تستوعب اللون الأصفر المتوهج تحت ألسنة الشمس الحارقة، وحاولت حفر الصورة في مخيلتها لتنقلها فيما بعد إلى لوحاتها.

لاحظت كذلك عدم وجود محطة بنزين على الطريق من مرسى مطروح إلى واحة سيوة، والذي استغرق نحو أربع ساعات مروا خلالها ببعض الاستراحات البدائية، حتى حطت الحافلة أخيرًا فوق أرض الواحة.

ويكأن نافورة من اللون الأخضر انفجرت وسط الصحراء.. أشجار نخيل لا حصر لها تمتد كبحر أخضر مترامي الأطراف، زاهية ألوانها، عالية هاماتها.. بساتين بامتداد النظر من أشجار التين والزيتون.. جزيرة مليئة بعيون ماء زُلال وينابيع معدنية خلابة وبحيرات وآبار منتشرة في كل مكان، تضرب في أرض الواحة بسحرها، صافية رائقة تأسر العيون وتخلب الألباب.

كانت أطياف السعادة تسبح في السماء المزهرّة بسحب منثورة فوق شلال سماوي أزرق، عروس مُتوجة فوق أرض الواحة, تنافس عيون المياه في رُوائها

ووضاءتها. كل هذا السحر تحتضنه الصحراء الغربية القاحلة، وتفصله عن العالم كلؤلؤة بتباهٍ تتوسط صدفتها.

استمعت بانتباه شديد إلى الدليل يشرح خريطة الواحة، حيث ضمت عدة قرى حملت أسماء: خميسة، المراقي، أغورمي، بهي الدين، قريشيت، أبو شروف، الزيتون، الجارة، أم الصغير.

حدثهم عن تتويج الأسكندر الأكبر في قاعة عظيمة بالواحة، وعن حمام كليوباترا الشهير، الذي وصفه المؤرخ اليوناني هيرودوت بعين الشمس، وعن الحمامات العلاجية من المياه ومن الرمال أيضًا؛ وهذا ما أثار دهشة "وعد" التي لم تسمع من قبل عن هذا النوع من العلاج. أخبرهم الدليل أن لأهل الواحة طريقة معروفة في علاج الروماتيزم والروماتايد والتهاب المفاصل، متوارثة عن الأجداد منذ أكثر من مائتي عام، بدفن الجسم كله في الرمال الساخنة ما عدا الرأس، وتستمر رحلة العلاج من ثلاثة إلى تسعة أيام أو أكثر حسب الحالة.

خاطبت أذنها لأول مرة أسماء المناطق السياحية في سيوة، كجبل الدكرور وجبل الموتى ومعبد آمون ومدينة شالي، وبئر "كيغار".. فأثارت تلك الأسماء بداخلها الفضول لرؤيتها ومعرفة تاريخها وسبب شهرتها.

توقفت الحافلة أمام الفندق، فانبهرت "وعد" بروعته الكامنة في بساطته. كان بسيطًا إلى حد مذهل، يتميز بطابع أثري يضفي الرهبة في النفوس. انتظروا في الردهة ريثما تسلم قائد المجموعة مفاتيح الغرف، وأعطى لكل اثنين مفتاحًا؛ وبما أنها و"سهام" الفتاتان الوحيدتان في الطاقم فقد تشاركتا في غرفة واحدة، وكان الجوع والتعب قد بلغ منهما مبلغًا، فطلبتا وجبتيهما في الغرفة، وما إن التهمتاها حتى تسطحت كل منهما فوق فراشها تغط في نوم عميق.

خَلَت ليلة "وعد" من الأحلام والكوابيس التي لازمتها طيلة الفترة الماضية، فاستيقظت صباح اليوم التالي بنفس صافية ووجه بشوش. وخرجت إلى أفراد طاقم القافلة في ردهة الفندق ومنه إلى مقرهم الذي سيضم اجتماعاتهم ونقطة انطلاقهم في مخططهم لهذا الأسبوع. كان مكانًا بدائيًا نظيفًا، تشابه معماره ببنيان الفندق وكل البيوت التى رأتها "وعد" في طريقها إليه، لها شكل جذاب وكأنها بنيت من الرمال، كما نلهو ببناء بيوت صغيرة على شط البحر. دفعها فضولها إلى أن تسأل الدليل الذي يصاحبهم عن ذلك، فأجاب:

- البيوت والبنوك والمستشفيات والمحلات التجارية وكل حاجة هنا في سيوة مبنية بتراث معماري مميز للواحة.. قليل هنا البيوت المبنية بالطوب والأسمنت.. هنا بيستخدموا في البناء مواد من الطبيعة وهي الإغطين والكِرشاف.. الكِرشاف ده خليط من الطين والملح اللي بياخدوه من حواف البحيرات وبيخمروه وبعدين بيلزقوا بيه الطَفلة.

أومأت "وعد" برأسها تفهمًا وإعجابًا، فأردف الدليل وهو يتبعها إلى داخل المقر:

- بس الناس بدءوا يستخدموا الطوب والأسمنت خصوصًا الوافدين اللي ما يهمهمش الحفاظ على التراث المعماري اللي بتتميز بيه واحة سيوة عن أي مكان تاني في مصر.. وفي العالم كله.

مزح معها أحد زملائها قائلًا:

- شكلك يا دكتورة معجبة قوي بسيوة؟

أجابت "وعد" بغلظة أدهشت زميلها:

- أيوة وايه المشكلة؟

أشاح بوجهه عنها بضيق، وهو يميل على أذن زميله هامسًا:

- جابوها منين دي.. قالبة خلقتها من ساعة ما ركبت الباص وراسمة نفسها على ايه؟

- سيبك منها وانت مالك ومالها؟

- ماليش يا سيدي بس يعني تخف شوية.. طالعة فيها على ايه؟

- عرفت انها دكتورة مهمة قوي في المركز اللي بتشتغل فيه .

- على نفسها مش علينا!

****

حضر لتحيتهم عمدة واحة سيوة، وأعرب عن سعادته باهتمام المنظمة بالواحة وأهلها، وشكر طاقم القافلة وأثنى عليهم ووعدهم بتذليل الصعاب لهم طول فترة مكوثهم، إن واجههم شيء منها.كان جدول اليوم الأول هو الاجتماع بالمدرسين والمدرسات، لتعريفهم بالتوحد وغيره من الإعاقات التي تُلحق الطفل بتعريف الأطفال من ذوي الاحتياجات الخاصة، وكيفية التشخيص وطرق التعامل.

كانت الندوة مثمرة، وأظهر المعلمين قدرًا كبيرًا من الاهتمام والإنصات والرغبة في المعرفة، مما شجع أفراد الطاقم على عرض كل ما لديهم من معلومات بحماسة، بعد تقسيم المعلمين إلى مجموعات، وتولى كل فرد من طاقم القافلة مجموعة يعمل على مدها بالمعلومات المصحوبة بكتيبات ووسائل إيضاح حديثة.

وقبل نهاية اليوم، الذي تخلله وجبتان شهيتان قدمتا إليهم من بيت العمدة، تفرَّق الطاقم، فمنهم من عاد إلى الفندق ومنهم من أخذ يجول بالواحة

للتعرف على ملامحها ليلًا. صاحبت "سهام" زميلها الذي كانت تتحدث إليه في الطريق، ليستكشفا معًا المزارات الأثرية بالواحة. أما "وعد" فقد ظلت تتمنى لو أحضرت ألوانها معها من الفندق، ثم ما لبثت أن حولت الأمنية إلى حقيقة، بعدما فشلت في السيطرة على الأصوات التي تنبعث بداخلها تحثها على أن تختطف هذا الإبداع إلى إحدى لوحاتها، فعادت إلى الفندق لتحضرها.

تخيَّرت مشهدًا بسيطًا، لا هو مَعْلم أثري ولا مكان مشهور، ولكنه استهواها، فجلست على الرصيف، وضعت اللوحة على الأرض، ومالت فوقها تنقل بصرها بينها وبين بيت بسيط من طابق واحد تَزيَّن فناؤه بنخلتين حبلاوين بالتمر الشهي.

بسيطٌ هو الليل هنا، لكنه بدا في عينيها خلابًا بتلك النجوم التى تسبح في سمائه كبحر نثر لآلئه، نجوم لم ترها من قبل متوقدة في سماء القاهرة بتلك الغمْرة،كأنها نظم في عقد ألماس انفصم جمعها فتبذَّر في سماء الدُجى.

انفصلت تمامًا عما حولها، لا تتكلم لا تسمع، لا ترى سوى لوحتها وألوانها والمشهد الذي تحاكيه. في تلك اللحظات تنسى كل شيء لا تريد أن تتذكره، وتُبحر في سماء الإبداع تاركة لأمواجه حرية العبث بأناملها. لذلك، لم تنتبه لنعاس الشارع متثائبًا، فأطلقت شهقة صغيرة, ثم ضمت شفتيها بزفرة عندما اكتشفت أن الوقت تعدى منتصف الليل بثلث ساعة. نهضت تنفض ملابسها مما علق بها من تراب الرصيف، حملت أدواتها، ثم سارت في الشارع الهادئ دومًا، حتى إنها لم تنتبه لتغير في حركة السير تنبئ بتأخر الوقت، وصوت لهاثها يخترق سكون الليل وهي تسرع إلى الفندق. توقفت فجأة، وقد كادت تصطدم برجل خرج مندفعًا من شارع جانبي أرادت ولوجه، ثم همت بأن تُكمل السير، إلا أنه أوقفها وهو يمس كتفها بيده قائلًا:

-hi,you speak English ?

احتارت "وعد"، أتجيبه نفيًا أم إيجابًا. نظرت إلى وجهه ذي البشرة البيضاء، التي تختلف كلية عن البشرة السمراء المميزة لأهل الواحة، وقالت أخيرًا:

- yes

- well, my friend left,when I was sleeping and I don't wanna be alone

هتفت بحدة:

- وأنا أعملك ايه يعني!

ثم قالت بالإنجليزية وهي تهم بالانصراف:

- -I's not my problem

أوقفها مرة أخرى بمس كتفها، فنظرت إليه بحدة، ولم تكد تفتح فمها لتتحدث، حتى شنَّف سمعها من خلفها صوت ذكوري:

- في حاجة؟

اصطدمت عيناها بالبرق! توقف قلبها عن عمله لثانية واحدة، ثم عاد ليخفق بجنون. لم تر من قبل برقًا في عيني إنسان، ولم يخطر ببالها أن يترك البرق السماء يومًا ليسكن عيونًا بشرية. طرفت رموشها عدة مرات لتتأكد من حقيقة ما تراه، نعم إنه البرق.. بقوته وحدته وبريقه الذي يخطف الأبصار.

ثم أتبعه الرعد الذي ارتعدت له أوصالها:

- انتي مصرية؟

أومأت برأسها ببطء، فلمع البرق على وجه السائح تتبعه كلمات رعدية باللغة الإنجليزية، بسرعة لم تستطع معها أن تفهم ما يقول، لكن السائح همهم معتذرًا، ثم دار على عقبيه مغادرًا، تتابعه نظرات "وعد". تُرى هل أخافه الرجل الذي يبرق ويرعد فولى هاربًا؟!

التفتت مرة أخرى تنظر إلى الرجل.. الذي أولاها ظهره ورحل مُغلفًا بظلمة الليل وسكونه!

****

في اليوم الثاني، سُمح لمن أراد من أهل الواحة حضور الندوة، لم يسع المكان للعدد الذي جاء، فخرجوا إلى الفسحة بالخارج وافترشوا الأرض، وانعقدت الندوة في الهواء الطلق. وكما الأمس، أرسل عمدة الواحة الطعام إلى أفراد الطاقم، مما أثار انتباه "وعد" إلى كرم الناس هاهنا، وحسن ترحيبهم بالضيوف. حتى أهل الواحة الذين حضروا الندوة، أحسنوا الترحيب بهم وأسهبوا في توجيه عبارات الشكر والامتنان لهم.

شعرت "وعد" بتميز أهل الواحة عن غيرهم، ووجدت فيهم بساطة وتلقائية وفطرة سليمة لم تتلوث. وجهت إليهم الكثير من الأسئلة عنهم وطبيعة حياتهم، وعرفت أنهم متمسكون بعاداتهم وتقاليدهم بشدة. هنا المرأة لها وضع خاص، فهم ينظرون إليها كجوهرة غالية يجب أن تُحمى وتُصان. علمت أن المرأة في سيوة تغطي كل بدنها ولا يظهر منها شيء حتى عينيها، ولهن لباس مميز واسع فضفاض، أغلبه من اللون الرمادي والأسود، وبعض النساء تكشف وجهها وترتدي عباءة واسعة لا تحدد في جسدها مفاتنه، وتسدل من فوق رأسها إلى كتفيها وظهرها ملاءة مميزة لبنات الواحة، تحمل عدة ألوان متداخلة مستوحاة من لون السماء وقت الغروب.

كانت لهم وجوه طليقة بشوشة خاصة مع الغرباء. أخبرتها إحدى السيدات أن المرأة السيوية لا يستطيع السياح الاقتراب منها، فهم يعلمون أن رجال الواحة لا يقبلون أن يقوم أحدهم بتصوير نسائهم، ومن يفعل يدفعون به إلى مجلس عرفي ويوقعون عليه غرامة، لذلك لا تتعرض المرأة ذات المظهر السيوي المميز لمضايقات قط، ولا يجرؤ رجل، سائحًا كان أم محليًا، على الاقتراب منها. علمت "وعد" أن النساء عندما يتوجهن إلى أحد عيون المياه فإنهن يعلقن على أحد أشجار النخيل قطعة من ملابسهن دليل على وجودهن فلا يقترب رجل من المكان حتى يغادرن.

علمت أيضًا أن النساء المتزوجات لسن مطالبات بالعمل، يتكفَّل الرجل السيوي بتوفير متطلبات الحياة لزوجته وأطفاله، تعمل الفتيات ومن تضطرهن ظروفهن من النساء المتزوجات في الحِرَف اليدوية فينتجن الكِلِيم والسلال والمقاطف المميزة والتي يتهافت عليها السياح. يعملن أيضًا في مصانع المياه والتمور والزيتون وما أكثرهم في سيوة التي تتميز بوجود عيون وآبار المياه الصحية وأغلى سلالات التمور وأنقى أنواع الزيتون. يعمل بعضهن في التدريس للأطفال وفي الجمعيات الخيرية والعلاج الطبيعي وتحفيظ القرآن وفصول محو الأمِّية وتربية المواشي والدواجن وصناعة الفضة ومشغولات الزينة.

دعتها إحداهن إلى بيتها.. كانت امرأة أربعينية تعيش بمفردها بعد موت زوجها، قدمت نفسها إلى "وعد" باسم "مُباركة". أحبت "وعد" وأرادت إكرامها هي و"سهام"، التي اعتذرت عن الذهاب، بينما لبت "وعد" الدعوة بشغف. استقبلها بيت مفروش بالحصير، له نفس الطابع المعماري الذي فتنها وأثاث بسيط. رحَّبت بها "مُباركة" وهشَّت وبشَّت، جلستا فوق وسائد أرضية، وقدمت إليها صحنًا كبيرًا مليئًا بالتمر، فتصاعدت منها همهمات التلذذ وهي

تلوك في فمها التمر الذي لم تذق يومًا مثله. راقبت "مُباركة" وجهها بابتسامة فرحة وهي تقول بفخر:

- تمر سيوي.. أتحداكي لو دوقتي حاجة في طعامته.

أكدت "وعد" كلامها وهي تلتقط واحدة أخرى من الصحن، وتصوب بصرها تجاه كِليم مُعلق فوق الحائط، وقد ازدان بعدة ألوان شَكَّلت لوحة جميلة لأحد المباني، التي بدت لها وكأنها أطلال لقصر كبير؛ فتابعت "مباركة" نظرات "وعد" إلى اللوحة ثم قالت مبتسمة:

- دي مدينة شالي.

- سمعت الدليل بيقول اسمها.. بس هي اتهدت ليه؟

قصت عليها المرأة التي تفخر بتاريخها، تسمعها "وعد" بإنصات ولازالت تتلذذ بأكل التمر:

- الأول لازم تعرفي اتبنت ازاي وليه.. اللي بناها أمازيغ سيوة اللي أصلهم من بربر شمال افريقيا. القبيلة دي -اللي اسمها "الشاوية"- الجفاف أصاب أرضهم فهاجروا مع قوافل التجارة اللي كانت بتروح شبه الجزيرة العربية وبتمر بواحة سيوة.. لقوا في الواحة مية ومرعى فسكنوها.. لكن القبائل البدوية اللي حواليهم كانت كل شوية تتهجم عليهم وتسرقهم، ففكروا انهم يبنوا قلعة كبيرة تحميهم. اختاروا جبل شالي اللى اسمه بالأمازيغي "جبا أدارشال".. جبل عالي ويقدروا يراقبوا منه الرايح والجاي.. بنوا عليه حصن كبير أربع أدوار لكل طبقة منهم دور، وسموه مدينة شالي..

توقفت "مُباركة" عن الكلام، لتروي ظمأ جوفها من إحدى القلل الفخارية، بينما شردت "وعد" تتمنى لو كان بإمكانها أن تبني حول نفسها قلعة مُحصنة،

كما فعل أمازيغ مصر، تحميها من هجمات غزاة كادوا أن يدمروا حياتها.. تحتمي بداخلها من البشر جميعًا.

قاطعت "مُباركة" شرودها بحماس، دون أن تنتبه لنظرات الحزن في عيني "وعد" السابحتين في فضاء البيت:

- عملوا شوارع ضيقة جدًا في المدينة، عشان لو هجم البدو عليهم يدخلوا واحد واحد مش مجموعة فيقدروا يصدوهم.. وعملوا للقلعة دي باب اسمه باب المدينة وبالأمازيغي اسمه "البابنشال" بيتقفل عليهم وقت الغروب، ويتفتح مع شروق الشمس. ولأن الأمازيغ بيقبلوا الجيرة وبيحسنوا العشرة، رحبوا بقبائل البدو المسالمة اللي طلبت انها تعيش معاهم في القلعة وفضلوا عايشين مع بعض فترة طويلة، وعشان كده اختلطت اللغة الأمازيغية بالعربية وبقى لأمازيغ سيوة المصرية لهجة مميزة. واختاروا من بينهم أمير، وكوِّنوا 7 قبائل، وهي نفس ال 7 قبائل اللي موجودة في سيوة دلوقتي.

وبفخر قالت "مُباركة":

- أصل جدودنا أمازيغي بس احنا مصريين زيكوا تمام.. وبنعشق البلد اللي عايشين على ترابها.. الواحة جزء مننا.. واحنا روح الواحة.

ثم أردفت بجملة بلغتها الأمازيغية، فعقدت "وعد" جبينها حائرة لا تفهم ما تقوله، فضحكت قائلة:

- صعب تفهميها.. ما بيتكلمش بيها في العالم كله إلا أهل الواحة، بنتكلم بيها مع بعض لكن مع الغريب بنتكلم مصري عادي.. في أمازيغ في الجزائر وليبيا وتونس وبلاد كتير بيتكلموا أمازيغي، بس لهجتنا السيوية ماحدش بيتكلم بيها غيرنا.. واحنا كمان ما بنقدرش نفهم لهجتهم رغم انها لغة واحدة.

- وبتكتبوها على ورق؟

- لأ.. اللهجة السيوية بتتنطق بس.. لكن أسمع ان اللغة نفسها لها حروف اسمها حروف التيفيناغ.

أعادت "وعد" نطق الكلمة تجربها بين شفتيها

- طيب يعني ايه أمازيغي؟

فبادرتها "مُباركة" باعتزاز:

- يعني الرجل الحر.

****

لم يكد يمر اليوم الثالث، حتى أيقنت أنها ذابت عشقًا في سيوة المصرية. كل شيء هنا له سحر مميز وجاذبية خاصة، يلهم روحها ويجعلها تسمو وتطفو فوق الوجود. شعرت في الواحة كما لو أنها تحررت من كل قيود الحياة الصاخبة اللاهثة الجشعة التي تقاسيها في القاهرة.. هنا توقف بها الزمن، هنا البساطة والأصالة والشاعرية والجمال، عشقت وجوه أهلها وتغزلت بجمال طبيعتها، ودت لو نُسجت جسدًا وروحًا مع هذا السحر وأصبحت جزءًا منه، تعيش به ويعيش فيها.. وبدأت تقرأ كل ما تقع عليه عيناها عن سيوة المصرية، بآثارها وعادات أهلها وتقاليدهم.

اكتشفت "وعد" أن بعض أهل الواحة يعتقدون في السحر والتنجيم والخرافات، ويعلقون التمائم والتعاويذ، حيث لها أثر كبير في سير حياتهم، حسب معتقداتهم فيها. يعتقد القليل منهم أيضًا بوجود عفاريت تسكن باطن الأرض وفوهات الينابيع وعيون المياه والآبار والأماكن المجهورة. علمت باعتقاد قديم لديهم فتروا عنه الآن، إذ كانوا قديمًا ينعتون المرأة المتوفى عنها زوجها بـ "الغولة"، تختفي في بيتها بعد دفن زوجها لمدة أربعين يومًا لا ترى أحدًا ولا يراها، اعتقادًا منهم أنها إن وقع نظرها على أحدهم فسيلحق به الضرر.

كلما تعرف معلومة تشتاق إلى أخرى، فكانت تقضي يومها بعد انتهاء العمل في التحدث إلى نساء الواحة أو التنزه في شوارعها.

فوجئت "وعد" بأمانة أهل الواحة، هاهنا تُترك صناديق التبرعات داخل المساجد مفتوحة، ولا يجرؤ رجل مهما كان على أن يسرق منها!.. هاهنا تُترك المحال مفتوحة والبضائع في الطرقات، لا يخاف التاجر على بضاعته من السرقة، ولا يخاف مالك من التعدي على أراضيه!.. هاهنا لم تحدث جريمة قتل منذ عشرات السنوات، ومعدل الجريمة صفرًا داخل أقسام الشرطة، إذ أن أي مشكلة كبيرة كانت أم صغيرة يتم حلها عن طريق المجالس العرفية لأكابر الواحة, فلا تتدخل الشرطة إلا في حالة فشل المجالس العرفية وهذا شبه مستحيل فالقوانين العرفية تطبق على الكل الكبير قبل الصغير، القوي قبل الضعيف، الغني قبل الفقير!

استيقظت مع إشراقة اليوم الرابع وكل قطرة دماء في عروقها تهتف بها ألا تحرمها هواء الواحة أبدًا.

****

من اليوم الرابع للسابع، انتشر أفراد القافلة في قرى الواحة، يعقدون الندوات ويلتقون بالأطفال الذين يعانون من مشاكل في التعلُّم، يوجهون النصائح للأهل والمعلمين والمربين.

هاتفت "دنيا" قائلة بسعادة:

- المكان هنا جنة يا "دنيا" هتحبيه قوي.. كلها كام شهر وتخرجي ونيجي هنا سوا.

بصوت أثار في نفسها المخاوف قالت "دنيا":

- أنا خايفة أخرج من هنا يا "وعد".. مش هاقدر أعيش مع الناس اللي بره.. كل ما اليوم ده بيقرب باحس بالرعب.

- "دنيا" ماتقوليش كده.. لما هتخرجي هتحسي بفرحة كبيرة صدقيني.

- خايفة يا "وعد".

- ماتخافيش وأنا معاكِ.. أنا مستنية اليوم ده من سنين.. الوحدة وحشة قوي يا "دنيا".. قوي.

كان يومًا عصيبًا على "وعد" وهي تلملم أغراضها في الحقيبة استعدادًا لسفرها عصر اليوم التالي. منحوا أنفسهم نصف يوم أخير لتشبع أعينهم من جمال الواحة، توجهوا جميعًا إلى بيت العمدة الذي أصر على أن يتناولوا وجبة الفطور عنده في صبيحة يوم سفرهم، فأرادت "وعد" أن تهديه إحدى لوحاتها تعبيرًا عن امتنانها بحسن ضيافته. كانت أفضل لوحاتها تلك التي انتهت من رسمها حديثًا ولا تزال ألوانها لزجة قليلاً، لأشجار الزيتون والنخيل، حاولت أن تحاكي فيها روعة وسحر اللون الأخضر المميز للواحة. حاولت أن تختار لوحة غيرها، إلا أنها لم ترض بسواها كهدية له، فحملتها ووضعتها في المقعد المجاور لها في الحافلة مكشوفة، علَّها تجف قبل وصولهم إلى بيته. وفي الوقت الذي التفتت لتتحدث إلى "سهام"، انحرف السائق بالحافلة لتفادي قطة صغيرة، فارتطمت "وعد" باللوحة بغير قصد.

دق قلبها هلعًا، وانبثقت فجأة من ذاكرتها كلمات ترددت بقوة داخل رأسها، ظنت خطأ أنها دُفنت فيه للأبد: نهايتك مرسومة بالدم.....

عادت الحافلة إلى سيرها الهادئ، ورويدًا حاولت السيطرة على دقات قلبها وهي تتنفس بعمق وتحاول أن تصرف ذهنها عن تلك الذكرى المخيفة بتفحص آثار ارتطامها باللوحة، لتجدها وقد خفت ألوانها في بعض المواضع لتتلطخ

مواضع أخرى، فشتمت نفسها لغبائها في اختيار لوحة لم تجف بعد حتى وإن كانت أفضل ما رسمت.

بعدما انتهوا من وجبة الفطور، أعلن عمدة الواحة عن رغبته في أن يطيل طاقم القافلة مكوثهم في الواحة لثلاثة أيام هي مدة "عيد الصلح" المعروف في سيوة، والذي يبدأ من الغد ويستمر لثلاثة أيام. شرح لهم العمدة أنه سمي بـ "عيد الصلح" لسبب يرجع إلى أكثر من 160 عامًا، حيث نشبت المعارك بين قبيلتين في سيوة، حتى قدِم أحد العارفين بالله وأراد الإصلاح بينهما، فجمعهما عند سفح جبل الدكرور عند اكتمال القمر، وعقد مجلسًا كبيرًا للصلح حضره كل أهل الواحة، ذبحوا الذبائح وأطعموا الطعام بإعداد وليمة كبيرة، والسيويُّون لا يغدرون بمن أكلوا معه في صحن واحد.

فصار هذا ديدن أهل الواحة، يجتمعون في ليالي اكتمال القمر في شهر أكتوبر كل عام، ويعقدون وليمة كبيرة من "الفتة" واللحم لكل أهل الواحة الصغير قبل الكبير، وفي المساء يقيمون الاحتفالات.

وأخبرهم أن أسماء تتعدد لهذا الاحتفال فمنهن من يسميه "عيد الحصاد"؛ لأنه يتم بعد انتهاء أهل الواحة من موسم حصاد أراضيهم، أو "عيد السياحة"؛ لأنه وفي السنوات الأخيرة جذب هذا الاحتفال أنظار السياح فأحبوا هذه المراسم واستمتعوا بحضورها.

لم يحتج العمدة لطول إلحاح، فقد وافق أفراد الطاقم جميعًا. ثم استأذنت "وعد" للتنزة بين جنبات الواحة، فصحبتها "سهام" التي لم تستطع الاندماج مع النساء في بيت العمدة، ولا مع نساء الواحة بشكل عام، فسذاجتهن تكاد تقتلها مللًا، وهي التي لم تعتد هذا النوع من الحياة. تجولتا بين المزارات و "وعد" يكتنفها الأسى وكأنها تودع صديقًا عزيزًا ستفارقه بعد ثلاثة أيام، لا تدري كيف استطاع سحر الواحة أن يأسرها بهذا الشكل حتى اختفى من

وجدانها أي مكان غيره، وكأنها ولدت بالواحة وعاشت بها وكبرت بين أشجارها ونخيلها ورمل صحرائها.. وكأنه لها وطنًا!

كان المكان الأخير الذي ودت أن تراه هو ما أجمع أهل الواحة أنه أروع العيون المائية، بئر "كيغار". جذبها الاسم اليوناني للبئر منذ أن قرأته في الكتيب الذي أهداه إياها الدليل الذي صحبهم في السفر، والذي احتارت في تفسير معناه أمن "الغيرة" هو؟ أم من "الغور" كان؟ وبعد أن بحثت عن ترجمته بالعربية علمت أن المقطع "كي" يعني "السيد". فشطحت بخيالها تحاول أن تخمن هوية ذاك "السيد غار" الذي سُمي البئر باسمه, وقد عرفت من أهل الواحة أن سبب تسمية البئر بهذا الاسم مجهول.

توجهت إليه برفقة "سهام". إنه بئر ساخن، مياهه كبريتية، وحوافه أشبه بحواف حمام سباحة، إلا أنها مبنية بالكرشاف على الطريقة الأمازيغية، ويدعي أهل الواحة أن لمائه القدرة على علاج الأمراض الروماتزمية والأمراض الجلدية كالصدفية، ويتوسط البئر الرمال محاطًا بالنخيل من كل جانب، تلقي بظلالها على المياه التي بهرت "وعد" بصفائها ونقائها.

- "وعد" خدي صوريني.

قالتها "سهام" بمرح، وهي تمد يدها بكاميرا صغيرة، فتناولتها "وعد" بخفة، والتقطت لها عدة صور بجوار بئر "كيغار" وبين أشجار النخيل في أوضاع كثيرة، حتى اكتفت "سهام" وقالت بحماس وهي تستعيد الكاميرا من يد "وعد":

- تعالي أصورك.

- لا مش عايزة.

أدارت لها "وعد" ظهرها، وتوجهت إلى البئر لتقف أمامه يعلو وجهها الحزن والأسى. وكأن جُل ذكرياتها السيئة احتشدت فجأة داخل رأسها، ظهر الغضب على محياها وهي تتذكر ما قصته عليها "أم مرزوق" من معاملة أبنائها الجافة، متناسين أنها أمهم التي حملت وربت وكبرت، وتتابعت وراءها الذكريات ترسم صورها فوق الماء.

رأت وجه أمها، أتبعه وجه "هايدي"، و"زياد".. الأخصائية "مشيرة".. "هانم".. "دنيا".. "وائل".. "سمير" وعروسه.. ما يكاد يختفي وجه حتى يظهر غيره، مذكرًا إياها بكل ما تريد أن تظلله طي النسيان. ماذا لو بقيت هنا في تلك الجنة، ولم تعد إلى ذلك الجحيم الذي ينتظرها؟ ماذا لو انسلخت من كل ما يربطها بذلك العالم البعيد، الذي تكرهه ولا تريد العودة إليه، ولم تعد تقوى على مواجهته؟ لماذا عليها دائمًا أن تحارب، فقط لتبقى على قيد الحياة؟ ماذا سيحدث لو بقيت في الجنة هنا؟

أخرجها صوت رنين هاتفها من ذكرياتها المجترة وأفكارها المتشابكة، فقطبت جبينها وهي ترى اسم "معلمة الرسم" يحتل منتصف شاشته. عبارات ترحيب عادية تبادلتاها، لكنها شعرت بخوف بارد يدب في أوصالها، وغمرها الترقب وقد ثقل صدرها بوطء مفزع لحديث لم يُحكَ بعد، حتى لم تعد تحتمل العبارات التقليدية بينما قلبها تشتعل به نيران التوجُّس، فسألتها مباشرة عن سبب اتصالها.

وكانت نفحة أخرى من الحمم خرجت من فوهة البركان لتقضي على الأخضر القليل الذي بقي بداخلها.

- "دنيا" ماتت.. انتحرت في العنبر وماقدرناش نلحقها.. عارفة انك كنتي بتحبيها وهي كمان كانت بتحبك فحسيت اني لازم أقولك.. البقاء لله يا "وعد"!

شخصت عيناها واصفر وجهها، حتى اعتراها الشحوب التام وغارت من وجهها الدماء. ضاق نفسها بعدما انحبس الهواء في حلقها، وسقط الهاتف من يدها بغير أن تشعر، التفتت تبحث عن "سهام" بعينيها الذاهلتين، تطلب منها النجدة بصرخات خرساء، فرأتها تلهو بتصوير قط وقف فوق صخرة صغيرة وهو يميل برأسه من جانب لآخر، أرادت أن تناديها فألجم لسانها، ازداد شعورها بالاختناق، تسارعت ضربات قلبها التي تصرخ بحثًا عن قطرات دماء محملة بالأكسجين.. صوتها يأبى الخروج، رئتاها تضربان عن العمل، الرؤية تقل وضوحًا شيئًا فشيئًا.. سحابة بيضاء.. دوار شديد.. ثم

صوت ارتطام قوي!

****

- "وعد".. "وعد".. فوقي يا "وعد"!

باعدت ما بين أجفانها بصعوبة، فرأت وجه "سهام" الذي يعلوه القلق. جلست بمشقة، وهي تشعر بالوهن في كل جسدها، لتكتشف أنها مبللة بالمياه من رأسها إلى أخمص قدميها، فتبادلت مع "سهام" نظرات الدهشة، وقبل أن تتمكن من سؤالها عما حدث، طُرح فوق كتفيها غطاءً صوفيًا جافًا، فالتفتت لتصطدم عيناها مرة أخرى بالبرق!

هذه المرة صعقها، فأصاب جسدها بقشعريرة فشلت في أن تسيطر عليها.

انتبهت إلى المياه التي تقطر من ملابسه، وتتشربها حبات الرمل تحت أقدامه بنهم شاكرة له، بينما يعلو صدره ويهبط ويتسرب من شفتيه صوت لهاث تمامًا كلهاثها!

لم يكن الأمر بحاجة إلى أسئلة، إلا أنها شعرت بتشويش شديد في ذهنها، فالتفتت تسأل "سهام" بصوت مرهق، وهي تضم الغطاء فوق جسدها الذي التصقت به ملابسها المبتلة:

- ايه اللي حصل؟

بخوف حقيقي أجابت "سهام" وهي تزدرد ريقها:

- فجأة ببص عليكِ لقيتك حاطه ايدك على راسك ودايخه وقبل ما أوصلك كنتِ وقعتي في المايه.. قلبي كان هيقف فضلت أصرخ وأصوت لحد ما الأستاذ ده جه وأنقذك.

شيئًا فشيئًا استعادت "وعد" صفاء ذهنها. ترددت كلمات معلمة الرسم في أذنيها وهي تنعي "دنيا"، فتشنج جسدها ببكاء عنيف، ودفنت رأسها بين كفيها. جثت "سهام" على ركبتيها بجوارها وهي تهتف:

- "وعد" خلاص انتي كويسة.. ما تخافيش خلاص ماحصلش حاجة.

لم تزد تلك الكلمات جسد "وعد" إلا تشنجًا، وبكاءها إلا حدة, سمعت حوارًا دائرًا بين "سهام" والرجل الواقف خلفها تداخلت كلماته في رأسها فلم تعيه, تعاونت مع "سهام"، التي أحاطت جسدها بذراعيها تساعدها على النهوض. خافت أن يقترب الرجل منها يعاونها هو الآخر على السير، إلا أنه لم يفعل. سبقهما بعدة خطوات بينما تسيران خلفه ببطء، وكلمات "سهام" المواسية تنساب إلى أذنيها برفق.

انتهت إلى باب السيارة المفتوح، و "سهام" تدفعها إلى الداخل، فالتفتت تنظر إليها باعتراض حجبه تصدُّع قدميها أسفل جسدها. شعرت بالسيارة تتحرك، فأزاحت كفيها لتجد الرجل يقود السيارة بهما، فتوقف بكاؤها لهنيهة والتفتت إلى "سهام" تهتف بها بحدة بصوت مبحوح:

- انتي اتجننتي يا "سهام".. ممكن يخطفنا.

بنفاد صبر همست "سهام"، وهي ترفع عينيها لأعلى ثم تنظر إلى "وعد" بعتاب:

- بالله عليكِ يا "وعد" مش وقت نظريات المؤامرة بتاعتك دي.. بصي لنفسك عاملة ازاي؟

حاولت "وعد" أن تبعد بأناملها تنورتها الملتصقة بساقيها تجسد ملامحهما..تجنبت النظر في مرآة السيارة، حتى لا تقع عيناها على وجهه الذي يبث الخوف فيها.. وتساقطت العبرات فوق وجهها وقد فشلت مرة أخرى في ردعها.

****

كان الليل قد بدأ يسدل أستاره، عندما دست جسدها في فراش غرفتها بالفندق، و"سهام" تتابعها بعينيها وهي تسكب فوق مسامعها كلمات المواساة، تظن أن ما أصابها بسبب فزعها لسقوطها في مياه بئر "كيغار".

لم تفصح "وعد" عن الحقيقة، فقد بلغ منها التعب والإرهاق حدًا كبيرًا، لم تقو معه على الحركة أو الكلام.

- بس كان راجل بجد.. تعرفي انه عمدة قرية من قرى الواحة؟

كان هذا آخر ما سمعته، قبل أن يلم الكرى بجفنيها بلمح البصر!

****

رأت فيما يرى النائم، أنها واقفة أمام بئر كيغار تتطلع فيه مشدوهة، تدفعها قوة خفية إلى أن تنظر في صفحة الماء الساكنة، ونداء خفي يدعوها إلى العودة حيث تنتظرها بئر كيغار بشغف.

تشتاق أن تذهب إليه، بنفس شوق كيغار إليها. خيط سحري يجذبها إليه في تؤدة، لكن بإصرار!

فتحت عينيها بهدوء، تلفتت يمينًا ويسارًا وهي تجاهد آلام جسدها لتجلس فوق الفراش، ولا يزال سحر الحلم يلعب برأسها، حتى ظنت أنها لا تزال في عالم الأحلام. لم تجد "سهام" بالغرفة، فبحثت عن هاتفها في حقيبتها، إلا أنها لم تجده. لم تتذكر سقوطه من يدها ليلة أمس أمام البئر، لذلك ظلت تبحث وتبحث، حتى ظهرت "سهام" فجأة وهي تخرج من الحمام، وتهللت أساريرها قائلة:

- أخيرًا فوقتي.. ده انتي ولا اللي رايحة في غيبوبة؟

ثم اقتربت منها قائلة بحماس:

- زمايلنا كانوا قلقانين عليكِ قوي لما عرفوا.. يلا البسي وظبطي نفسك عشان رايحين الجبل.

خرج صوتها متعبًا خشنًا بطريقة لم تعتدها:

- جبل ايه؟

ضحكت "سهام" بخفة وهي تقول:

- مالك عاملة زي اللي فاقدين الذاكرة كده.. العيد بتاعهم اللى اسمه عيد الصلح.. مش العمدة عزمنا امبارح؟

نظرت إليها "وعد" بدهشة قائلة:

- امبارح؟

- أيوة امبارح.. انتي نمتي يوم كامل يا بنتي.

جلست "وعد" فوق الفراش، بعدما أجهد قدميها الوقوف، ولا يزال خدر النوم يلعب برأسها، الذي تصدع بصداع قاس..

- فعلًا ماحستش بنفسي.. ليه ماحاولتيش تصحيني؟

- يووووه حاولت كتير.. والمرة الوحيدة اللي قمتي فيها دخلتي الحمام وغسلتي وشك ورجعتي نمتي تاني.. سألت زمايلنا قالولي أسيبك أكيد محتاجة للراحة.

ظهر الضيق على وجه "وعد"، وهي تمسح صدغيها بأناملها، علها تخفف من حدة صداعها:

- هو انتي لازم تعرفيهم كل حاجة كده.. مالهم ومال اني نمت ولا صحيت ولا رحت في داهية!

انقلبت قسمات "سهام" من المرح إلى الضيق وهي تهتف بحدة:

- دي غلطتي يعني انتي كنت قلقانة عليكِ؟

- خلاص يا "سهام" مش قادرة أتكلم، الصداع هيفرتك دماغي.

- طيب قومي خدي دش والبسي عشان تيجي معانا.

- لا روحوا انتم.. أنا مش قادرة أتحرك من مكاني.

أكدت كلامها بأن مددت جسدها فوق الفراش، وهي لاتزال تمسح جبينها بقوة وبأعين مغلقة.. كانت تسمع تحركات "سهام" في الغرفة قرابة الساعة، وهي تضع سماعتين في أذنيها وتدندن بكلمات وألحان تسمعها في جوالها، وقبل أن تنصرف مالت على "وعد" قائلة:

- هاجيبلك دوا صداع معايا.. ماشي؟

أومأت "وعد" برأسها وهي لاتزال مغمضة العينين بينما تزداد حدة صداعها. وانطلقت "سهام" مغادرة بعدما ألقت على نفسها نظرة أخيرة في المرآة.

عم الهدوء الغرفة، ففتحت عينيها ببطء، مظللة إياهما بكفها تحجب عنهما حدة ضوء المصباح المعلق في السقف. بدأ النداء رويدًا رويدًا.. في البداية لم يكن واضحًا إلا أنه ارتفع تدريجيًا لدرجة انتبهت لها أذناها.. كلمات غير مفهومة كانت.. صوت لا تعرفه.. نبرات غريبة.. صدى يرج أرجاء المكان.

لا تفهم كيف يُقال.. لكنها تفهم معناه!

نداءات متكررة تدعوها لأن تذهب إلى هناك، حيث كانت بالأمس.. إلى بئر كيغار.. هناك سيتغير ما كان.. وسيُمحى ما فات!

انتفضت جالسة فوق فراشها تحرك رأسها بقوة. تحاول أن تفض عنها ما تسمع، لكن النداء تردد بقوة تزداد حدتها. وقفت تدور حول نفسها، يصدح النداء من كل مكان، من الغرفة، من الفراغ، ومن رأسها..

الليلة بالذات.. عند اكتمال القمر!

اقتربت من النافذة تتأمل الشمس التي ترفع أكفها مودعة، واللون الأحمر يصبغ الأفق. بإرادة مسلوبة تحركت صوب حقيبة ملابسها التي أعدتها لرحيلها بالأمس، ارتدت أول ما وقع بين يديها من ثياب، أفاقت وهي واقفة أمام الفندق تشير بكفها إلى عربة خشبية بحصان (كارو)، وتطلب من قائدها أن يتوجه بها إلى كيغار.

كانت تقبض أصابعها إلى كفها، بقوة تركت أثرًا على باطنهما، سمعت صوت لهاثها مختلطًا بضربات أقدام الحصان فوق الأرض، يثير حوله الغبار تمامًا كما تعبث تلك النداءات بعقلها, حتى توقفت العربة، فنظرت حولها، لتجد أشجارا كثيفة تلف المكان فقالت:

- وديني عند بير كيغار بالظبط.. هو فين مش شايفاه؟

بصوت متهدج متوتر أجاب الرجل:

- لا أنا ما أروحش هناك.

بتوجس سألته:

- ليه؟

صمت، طال صمته، ثم صرح أخيرًا بنفاد صبر:

- البير ده ساكنه عفاريت بتطلع بالليل.

ثم رفع رأسه إلى السماء مردفًا بصوت مضطرب:

- بالذات لما يكون القمر بدر.

تتبعت نظراته إلى حيث قرص القمر يسكن ببراءة جوف السماء، ترجلت من العربة والتفتت له ترجوه أن ينتظرها. قالت إنها ستبحث عن هاتفها وما هي إلا بضع دقائق وتعود. غلبت شهامته خوفه، فوعدها أن ينتظرها.. فقط لعدة دقائق.

سارت بين الأشجار لدقيقة حيث أشار، رأته يتوسط الأرض بنفس براءة القمر، فاقتربت منه حتى لمست حافته. وقفت أمامه تنظر، لا شيء غير مألوف، المياه ساكنة رائقة كما رأتها بالأمس، تلمع تحت أشعة القمر الفضية، وقرص القمر المكتمل تطابق فوق البئر.

نظرت إلى المياه اللامعة بلون الفضة وابتسامة رقيقة على محياها، تجمدت فجأة واختفت، وهي تقرب رأسها أكثر تتطلع بأعين متسعة إلى وسط المياه، حيث عيون بشرية تنظر إليها!

كانت عيونًا حقيقية، تتوسط رأسًا بشعر أشعث، أرسل شعيراته تسبح حوله تحت الماء. تسمرت قدماها بالأرض لا تقوى على الفرار؛ بل إن عقلها عجز عن التفكير فيه.

خيالات الأشجار تتحرك حولها كالأطياف، وصوت حفيف أوراقها يتصاعد كسيمفونية، بدأت بنغمات هادئة، ثم ما لبثت أن أخذتها الحمية فارتفع ضجيجها المفزع.. رجعت خطوة إلى الخلف، فخرج فوق المياه جزء من الرأس الغارق، ولا تزال عيناه مثبتتين في عينيها. ابتعدت خطوة أخرى، فظهرت الرأس كاملة.. لامرأة متسعة العينين بلا أجفان، بلا فم ولا أنف، فقط عينان تتوسطان وجهها الأبيض البض، شعرها أحمر يلمع تحت ضوء القمر، كما لو كان شهبًا من نار.

حاولت أن تحيد بعينيها، لكنها لم تستطع. كانت مشدودة بالنظر إليها، تربط أعينهما خيوط سحرية. استبد بها الذعر، وكادت أن تصاب بنوبة قلبية أو بالجنون، وشعرت بالأرض تميد بها، وأصوات حفيف الشجر تتعالى، وظلال الأشجار تتحرك بطيش بين سيقانها، التي برزت لها أفواه تصدر صوت عويل مجلجل، كأنما يتصاعد من أفواه عصاة يتعذبون في قاع الحجيم.

ارتعدت كل خلية بجسدها وهربت الدماء من أطرافها, تحدثت المرأة ناعتة نفسها بالحورية.. كانت تتحدث بلا فم وبلا صوت.. بلغة لا تكتب ولا تنطق؛ فقط تفهمها "وعد"!

كانت لاتزال تشعر بقدميها متسمرين بالأرض، فنظرت إليهما، لتجد أنها بالفعل مسمرة بها. رأت أيادٍ يحمل كل كف منها إصبعين تنبت من حواف البئر لتمسك بقدميها بشدة.

أخذت تبكي وتصرخ وتطلب النجدة علّ أحد ينقذها، أو يسمعها السائق الذي ينتظرها بالقرب من المكان. وكما صرخت فجأة، سكتت فجأة، عندما تحدثت الحورية مرة أخرى؛ وكأنها لا تستطيع الكلام في حضرتها.

تسربت منها الكلمات بتلك اللغة التي تتسرب إلى نفس "وعد" دون حواس وسيطة تنقلها إليها..

- مقايضة.. ذكرياتك المؤلمة مقابل قربان.

حملقت عينا "وعد" في تلك العيون التي لم يرف لها جفن، وصرخت:

- مش فاهمة.

فتردد الكلام مرة أخرى في أعماقها:

- مقايضة.. ذكرياتك المؤلمة مقابل قربان.

انتفضت وهي ترى أغصان الأشجار تهمس إلى بعضها البعض، ثم تشير إليها بالموافقة. بينما لاتزال أصوات العواء تتصاعد من تلك الأفواه التي تصدعت وانشقت في ساق الأشجار. رفعت رأسها تنظر إلى القمر، فإذا به يتنفس بصوت عالٍ، وقد احمر لونه وأخذ يقطر دمًا أحمر فوق شعر الحورية، التي تستمد بهاء لون شعرها من دماء القمر، ثم شعرت بنسمات باردة تلامسها وترسل القشعريرة في ظهرها، ولا تزال الحورية تنظر إليها وتنتظر جوابًا.

لكنها اختفت فجأة كما برزت فجأة، وظهرت مكانها فوق الماء أمها تصارع الموت, على وجهها تبرز كل معالم الألم وهي تجابه شراسة مرضها، فبكت كما لم تبك من قبل. اقتربت من البئر تمد يدها بلهفة، فاختفت الصورة، لتظهر صورة "دنيا" وهي تخفي سكينًا حادًا خلف ظهرها، وتقترب من رجل يوليها ظهره، وتذبحه كما تذبح الخراف. أطلقت "وعد" صرخة عالية، عندما قربت

"دنيا" السكين من وريدها لتقطع شريانها، فصرخت وهي تحتضن رأسها بكفيها:

- كفاية.

فاختفت الصور بظهور الحورية من تحت الماء، وهي تعيد تلك العبارة الوحيدة التي لم تنطق بغيرها:

- مقايضة.. ذكرياتك المؤلمة مقابل قربان.

ومن بين بكائها وصوت أنينها، الذي اختلط بأنين الشجر وحفيف أوراقه، هزت رأسها إيجابًا، وهي تهتف بصوت مُزلزل وبأعين حمراء كلون القمر:

- خديها.. خديها مقابل اللي انتي عايزاه!

****

استيقظت "سهام" فزعة، على وقع دندنة خفيفة تتردد في الغرفة، نظرت بدهشة إلى "وعد" الجالسة فوق الطاولة الصغيرة، واضعة أمامها مرآة، وهي منهمكة في وضع أحمر للشفاه بينما يتصاعد من بين شفتيها المنفرجتين عزف لحن لأغنية ما.

اعتدلت "سهام"، فانتبهت لها "وعد" ومنحتها ابتسامة واسعة وهي تهتف بمرح:

- صباح الخير.. استوليت على الميك آب بتاعك.

رفعت "سهام" حاجبيها وهي تقترب من الطاولة، وتنظر إلى أغراضها المنثورة فوقها ثم إلى وجه "وعد"، ثم قالت بدهشة حقيقية:

- سبحان مغير الأحوال.. اللي يشوفك النهارده مايشوفش البؤس والكآبة اللي كنتِ فيهم امبارح؟

زامت "وعد" ما بين حاجبيها وهي تنظر إليها بحيرة، ثم انفرجت أساريرها بغتة وهي تقول بمرح لم تعتده "سهام":

- احكيلي حصل ايه في الحفلة بتاعة امبارح؟

جذبت "سهام" المقعد الوحيد الباقي، وجلست فوقه تمط شفتيها وهي تقول بلا مبالاة:

- عادي يعني.. مش حفلة زي ما انتي متصورة.. احنا روحنا بعد ما دبحوا ووزعوا الأكل على أهل الواحة.. وبالليل كل مجموعة كانت مع بعضها، شوية يغنوا وشوية يصلوا.. وشوية يرغوا.. وأي اتنين متخاصمين صالحوهم على بعض.. يعني عادي ماكنش في حاجة مميزة.

ثم أردفت بعتاب بصوت محتد، وهي تعيد ترتيب شعيراتها الشعثاء في عقدة محكمة خلف رأسها:

- وطبعا الستات في حتة والرجالة في حتة.. وفضلت ألف حوالين نفسي مش لاقيه حد أكلمه.

اتسعت ابتسامة "وعد" وهي تقول:

- ليه ده الستات هنا عشرين قوي.

زفرت "سهام" قائلة بحنق:

- آه ورغايين جدًا.. صدعوا دماغي بكلام كتير عن بلدهم وتاريخها لحد ما اتخنقت ومشيت.

ثم بدا وكأنها تذكرت شيئًا، فنظرت إلى "وعد" تسألها بفضول:

- بس انتي روحتي فين امبارح؟

أجابتها "وعد" وهي تنهض وتبحث في حقيبتها عن شيء ما:

- ماخرجتش.

- لأ خرجتي.. لما رجعت ماكنتيش موجودة في الأوضة.

نظرت إليها "وعد" بدهشة قائلة بثقة:

- باقولك ماخرجتش.. كنت نايمة.. تلاقيكِ ماخدتيش بالك

ثم اتجهت إلى فراشها ترفع وسادته، فرمقتها "سهام" بنظرات خبيثة وهي تهمهم بلؤم:

- ماشي.. براحتك ياجميل.

هتفت "وعد" بحنق:

- موبايلي فين؟.. دايخة عليه من الصبح؟

- ماعرفش.. دوري عليه كويس.

- دورت.. هيكون راح فين يعني!

تناولت هاتف "سهام" وأجرت محاولة للاتصال به، إلا أنها قوبلت بالرسالة المسجلة: الهاتف الذي طلبته ربما يكون مغلقًا من فضلك حاول الاتصال في وقت لاحق!

****

على الرغم من الشمس الحادة التي لفحت بؤبؤي عينيها، إلا أنها سارت فوق الرمل الساخن تقترب من مكان تجمع النساء، اللاتي عكفن على طبخ وليمة اليوم الثاني من عيد الصلح.

روائح اللحم والمرق اللذيذة، التي تتصاعد من الأواني العملاقة تعبق الأرجاء، وهن يحيينها بابتسامة وكلمات مرحبة، وهي بتنورتها السوداء وقميصها الرمادي في معزل عن الزي المعتاد للمرأة السيوية، فبدا واضحًا للعيان أنها ليست من بنات الواحة. أحبت أن تشارك معهن العمل، فسمحن لها. تركت لنفسها العنان، وانطلقت بسعادة طفلة صغيرة في يوم العيد، وذهب بها المرح مذهبًا انفتاحيًا، فاقتربت منهن وألفن وجودها بينهن، وعلى الرغم من الجهد الذي بذلته تطوعًا، إلا أن شعور التعب في هذا اليوم كان له مذاقا خاصا محببا غير مألوف.

جلسن في مجموعات فوق الرمال، وفي منتصف كل مجموعة صينية كبيرة محملة بالأرز والخبز والمرق، ووزّع اللحم على كل نساء وبنات الواحة، ثم -بعد الانتهاء من الطعام- أتت الفتيات بالدف، وتغنين بأغانيهن السيوية التراثية.

اقتربت سيدة خمسينية من مجلسها، فهبت الفتاة المجاورة لها على الفور واقفة وهي تقول:

- اتفضلي يا خالة "زمزم".

جلست بجوار "وعد"، وتبادلتا التحية بابتسامة صغيرة، أعقبها ترحيب شفوي من الخالة "زمزم":

- منورة سيوة يا دكتورة.

لم تتعجب "وعد" من أن تكون هويتها معروفة في مجتمع الواحة الصغير، الذي تنتقل فيه الأخبار قبل أن يرف لأحدهم رمش.

- الله يخليكِ.

عادت توجه بصرها إلى المرأة التي تقص عليهن قصصًا مضحكة، عن الأطفال الذين تدرس لهم في المدرسة، لكنها شعرت بالمرأة الجالسة بجوارها تلتفت بجسدها كله إليها وتقول بصوت قوي، غريب على أن يكون صوت امرأة:

- انتو ماشيين بعد العيد ما يخلص، مش كده يا بنتي؟

- أيوة ان شاء الله.

اتسمت ملامحها بالجدية وهي تقول برجاء:

- طيب لو طلبت منك انك تيجي عندي في البيت تشوفي بنت تعبانة.. ترضي؟

علا قسمات "وعد" الاهتمام، والذي ظهر أيضًا في صوتها:

- تعبانة ازاي؟

ظهرت أمارات الخجل جلية على المرأة وهي تُفصح:

- ناس تقول توحد.. وناس تقول تخلف.. والله ما أنا عارفه يا بنتي؟

أومأت "وعد" برأسها تفهمًا، وانتظرت أن تُفصح المرأة عن المزيد، فقالت:

- احنا ياما وديناها لدكاترة كبار في مصر.. لكن حالتها زي ما هي ما بتتحسنش.

ثم أردفت بأسى وفي عينيها نظرات حزن وشجن:

- نفسي تجري وتلعب زي كل العيال.. احنا رضينا باللي ربنا قسمه.. بس بتصعب عليا لما باشوفها قاعدة زي الطوبة في البيت.. لا بتتكلم ولا بتتحرك.

تفهمت "وعد" مشاعر المرأة سريعًا، لخبرتها الطويلة في التعامل مع هذه الحالات، فسألتها بود:

- هي جت معاكِ هنا؟

- لا يا بنتي سبناها في البيت، أصل هي اسم الله عليها بتخاف من الناس ماينفعش أجيبها في مكان زي ده.. دي تسورق على طول.

أومأت "وعد" برأسها مرة أخرى تفهمًا، وبابتسامة سريعة أجابت سؤال المرأة الذي سألتها إياه في بداية الحوار:

- مافيش مشكلة.. خليني أشوفها.

تهللت أسارير المرأة وهي تقول بفرح:

- ان شالله يخليكِ.. والله أول ما شفتك دخلتي قلبي وكنت حاسه انك مش هتكسفيني.. بكرة بإذن ربك الكريم هبعتلك عربية لحد عندك في الفندق وتجيبك للبيت.. وبعد ما تخلصي ترجعك تاني للفندق معززة مكرمة.

قالت "وعد" بوجه طليق:

- مافيش داعي لكل ده.. اديني العنوان وأنا....

قاطعتها المرأة وهي تربت ظهرها:

- لا ازاي ودي تيجي.. ان شالله يخليكِ يا بنتي.

نهضت بتثاقل مستندة إلى عصاها، ثم التفتت إلى "وعد" التي نهضت بدورها:

- زمانها مغلبة "فتون" معاها.. أصلها مابترضاش تاكل إلا من ايدي.. هاستناكِ بكرة الصبحية.

- ان شاء الله!

****

فوجئت "وعد" أن الصباح الذي قصدته الخالة "زمزم" يعني الساعة الثامنة، وهي التي كانت تُمني نفسها بالنوم حتى قرب الظهيرة. باتصال من مكتب الاستقبال بالفندق، علمت أن السائق بانتظارها في الأسفل، فأخذت ترتدي ملابسها في عُجالة. نصف ساعة وكانت تخرج من بهو الفندق، وتتجه صوب الرجل الذي يرتدي جلبابًا أبيض كعادة الرجال في الواحة، ويقف أمام سيارة متواضعة، قالت بابتسامة صغيرة:

- صباح الخير.. معلش اتأخرت.. حضرتك اللي جاي تاخدني عند خالة "زمزم" مش كده؟

بأدب شديد أومأ الرجل برأسه وهو يقول:

- أيوة يا دكتورة اتفضلي.

فتحت الباب بجوار السائق، والتف هو ليجلس خلف المقود وانطلق بها. بعد فترة، انتبهت "وعد" إلى غياب الأشجار عن الطريق.. فقط صحراء جرداء، فالتفتت تقول له باستغراب:

- مش ده الطريق؟

- لا هو يا دكتورة.

- لا مش هو.. انت كده خرجت من سيوة!

قال الرجل مؤكداَ:

- أيوة خرجت من سيوة.. خالة "زمزم" قالتلي أوصلك عندها في بيت العمدة.

رفعت "وعد" حاجبيها دهشة وهي تقول:

- بيت العمدة!.. بس بيت العمدة أنا روحته قبل كده وكان في سيوة نفسها.

- احنا مش رايحين لبيت عمدة سيوة يا دكتورة.. خالة "زمزم" تبقى عمة الباشمهندس "رؤوف" عمدة قرية "أبو شروف".

لامت نفسها بشدة. كيف وافقت بالأمس على الذهاب إلى بيت امرأة مجهولة، لا تعرف أصلها وفصلها، وأن يصطحبها السائق الذي تعرفه إلى مكان تجهله! كانت تظن بيت المرأة في سيوة، بل كانت تظنها إحدى نساء الواحة وليست عمة عمدة من عمد الواحة، فلم يبد عليها بالأمس أنها مميزة بينهن.

بعد نصف ساعة، توقف السائق أمام سور على الطراز الأمازيغي تتوسطه بوابة كبيرة، ثم قال:

- وصلنا.. حمدالله على السلامة.. ادخلي بنفسك لأن ممنوع الرجال تدخل إلا في وجود الباشمهندس "رؤوف".

ترجلت "وعد" من السيارة بحذر وهي وتتأمل ما حولها من أشجار الزيتون والنخيل، تماما كما هو الحال في سيوة. ظنت أن البوابة مغلقة، لكنها انفتحت ما إن مستها، فدفعتها أكثر حتى يسع الفراغ جسدها النحيل. سارت في ممر عريض وهي تنظر بإعجاب إلى أشجار التين على كلا جانبيها، حتى وصلت إلى بيت كرشيفي من طابقين، وصل أذنيها صوت الخالة "زمزم" القوي يرحب بها وهي مقبلة تجاهها تستند على عصاها:

- أزول.. أزول.. اتفضلي يا بنتي.

كانت "وعد" قد تعلمت التحية باللغة الأمازيغية، فبادلتها إياها ودلفت معها إلى الداخل، الذي كان بنفس بساطة البيوت السيوية التي دخلتها، لا يميزه شيء كبيت لعمدة القرية، وفوق الطاولة كان الطعام الذي دعتها إليه خالة "زمزم" بإلحاح، فاستجابت "وعد"، خاصة أنها لم تكن قد تناولت وجبة الفطور. شرحت لها الخالة "زمزم" وهي تشير إلى أحد الأطباق:

- ده اسمه التاجلانتين هيعجبك قوي.. أكله مشهورة عندنا في سيوة.

نظرت "وعد" بفضول إلى مكونات الطبق، الذي اختلطت فيه العجوة بعجينة الدقيق، وفي المنتصف حفرة نصب فيها السمن البلدي، وطبق آخر استبدل فيه السمن بزيت الزيتون البكر -لو كانت قد تذوقت العصيدة يومًا، لشبهت التاجلانتين بها- تجاوره أطباق العسل الأسود والعسل الأبيض والجبن الأبيض، والخبز السيوي الذي تصنعه المرأة السيوية بيديها، وتدور هنا وهناك فتاة صغيرة، تخدِّم عليها وتناديها الخالة "زمزم" باسم "فتون". تناولت طعامها بنهم تتحدث مع الخالة عما رأته في الواحة، وما تركته الواحة فيها من أثر، ولمعت عيناها أثناء الحديث عن المزارات التي شاهدتها، فاستقبلت الخالة "زمزم" حديثها بابتسامة دافئة. خجلت "وعد" لطول حديثها، والذي أنساها السبب الذي قدمت من أجله. فتنحنحت وهي تمسح يديها بمنديل ورقي جذبته من حقيبتها:

- الحمد لله.. تسلم ايدك يا خالة "زمزم".. هي فين البنت اللي كلمتيني عنها؟

نادت على الخادمة "فتون"، لتصحب "وعد" إلى المغسلة لتغسل يديها، ريثما تصعد الطابق الثاني لتحضر الطفلة.

عادت "وعد" واستقرت فوق أريكة لها ألوان زاهية متداخلة، موضوع أمامها طاولة قصيرة مزينة بخيوط الصوف الحمراء من جميع الاتجاهات. الشرفة الكبيرة أمامها أطلت على زاوية من الحديقة المحيطة بالبيت، رأت فيها أشجارًا حُبلى بالفاكهة الشهية. كان للهدوء وقع طيب في نفسها، ودت معه أن تتأخر الخالة "زمزم" لتنعم به أكثر.

سمعت وقع خطوات على الدرج، فالتفتت لتجد الخالة "زمزم" مستندة على عصاها، وتختفي خلف جلبابها طفلة صغيرة لم تر منها سوى طرف فستانها الأحمر، الذي تلعب به الرياح القادمة من النافذة الكبيرة. رمتها الخالة "زمزم"

بنظرة معتذرة مقدمًا عما ستبذله من جهد من أجل هذه الصغيرة، التي لا تزال تخفي نفسها في رداء الخالة.

بصوت حنون مرح قالت "وعد":

- ايه الفستان الحلو ده.. مين دي اللي مستخبية وراكِ يا خالة "زمزم"؟

قالت الخالة وهي تمسح على ظهر الطفلة:

- دي "ريم" يا خالة "وعد" شفتي فستانها حلو ازاي؟

تبادلتا نظرة اتفقتا فيها بغير كلام على إخفاء لقب "وعد" عن الطفلة، حتى لا يثير الخوف بداخلها، وفتحت "وعد" المدرَّبة جيدًا على هذه المواقف حقيبتها وأخرجت لعبة على شكل كتكوت أصفر صغير، وبضغطة على زر خفي أخذ يتغنى بصوته المميز، الذي جذب انتباه الطفلة فحركت وجهها من خلف الخالة، وأطلت بعينين صغيرتين سوداوين على مصدر الصوت، ولايزال باقي وجهها مختفيًا.

استقبلتها ابتسامة "وعد" المشجعة، ورفعت الكتكوت بيدها حتى تتمكن الطفلة من رؤيته بوضوح، فمدت لها "وعد" كفها الآخر وسألتها:

- عايزة تلعبي معاه؟

عادت الطفلة تخفي وجهها بسرعة في رداء الخالة، التي نظرت إلى "وعد" وهي تحرك رأسها بيأس، لكن "وعد" كانت قد امتلأت حماسًا في تلك اللحظة، فتركت الكتكوت فوق الطاولة وقالت بلهجة ودودة:

- أنا جايباه هدية لـ"ريم".. يلا خديه.

- "ريم" اسمعي كلام خالة "وعد".

أوقفتها "وعد" بكفها عن الاسترسال بهذه النبرة القوية، لا تريد أن تُجبر الطفلة على التواصل معها، بل تريد لهذا التواصل أن يتم برغبتها. أشارت للخالة بالجلوس، ففعلت. انزوت الطفلة في حضن الخالة، تخفي رأسها في صدرها، بينما استمرت "وعد" في الكلام مع الخالة متجاهلة "ريم".

بدأت "وعد" تتحدث عن البيت الذي تريد أن تصنعته لإحدى عرائسها.. كيف تريد أن تصنع فرشاة لشعرها، ومرآة تتزين فيها، وسريرا ترقد فوقه، وخزانة ملابس كبيرة تحتوي على عدة فساتين مزركشة ذات ألوان جذابة؛ لكنها فشلت في إيجاد من يساعدها في صنع البيت وملحقاته، وتتمنى أن تساعدها طفلة صغيرة، تأخذ برأيها في شكل البيت وزخارفه.

أرادت "وعد" أن تختبر قدرة الطفلة على الاستيعاب لتقيم حالتها، وكذلك أرادت أن تنفي أو تثبت إصابتها بالتوحد.

فلما أظهرت الطفلة الاهتمام، وامتلأت عيناها شغفًا، وهي تستدير برأسها تتطلع إلى الكتكوت، ثم تنظر إلى "وعد" بنظرة مباشرة في عينيها، تصاعد بداخلها الشعور بالراحة. مضت تشخص حالة الطفلة، وبإشارة خفية طلبت من الخالة أن تمسك بالكتكوت وتعطيه لها، رفضت أن تمد يدها في البداية، فوضعته الخالة بالقرب من كفها، ورويدًا وبلمسات بسيطة كانت تقرب أناملها من الكتكوت وتربت على ظهره بحنان، كما لو كان كتكوتًا حقيقيًا، فاتسعت ابتسامة "وعد" لهذه البداية المبشرة.

أخبرتها الخالة أن الطفلة لها من العمر سبع سنوات إلا أنها تعاني من تأخر كبير في النطق، وإذا أرادت التحدث خرجت منها الكلمات غير مفهومة، بالإضافة إلى خوفها من الآخرين، والذي يمنعها من التواصل معهم، وتبكي كثيرًا، ويثور غضبها بغير سبب. وعندما سألتها "وعد" عن صلتها بالطفلة، أخبرتها أنها عمة والد "ريم"، عمدة هذه القرية، فسألتها عن دور أم الطفلة

معها، فأخبرتها أن أم الطفلة توفيت يوم مولدها. غمرها العطف على الطفلة، وأرادت بقلب مخلص أن تقدم لها يد العون، ولو حتى بتقديم إرشادات للخالة "زمزم" عن كيفية التعامل مع حالتها، لكنها اكتفت بهذا الإنجاز، ووعدت الخالة "زمزم" بزيارة أخرى في الغد، والذي هو اليوم الأخير لها في واحة سيوة.

قبل مغادرة "وعد" مع السائق، قدمت لها الخالة هاتفًا ، فاتسعت عيناها دهشة وهي تتناوله..

- موبايلي!.. لقيتيه فين؟

منحتها الخالة ابتسامة حانية وهي تقول:

- وقع منك لما كنتِ بتزوري بير "كيغار".. "رؤوف" كان هيوديه للفندق، بس لما عرف امبارح اني اتفقت معاكِ تشوفي "ريم" سابهولي أديهولك!

فلم يزدها هذا الرد إلا حيرة!

****

في اليوم التالي، انتظرها السائق في نفس الموعد، وكانت قد اشترت دمية صغيرة من القماش وعدة أقمشة بألوان مبهجة، أخذتها معها وهي في طريقها إلى قرية "أبو شروف"!

طلبت من الخالة "زمزم" إحضار "ريم" إلى الحديقة، بينما جلست هي فوق مقعد خشبي يواجه طاولة صغيرة، ترسم فوق القماش، وتقصه بأشكال مختلفة، لفساتين بحجم الدمية.

جلست "ريم" فوق المقعد المجاور لها وهي تتمسك بيدي الخالة، حيَّتها "وعد" فلم تجب، تجاهلتها بالكلية وأخذت تحيك القماش، وهي تتحدث إلى الخالة وتخبرها بطريقة جذابة كيف تصنع فساتين لدميتها.

انتهت من الفستان الذي -وعلى الرغم من كونه قد صمم وخيط بغير احتراف- جذب نظر الطفلة بألوانه وبخطوات تصميمه التي تابعتها منذ أن كان مجرد قطعة قماش لا شكل لها. ألبست "وعد" الدمية الفستان، ثم توجهت بأنظارها إلى "ريم" تسألها عن رأيها. لم تنطق الطفلة، لكنها أخذت تنظر إلى باقي الأقمشة التي وضعتها "وعد" فوق الطاولة، فسألتها "وعد":

- عندك عروسة؟

أطرقت بصمت للحظات، ثم هزت رأسها إيجابًا ببطء، فسألتها "وعد" بحماس:

- تيجي نعمل لها فستان زي عروستي؟

أومأت برأسها إيجابًا مرة أخرى وعيناها تلمع بحماس لم ينطق به لسانها. نادت الخالة على الخادمة "فتون" لتحضر دمية "ريم" من غرفتها، وعندما أتت حاملة الدمية، تناولتها "ريم" كأنها تتناول رضيعًا، فسعدت "وعد" لهذا التواصل بينها وبين دميتها؛ فإن كانت قادرة على التواصل مع دميتها بهذا الشكل، فهي بالتأكيد قادرة على التواصل معها إن سنحت لها الفرصة وملكت مفاتيح عقد أواصر الصداقة معها.

بعد مرور أكثر من ساعة في صنع الفساتين وتزيينها بقطع من الخرز والأزرار التي أتت لهما بها الخالة "زمزم"، منحت الخالة "وعد" ابتسامة واسعة، قبل أن تنسحب وتتركهما منهمكتان في عملهما. بدأت "وعد" الاتصال الجسدي الأول بينهما بالإمساك بيد الصغيرة ومعاونتها على رسم حدود الفستان فوق

القماش، فلم تجد منها اعتراضًا، بل ظلت محتفظة بهدوئها وعيناها تتابعان نتاج رسمهما في شغف، فزاد ذلك "وعد" ابتهاجًا.

بكت الصغيرة عندما أخطأت في قص أحد الفساتين وأتلفت القماش، فهدأت "وعد" من روعها، وهالها قدر الخوف في عينيها وهي تنظر إليها. تحدثت إليها بحنان، تُفهمها أنهما يلعبان ولا مجال للعقاب في اللعب، ولا بأس من إفساد بعض الأقمشة، إنما تفعلان ذلك للمرح. شعرت "وعد" بخيال على مقربة منهما، فرفعت رأسها لترى رجلًا دلف للتو من البوابة الكبيرة، وتوقف يرمقهما باهتمام شديد.

يقف خلف "ريم" التي لم تره. توترت "وعد" قليلًا وهربت بعينيها، ثم عادت تنظر إليه، يراودها شعور قوي أنها رأت هذا الوجه من قبل. ظنته سيُقْبل تجاههما، لكنه توجه إلى البيت في خطوات سريعة رشيقة. أيكون هو عمدة القرية؟.. راقبته "وعد" متفحصه هندامه المكون من جلباب أبيض وفوقه صديري رمادي اللون، كما يرتدي رجال الواحة لا شيء يميزه عنهم, منذ أن قدمت إلى الواحة لا تميز بين الغني والفقير، فمظهر الكل متقارب إلى حد مدهش.

مرت نصف ساعة أخرى، حاولت فيها "وعد" أن تخرج "ريم" من صمتها، إلا أنها فشلت سوى في الحصول على ابتسامة صغيرة رسمتها شفتان دقيقتان. تأملتها.. كانت جميلة سمراء بشعر أسود غزير، يتوج رأسًا تميزت ملامحه بدقة نحتها. رأت الخالة "زمزم" مقبلة نحوهما، تتبعها "فتون" وهي تحمل صينية كبيرة فوقها أصناف من الطعام. ورغم اعتراض "وعد"، إلا أن الخالة كانت تعد رفض الضيف الأكل في منزلها بمثابة سبة لها، فلم تجد بُدًا من الموافقة. شاركتها الخالة و "ريم" الطعام، بعد أن أزالت "فتون" قصاقيص القماش والخيوط التي تناثرت فوق الطاولة وأسفلها، فنظرت إليها "وعد"

معتذرة عما سببته من فوضى! ثم طلبت الخالة من "فتون" بلطف إحضار كوبين من الشاي السيوي لها و لـ"وعد".

هتفت الخالة بلطف:

- "ريم"، أبوكِ جه.. يلا ادخليله.

رأت وجه "ريم" يتهلل، وهي تتوجه إلى البيت حاملة دميتها والفساتين التي صنعتها لها. وبوجه تعلوه الجدية تحدثت إليها الخالة "زمزم":

- طمنيني يا بنتي؟

بابتسامة مشرقة قالت "وعد":

- ماتقلقيش هي أحسن من أطفال كتير.

- وكلامها المتأخر لحد دلوقتي؟

- لسه محتاجة وقت عشان أحدد أساس المشكلة، وطالما قلتيلي انكم كشفتم عليها ومافيش عندها مشاكل عضوية يبقى ان شاء الله مشكلتها بسيطة، وحقيقي مش عارفة اللي شخّص التوحد ده شخّصه على أي أساس، لأن استجابتها كويسة، وخوفها من الناس الغريبة عنها طبيعي بيحس بيه أطفال كتير.. بالعكس هي تواصلت معايا بسرعة.

قالت الخالة بإصرار ممزوج بالضيق:

- طيب ليه ما بتتكلمش.. ليه مش بتتنطط وتلعب زي باقي العيال؟

بهدوء قالت "وعد":

- بلاش تقارنها بحد.. المقارنة دي مش في صالحها لأن كل طفل له بصمة خاصة بيه.

ثم أردفت بحزن حقيقي:

- للأسف لو ماكنتش مسافرة بكرة كنت تابعت حالتها.

بلهفة وكأنها كانت تعد الكلام مسبقًا هتفت الخالة:

- وليه ما تفضليش معاها لحد ما تتعالج؟

- بس.. شغلي.

- وده برده شغل.. خدي إجازة واعتبري انك في شغل واللي هتؤمري بيه هتاخديه.

- مش حكاية فلوس.. بس..

سارعت الخالة بوضع كفها فوق كف "وعد" وهي تقول برجاء:

- سألتك بالله ما ترفضي.. أنا ماصدقتش نفسي لما لاقتها بتلعب معاكِ.. دي جننتنا لا راضية تروح مدرسة ولا راضية نجيبلها مدرسين هنا في البيت.. هديكِ اللي تطلبيه بس ماتسيبهاش وتمشي.. يمكن يكون شفاها على ايدك.

- صدقيني مشكلتها بسيطة.. هي بس عايزة اللي يقرب منها ويفهمها وياخدها براحه.

- وماحدش غيرك قدر يعمل ده.. هتتخلي عنها؟

لم تكن "عد" في حاجة إلى مزيد إلحاح. ليس فقط من أجل "ريم" التي أحبتها وتمنت أن تخرجها من عزلتها وتسمعها تتحدث كأي طفل آخر، بل لأنها أيضًا لا تتمنى مفارقة الواحة، ولا العودة إلى شقة "دنيا" ولم تشف بعد من صدمة انتحارها، وهاهي حجة قد قدِّمت لها على طبق من ذهب تستبقيها هنا. فلماذا ترفض؟

وافقت بالطبع، وعادت إلى الفندق لتودع "سهام". وفي الصباح أجرت اتصالًا هاتفيًا بالمركز تطلب إجازة بدون راتب، وفي خلال بضعة ساعات كانت في طريقها إلى قرية "أبو شروف" تصطحب حقائبها، التي استقرت على أرضية غرفة صغيرة في الحديقة، تبعد بضعة أمتار عن البيت.

على الرغم من أنها اتخذت هذا القرار بمحض إرادتها، إلا أنها لم تستطع أن تمنع الريبة التي تسللت إلى قلبها.. ماذا يُخفي لها القدر في هذا المكان؟!

****

أسبوعان قضتهما في بيت العمدة، استطاعت خلالهما الاقتراب من "ريم" كثيرًا، لمست انعدام ثقتها بنفسها، لا تفعل شيئًا بنفسها أبدًا.. الخالة تضع لها الطعام في فمها بيديها، وتعاونها "فتون" على تغيير ملابسها، وعلى تنظيم لعبها، وعلى فعل كل شيء ترغب في فعله. لاحظت أيضًا أثناء زيارة العمة الثانية لوالد "ريم"، والتي تدعى "هِنّانَة" برفقة ابنتها "جُمَيرة"، ذات الثامنة عشرة ربيعًا، أن الفتاة كانت تسخر من "ريم" كلما حاولت النطق ببضعة كلمات متلعثمة، أما العمة "هِنّانَة" فكانت تصيح بها ويضيق صدرها بعدم قدرتها على نطق الكلمات بسلاسة مثل الأطفال في عمرها. رأت الدموع تحتشد في عيني "ريم" وهي تطرق أرضًا، هبت من مقعدها لتغادر، إلّا أن الصوت الصارم للعمة "هِنّانَة" أوقفها:

- ارجعي مكانك. بلاش شغل عيال صغيرة.. هتفضلي متدلعة كده لحد امتى.. بقولك اقعدي مكانك.

عادت "ريم" إلى مقعدها وهي لا تزال مطرقة الرأس تتساقط العبرات فوق وجنتيها، فالتفتت "وعد" تعاتب للعمة:

- ليه كده.. انتي كده أحرجتيها؟

قالت العمة بحزم:

- ده دلع يا دكتورة.. الكل حواليها بيدلعوها لحد ما الدلع بوظها.. البنت كويسة مافيهاش حاجة هي اللي بتستعبط عشان نهتم بيها.. حد يلاقي دلع ومايتدلعش؟

بغيظ حاولت أن تكظمه قالت "وعد":

- لا مش بتدلع هي فعلًا عندها مشكلة في النطق.

- وديناها لألف دكتور وقال انها صاغ سليم.

- سليمة عضويًا.. بس نفسيًا لأ.

بغلظة قالت:

- بلا نفسيًا بلا بتاع.. انتي مش هتعرفينا ازاي نربيها.. أنا عندي سبع بنات وكلهم زي الفل.. جوزتهم كلهم ما عدا الصغيرة.. يعني عندي خبرة أكتر من عمرك.

ثم التفتت تنظر إلى الخالة "زمزم" وهي تقول بحدة:

- انتي اللي مدلعاها.. قلتلك ألف مرة انك هتبوظيها بالدلع الماسخ ده.

- ليه يا "هِنّانَة".. ماهي زي الفل أهي اسم الله عليها.

- قلتلك سيبهالي تعيش عندي زي ما كانت عايشة وأنا أمشيها على العجين ماتلخبطوش.

- هي مش عايزة تروح عندك وكل ما بتاخديها بتتفطر من العياط وترجع تاني يوم عينيها زي الدم من كتر البكا.

- بلا دلع ماسخ!

ما زاد هذا الحوار "ريم" إلا عبرات صامتة تتساقط فوق وجنتيها، وما زاد "وعد" إلا حزنًا على الفتاة وضيقًا من عمة والدها.

****

بعد مرور أسبوع آخر، تعلَّقت بالصغيرة كما تعلَّقت هي بها، تمضيان معظم الأوقات معًا، إما في الحديقة أو في غرفة "وعد" الصغيرة. وفي إحدى المرات، لفت انتباه الصغيرة علب الألوان المتراصة داخل أحد الأدراج، فابتسمت "وعد"، التي نسيت هوايتها بانشغالها مع "ريم"، وهي تسألها:

- تحبي ترسمي بالألوان بتاعتي؟

على الفور هزت الطفلة رأسها إيجابًا، فقالت "وعد" بحزم:

- لا متهزيش راسك.. عايزة ترسمي بالألوان بتاعتي؟

هزت رأسها مرة أخرى، فقالت "وعد":

- لأ.. اتكلمي وماتهزيش راسك يا إما مش هنلون سوا.. عايزة ترسمي بالألوان بتاعتي؟

قالت "ريم" بخفوت:

- أيوة.

- أيوة ايه؟

- أيوة عايزة..

- عايزة ايه؟

- عايزة ألوِّن ده.

اتسعت ابتسامة "وعد" التي فطنت خلال الفترة التي قضتها معها إلى أنها تملك مفردات لغوية كثيرة. على الرغم من تشوه طريقة نطقها، إلا أنها تعيها وتفهم ما تقول، وتستطيع أن تعبر عن نفسها؛ فقط إن لم تجد من تلعثمها!

في الحديقة، فرشت "وعد" حصيرة فوق الرمال، وجلستا فوقها متربعتان. وضعت أمامهما دفتر الرسم، وعلمتها كيف تمسك بالفرشاة وتخلط الماء بالألوان. ثبتت "ريم" عينيها على العباءة المزركشة الواسعة التي ترتديها "وعد" تريد محاكاتها على الورق، فتذكرت "وعد" يوم أشارت العمة "هِنّانَة" إلى ملابسها وقالت إنها لا تليق بمن تعيش بيت عمدة القرية؛ لأنها تجسد تفاصيل جسدها بوضوح. أصابها بالغضب من أسلوب المرأة غير اللائق في نقدها، وفي اليوم التالي قدمت الخالة "زمزم" إلى غرفتها وعلى وجهها ابتسامة دافئة، وأهدتها هذه العباءة المطرزة يدويًا بالحرير، فأزالت بابتسامتها وكلماتها المعطرة بالطيبة ما في نفس "وعد" من ضيق. جرَّبتها، ووقفت أمام مرآة صغيرة معلقة في الغرفة تتأمل مظهرها الجديد، فلم تجد ضيرًا من ارتدائها، لا لأن العمة وجهت لها هذا النقد اللاذع، بل لأنها أحبت شكلها فيها وأحست بالراحة بين طياتها، وعندما تحضر العمة كانت تتعمد ارتداء ثيابها المدنية، حتى لا ترى تلك المرأة في ارتداءها للعباءة السيوية خضوعًا لرغباتها.

لمحت طيفًا يخرج من البيت فالتفتت تلقائيًا، لتقع عيناها على "رؤوف" ينظر تجاههما. طوال الثلاثة أسابيع التي قضتها في بيته لم يتحدث إليها قط.

الأخلاق السائدة هنا تمنع الرجل من التحدث إلى امرأة غريبة، إلَّا إن كان الحديث ضروريًا، ووجود الخالة "زمزم" حجب أي ضرورة، ترى نظرات الرضا في عينيه كلما التقت أعينهما قَدَرًا.

احترمت أخلاقه وإن كانت غريبة عنها، شعرت بأنها مصانة هاهنا تحميها أخلاق أهل الواحة وتحافظ عليها، أعجبها أنه لم يعاملها كامرأة غريبة يبيح

لنفسه الممنوع مع غيرها، بل كان يعاملها كبنت من بنات الواحة لا يمكنه أن يقترب من الهالة المقدسة حولها.

في عصر أحد الأيام، بينما تحتسيان الشاي السيوي، سألتها الخالة "زمزم" في فضول عن أهلها وعن طبيعة حياتها في القاهرة. شعرت "وعد" أنها تبذل مجهودًا غير عادي في التذكر، تسترسل في الإجابة ببطء شديد, فوجئت ببضع مواضع من ذاكرتها مفقودة، تشكل أحجية لا يمكنها حلها. أصابتها الدهشة وامتزجت بالحيرة، وأتبعهم شعور متنام بالخوف, إذ كيف لا تتذكر إجابات أسئلة كتلك!

- ازاي أمك ماتت؟

- فين أبوكي؟

- اتخطبتي قبل كده؟

- ازاي كنتي عايشة لوحدك طول السنين دي؟

" يا الهي.. ماذا يحدث لي.. أهو الإرهاق؟! "

سمعت الخالة تقول بحنان:

- معلش اعذريني فكرتك بحاجات تزعلك.. ربنا يرحم أمك وأبوكي يا بنتي.. صعبتي عليا والله.

وبلا تمهيد، انطلقت تحكي لها عن "رؤوف" ووالدة "ريم" - رحمها الله -، فأثار الحديث فضولها، خاصة عندما أخبرتها أن زوجته كانت إحدى بنات العمة "هِنّانَة"، فضمت "ريم" تحت جناحها لعامين من بعد وفاة أمها. فلمَّا لم يعد "رؤوف" يحتمل مفارقة "ريم"، التي كان يذهب كل يومين إلى بيت عمته ليراها، أصر أن تعود "ريم" إلى بيتها، وانتقلت الخالة "زمزم" من منزلها إلى منزل

"رؤوف"، لتساعده في العناية بالطفلة. لعل ذلك يفسر سر تنصيب المرأة نفسها وصية على تصرفات "ريم" وطريقة تربيتها والتعامل معها بأكثر مما تفعل الخالة "زمزم".

ست أعوام منذ وفاة أم "ريم"، بعد زواج دام عامين. ومنذ وفاتها، والعمة "هِنّانَة" تبذل جهدها في تزويج ابنتها الصغرى "جُمَيرة" من "رؤوف"، الذي رفض تمامًا الزواج من أخت زوجته الراحلة.

فسَّر ذلك لـ "وعد" كلمات سمعتها من "جُمَيرة" توجهها إلى "ريم" بغلظة:

- بقولك اسمعي الكلام.. بكرة ابقى أمك ولو ماسمعتيش كلامي هموتك من الضرب.

لم تقم وزنًا وقتها لكلماتها، ولم تظن يومًا أن أمها تعدها لكي تكون زوجة لـ "رؤوف" فالفارق العمري بينهما كبير، "رؤوف" من نفس عمر "وعد" يكبرها فقط بشهرين وبضعة أيام.

أخبرتها الخالة "زمزم" أن "رؤوف" توقف تعليمه عند المرحلة الثانوية فحسب، مما أثار دهشتها مع ما على عاتقيه من مسؤلية إدارية, تسمع ما يُردده عنه أهل القرية أثناء تنزهاتها من رجاحة عقله وحسن إدارته لأرضه وأراضي أبناء القرية، يتولى مسؤولية بيع محصول أراضيهم كل عام، ونتاج مصانعهم، فيرحل إلى القاهرة ويعقد الصفقات مع كبرى الشركات ويعود حاملًا بين يديه رزقه ورزق أبناء القرية.

وكان خبيرًا في الزراعة يفهم في مبادئها أكثر مما يفهم أولئك الذين أمضوا سنوات يحفظون مناهج مقررة في كليات الزراعة، فأطلقوا عليه لقب "الباشمهندس".

لاحظت أنه يتمتع بشعبية كبيرة في القرية ويحظى باحترام أبنائها، كان لتردده الدائم على المسجد المجاور للبيت في أوقات الصلوات أثرا طيبًا على نفسها، لم تميز في بادئ الأمر صوته الشجي الذي ينساب من مكبر الصوت وقت الصلاة، على الرغم من أنه يأسرها ويتملك حواسها وقت أن يبدأ في تلاوة القرآن، حتى أخبرتها "ريم" بحب وفخر والآذان يتردد صداه في الأرجاء ذات يوم:

- أبويا.

وعندما تفتح نافذة غرفتها كانت أحيانا تجد "رؤوف" و "ريم" وهو يحملها على كتفيه وتتشبث هي بشدة بأناملها في شعره، يتحدث إليها وقد انفرجت أساريرها، ثم ما تلبث أن يتعالى صوتها بالضحك، يشاركها فيه "رؤوف".

كانت الابتسامة تتسرب إلى شفتي "وعد" وهي تستمتع بالنظر إليهما، وبالود والحب الذي يجمعهما، فعلى الرغم من قوته التي تسمع عنها في التعامل مع مشكلات أبناء قريته، إلا أنه كان بالغ اللين في حضرة "ريم".

ذات مرة، انطلق يعدو بها وهي لا تزال تجلس فوق كتفيه، فعلا صوتها بالصراخ المرح والضحك، فاتسعت ابتسامة "وعد" أكثر، حتى بدت نواجزها. أرغمها رنين هاتفها المتواصل أن تحيد نظرها عن هذا المشهد الذي أمتعها، فرفعت الهاتف بتقطيبة تزداد شيئًا فشيئًا وهي تسأل نفسها عن ذاك الاسم الذي تومض به شاشة هاتفها: "معلمة الرسم"!.. من تكون؟!

ردت بتوجس، فأتاها صوت مرحب يسألها عن حالها، بينما تجيب هي بشيء من التحفظ، حتى قالت المرأة التي تحدثها من الطرف الآخر:

- "وعد" لازم تيجي المؤسسة في أقرب وقت.. لأن في وصية سيباها "دنيا" - الله يرحمها – تخصك.

هتفت "وعد" باستغراب شديد:

- مش فاهمة!.. مين "دنيا"؟.. و مؤسسة ايه؟

ظنتها تمزح، إلا أن "وعد" أصرت أنها لا تعرف أحدًا بهذا الاسم، وانفعلت بشدة عندما أخبرتها معلمة الرسم عن المؤسسة العقابية بشيء من الذهول!

أنهت "وعد" المحادثة بحدة مع المرأة التي تدعي أنها كانت نزيلة أحد المؤسسات العقابية.. ماذا تريد من جراء ذلك؟!.. كيف يحمل رقم المرأة اسمًا في هاتفها؟!.. من الذي حفظ رقمها باسم "معلمة الرسم"؟! جلست فوق الفراش وقد تفصَّد العرق فوق جبينها، صدرها يعلو ويهبط بشدة، وضعت يديها على رأسها وصداع عنيف يمزقها ألمًا، كلما حاولت أن تتذكر المحادثة أو شيئا من الماضي ازداد حدة. ألقت برأسها فوق الفراش وهي تجعد ملاءته بين أظافرها.. ألم رهيب غير محتمل، لا تقوى حتى على طلب المساعدة من الخالة "زمزم".

من حسن حظها أن طرقت "فتون" الباب، لتخيِّرها بين أن تأتيها بوجبة الغداء في غرفتها أو مشاركتها مع الخالة "زمزم"، فأخبرتها بما تعانيه من آلام غير محتملة برأسها، فأسرعت "فتون" تخبر الخالة التي أتت على عُجالة وجلست بجوارها فوق الفراش تتفحصها، وطلبت من "فتون" وعاء به خل مخلوط بالماء بعد تمام الغليان، وأجلَسَت "وعد"، التي سلمت نفسها إليها كدمية تفعل بها ما تشاء، وطلبت منها أن تشم البخار المتصاعد من الطنجرة، ففعلت مرغمة، ثم طلبت منها أن تتمدد فوق الفراش، وأخذت تفرك جبينها ورأسها بخل التفاح، حتى سكن الألم قليلًا، فتطلعت إلى الخالة "زمزم" معتذرة بصوت متعب، فأجابتها بابتسامة حنون وهي تمسدها قائلة:

- انتي زي بنتي يا "وعد".. ايه بقيتي حلوة دلوقتي؟

- الحمد لله.

- يستاهل الحمد يا بنتي.

ثم أمرت "فتون" بإحضار الطعام إلى غرفة "وعد"، التي تناولت القليل منه، ثم غرقت في سبات عميق، استيقظت منه بعد ساعتين، لتجد الظلام يلُف المكان. حملت منشفتها وتوجهت إلى البيت، فلم تكن غرفتها تحوى حمامًا. كالعادة، كان باب البيت مفتوحًا، فدخلت بعد أن طرقته عدة مرات، حتى أتاها صوت "فتون" يدعوها للدخول. خرجت لتجد الخالة "زمزم" في المطبخ تسألها باهتمام عن صحتها..

- "رؤوف" قال لي أسألك لو تحبي نوديكِ للدكتورة في سيوة.. أصل مافيش هنا في القرية دكاترة حريم.

وقع هذا الكلام في نفسها موقعًا طيبًا، وهي تلحظ في كلام الخالة اهتمامه بها، لكنها سرعان ما نفضت تلك الظنون عن رأسها، ولم تسمح لخيالها أن يتمادى في التفكير.

- لا مافيش داعي.. أنا بقيت كويسة.

هرولت "ريم" على الدرج وتوجهت إلى حيث تقف، بعدما سمعت صوتها. مسَّت ذراعها وهي ترمقها ببراءة ولهفة، فنظرت إليها "وعد" وهي تمسح على شعرها.. كم تعشق هذه الطفلة!

****

انصرمت الأيام، حتى أتمت في سيوة شهرًا، كانت خلاله تجدد إجازتها أسبوعًا بعد أسبوع، وفي آخر اتصال مدتها شهرًا آخر.

لم تسألهم إلى متى سيحتاجون إليها وسيظل بقاؤها مرحبًا به، فقد بدا أنهم يعدونها واحدة من الأسرة، خاصة الخالة "زمزم" التي كانت تعاملها كما لو كانت بالفعل ابنتها. علمت منها أنها عاشت مع زوجها حتى توفاه الله وهي تعلم أنها لن ترزق بطفل قط، لذلك كانت تعد كل بنات القرية بناتها، ويلقبها الجميع بالخالة "زمزم"، ومنهن من يلقبنها بأمي "زمزم".

كان عاديًا أن تجد بضعة فتيات في ضيافة الخالة "زمزم" يتناولن معها طعام الإفطار، وترى السعادة على وجه الخالة وكذلك الفتيات اللاتي التجأن إليها لحل مشكلة أو لمجرد الحديث، وأحيانًا ترى الغيرة في نظرات بعضهن، امتزجت ببعض الكلمات التي كانت تمرر من أسفل الطاولة تدور جميعها في فلك "رؤوف".

في أحد الأيام، أصرت العمة "هِنّانَة" على أن تمضي "ريم" عندها يومًا بليلة. عندها أدركت كم تملّكت هذه الطفلة من مشاعرها، واستطاعت أن تحتل مكانًا مميزًا في قلبها. في هذا اليوم -وكعادة الخالة "زمزم"- دعت "وعد" لتحتسي كوبًا من الشاي برفقتها. شردت بعيدًا وهي جالسة في صحن الدار.. على الرغم من رتابة الحياة في الواحة، على النقيض من القاهرة المليئة بالصخب والضوضاء، فقد عشقت في هذا المكان بساطته وهدوءه، والسكينة التي تتنزل عليها وهو يحتويها ويعزلها عن عالم بعيد، يخيفها أن تعود إليه بذاكرتها!

كان اليوم التالي هو بداية الصدام بينها وبين العمة "هِنّانَة" عندما عادت "ريم" برفقتها. جرت تجاه "وعد" وعانقتها بشدة، وهي تلف ذراعيها حول

رقبتها، وانتحبت. استبد الخوف بـ "وعد". فأبعدتها قليلًا وأخذت تتطلع إلى وجهها وتمسح عبراته بأناملها وهي تقول بلهفة:

- مالك يا "ريم"، ايه اللي حصل؟

أطلت نظرات الخوف من عينيها وهي ترمق العمة "هِنّانَة"، التي نظرت إليها بغضب ألجم لسانها. سحبتها "وعد" من يدها إلى ركن قصي، وجثت على ركبتيها أمام "ريم" تسألها:

- في ايه يا "ريم"؟ انتي بتعيطي عشان وحشناكِ؟

هزت الطفلة رأسها نفيًا، وهي تطرق برأسها وتبكي. ضمتها "وعد" إلى صدرها بقوة، وهي تمسح على ظهرها وتقول بقلق:

- طيب قوليلي بتعيطي ليه؟

ثم نظرت إليها مؤكدة:

- ماتخافيش مش هاقول لحد.

اشتعلت النيران في عيني "وعد"، وتجعد وجهها غضبًا وهي تتطلع إلى الحرق الصغير الذي تشير إليه "ريم" فوق ذراعها. أمسكت بذراعها بقوة تقربه من وجهها وهي تهتف فيها:

- من ايه ده؟

تطلعت "ريم" تجاه المنزل بخوف، فسألتها "وعد" غير مصدقة:

- عمتو "هِنّانَة" هي اللي عملت كده؟

هزت رأسها نفيًا، فعادت تسألها بغضب أكثر:

- "جُمَيرة"؟

بمجرد أن هزت رأسها إيجابًا، انطلقت كالسهم صوب البيت حيث تجلس الأختان معًا، وهي تكشف عن ذراع "ريم" وتوجه حديثها للعمة بغضب:

- ايه ده؟.. ازاي بنتك تعمل فيها كده؟

ظلت العمة محتفظة ببرودها، بينما قفزت الخالة "زمزم" على قدميها وهي تستند إلى عصاها وتمسك ذراع "ريم" قائلة بجزع:

- يا حبيبتي.. ازاي اتلسعتي كده؟

صرخت "وعد" بحدة:

- الست "جُمَيرة" هي اللي عملت فيها كده.

وبشراسه هتفت بالعمة وهي تنظر إليها بعينين كجمرتي نار:

- ازاي تسمحي بكده؟.. طفلة صغيرة تتحرق في دراعها بالشكل ده!

زال برود العمة وهتفت بشيء من الغضب:

- هتعلمينا نربي بناتنا ازاي ولا ايه؟.. انتي هنا بتشتغلي عندنا.... وبعدين دي حرقتها بعود كبريت مش حاجة كبيرة يعني!

بذهول سألتها "وعد" وقد صدمها اعتراف العمة:

- ازاي تسمحي ان ده يحصل؟

- غلطت ولازم تتعاقب.. لو ما اتعاقبتش هتغلط تاني وتالت ورابع!

"صدقني يا فندم لو الأشكال دي ما اتعاقبتش هتسرق تاني وتالت ورابع.. والمجتمع هيبقى غابة"

تردد صداها من أعماقها مرات ومرات ومرات، تجهل من أين انبعثت، لكنها أشعلت بداخلها نارًا متأججة لا تهدأ ، فغاب عنها التفكير، وبغير إدراك

سددت طلقاتها إلى العمة بسلاح مُذخَّر منذ سنوات بعدد عمرها، ينتظر اللحظة المناسبة ليتخلص من حمله الثقيل:

- انتي ماعندكيش قلب.. فاكرة نفسك بتربيها؟ انتي بتدمريها.. انتي وبنتك السبب في انها مش عارفة تتكلم وثقتها في نفسها مهزوزة وبتخاف تعمل أي حاجة احسن تغلط وتتعاقب.

- ايه اللي انتي بتقوليه ده؟!

لم يصدر هذا السؤال الاستنكاري عن المرأتين، بل عن "رؤوف" الواقف على أعتاب البيت، والذي تنامت إلى مسامعه جملتها الأخيرة، فالتفتت تنظر إليه بغضب وهو يقترب، تعلو وجهه الدهشة ويتجعد جبينه حدة، يجول بنظره في وجوه الجميع، فهتفت به بشراسة وقد أفلت زمام السيطرة على أعصابها من بين يديها:

- انت ازاي سايب بنتك كده كل واحد يتصرف فيها على مزاجه؟.. انت ازاي سلبي كده؟.. مش عايز تتعب في تربيتها كنت بتخلفها ليه؟

علت الصدمة وجهه وهو يهتف غير مصدق:

- انتي ازاي بتكلميني كده؟.. الزمي حدودك.

هتفت بعنف وهي تنقل نظرها بينه وبين عمته:

- أنا لا هتكلم ولا هعيد.. خلاص سيبهالكو مخضرة.

وانطلقت مسرعة في اتجاه غرفتها، تتمتم لنفسها وهي في فورة غضبها:

- أنا اللي أهنت نفسي معاكم.. أنا دكتورة ايه اللي يخليني أوافق أشتغل هنا!

أعماها الغضب، فجذبت حقيبتها من أسفل مرقدها وجمعت ملابسها وأغراضها من الخزانة ووضعتهم فيها كيفما اتفق.. انتهت بعد عشرة دقائق من

إغلاق الحقيبة، ووضعتها بجوار الباب. جلست فوق الفراش تستند إليه بكفيها وهي تلهث بشدة، ولايزال الشرر يتطاير من عينيها.

سمعت طرقات على باب الغرفة، فنهضت تفتحه مُتحفِّزة، فقابلتها نظرات"ريم" مُستطلعة وقد التمعت عيناها بالعبرات كادت أن تمزق قلب "وعد". أجهز عليها صوتها المتحشرج:

- هتمشي؟

ثم انفجرت في البكاء، تتسابق دموعها فوق بشرتها السمراء. انفطر قلب "وعد" عندما سمعتها تقول بحدة:

- انتي كدبتي.. قلتي مش هتقولي لحد.

جثت "وعد" بركبتيها إلى الأرض، وقرَّبتها منها وهي تفسر لها:

- كان لازم أقول يا "ريم" عشان ماحدش يعمل فيكِ كده تاني.

- بلاش تمشي..

برجاء قالتها وهي تتشنج بالبكاء، وما كادت تظهر الخالة "زمزم" من خلفها، حتى ولَّت مهرولة في اتجاه البيت. تجاهلت الخالة الحقيبة التي تبعد بضع خطوات عن موضع قدمي "وعد"، وابتسمت قائلة بلهجة ذات مغزى:

- على فكرة "رؤوف" لما عرف الحكاية كلها طربَق الدنيا وزعق في عمته.

ثم أردفت:

- وهي كمان زعقت وسابت البيت ومشيت غضبانة.

لم تستطع أن تمنع شعور التشفي الذي اعتمل بداخلها، يفضح وجهها بعضه، مما شجَّع الخالة أن تستطرد وكأن شيئًا لم يكن:

- يلا عشان نتغدا.. هاقول لفتون ترص الأكل على الترابيزة

وحتى لا تعطيها مجالًا للرفض، دارت على عقبيها وغادرت مسرعة تتسند.

اكتنف "وعد" تردد لم يطل، فقد تبخَّر الكثير من غضبها بعد غضبة "رؤوف" على عمته. لم تكن مخطئة بما فعلت هي الأخرى إذن! تعلم أنه لا ينضم إليهم أبدًا حول طاولة الطعام، لكنها ظنت أنه سيفعل هذه المرة للاعتذار منها عن حدته.

لم يأتِ، فتصاعد غضبها من جديد، وعادت إلى غرفتها وهي تكظم غيظها.

- قليل الذوق.

هكذا هتفت من بين أسنانها. ولكي تتلهى عن غضبها، حملت حقيبتها فوق السرير وطفقت تعيد ترتيب ملابسها وأغراضها داخل الخزانة مرة أخرى.

طرقات على الباب بوتيرة تعرفها دفعتها لأن تقول:

- ادخلي يا "فتون".

دخلت حاملة بين يديها سلة صغيرة من الخوص الملون، وعلى شفتيها ابتسامة واسعة. انتظرت أن توضح لها، ففعلت بسعادة ظاهرة:

- الباشمهندس "رؤوف" باعتلك ده.

وضعت "فتون" السلة بعناية فوق الفراش، ورأت "وعد" بداخلها قطعًا شديدة البياض، مقطعة طوليًا كأصابع البطاطا!.. فسألتها بحدة لم تقصدها:

- ايه ده؟

صاحت "فتون" بحماسة عفوية:

- ده جمار.. قلب النخلة.. مش أي حد بياكل منه.. بيتهادى للناس الغالية قوي.

تركتها "فتون" بعدما رمقتها بنظرة ماكرة، وعلى شفتيها نفس الابتسامة الواسعة التي دخلت بها الغرفة. وقفت أمام السلة وقلبها يتغنى بلحن غريب لم تألفه.. أيراها حقًا غالية؟!

****

في اليوم التالي، بعدما انتهت من تدريس "وعد" المقرر اليومي من الحروف والأرقام، تركتها تنعم بقليل من النوم حين غلبها النعاس. بحثت عن الخالة "زمزم" لتخبرها برغبتها في الخروج والتجول في القرية، فرأتها تتحدث مع "رؤوف" بحديث أخذ جل انتباههما، ثم توقفا فور اقترابها منهما، فاضطربت محرجة وهي تخبر الخالة بما أرادت.

أرات أن تشكره على الجمار الذي أهداها إياه، لكنها انتبهت إلى تفحصه لها بجرأة لم تعتدها منه، فازدادت توترًا واضطرابًا، وغادرت البيت وقد تزاحمت الأفكار داخل رأسها.

لم تطل حيرتها كثيرا، فبمجرد عودتها إلى البيت قبيل المغرب، استقبلتها الخالة "زمزم" بجملة ما ظنت أن تسمعها يومًا:

- "رؤوف" عايز يتجوزك!

هكذا بلا مقدمات! ألجمتها المفاجأة عن استيعاب ما سمعت، فعادت تكررها في عقلها ببطء أكثر، واعتملت بداخلها مشاعر كثيرة متباينة.. خوف، توتر، سعادة. استمعت بشرود إلى الخالة "زمزم" وهي تعدد لها صفات "رؤوف"، والتي كانت تعرفها بالفعل. متى ولماذا فكر في الزواج منها، في حين لم يبد أي فعل يشي بذلك؟

كانت لاتزال الخالة تتحدث، ولا تزال هي غير مصدقة.. حلم جميل اجتذبها، تغلغل بداخلها دفء تملّك من فؤادها وتحكم في أحاسيسها ومشاعرها، شعرت بحصان السعادة يطير بها ينقلها من عالم الأرض إلى جنة بعيدة لطالما صَبَت إليها ونشدت تنسم شذا أزهارها.

أتراه أحبها؟.. كيف ومتى ولماذا؟

أتراه أحبها؟.. كيف سيواجه عمته التي أرادته لابنتها؟

أتراه أحبها؟.. و"ريم" كيف ستتلقى الخبر؟

أستفرح بانضمامها إلى أسرتها الصغيرة؟.. أم ستراها سارقة تسطو على مكانة أمها عند أبيها؟

.. أتراه أحبها؟

****

لماذا وافقت على الخطبة؟

لأنه ببساطة جاءها في المكان والزمان المناسبين.

المكان، حيث أحب بقعة إليها على وجه الأرض.. الأرض الوحيدة التي تمنت أن تضرب جذورها بتربتها وتتشعب فيها، ترتوي منها، ومن خيرها تعطيها.

والزمان حيث توقف عداد عمرها عن الحساب، فباتت تشعر كالتائه في ملكوت الذات، لا ماضي لا ذكريات، لا أهل ولا انتماء، أرادت أن تتشبث بشخص ما لتتوقف أرجوحة كينونتها عن الدوران، ولتنعم تحت جناحيه بالأمن والأمان

لماذا هو؟!

لا تعرف تحديدًا، لعلها هالة التقدير والاحترام التي ينسجها الجميع حوله، والتي وضعته بمنزلة متميزة، فأصبح كل ما يقترب منه متميزًا بدوره.

هي، كأي امرأة، يجذبها الرجل الذي يحظى باحترام الجميع، أو لعلها شغفت بتخطي الحواجز التي صنعتها أخلاقياته وعاداته بينهما، فالممنوع دائمًا مرغوب.. أو لعله الاهتمام الذي تراه أحيانًا في نظراته، وتستشعره من خلال كلماته التي تنقلها الخالة إليها, فهي كغيرها من بنات جنسها, تعشق الاهتمام.. أو لعله شعور الأمان الذي تنعم به تحت سقف داره، وقوته حيث تلوذ بأكنافه. هنا لا يمكن لأحد أن يؤذيها، هنا لا يمكن أن تطالها شرور الحياة وقسوتها، هنا تحب أن تكون.

****

كانت تنتظر أن يجمعهما حديث ما، لكن ظنها قد خاب. وجدت نفسها في صبيحة يوم الخطبة، التي جاءت بعد عدة أيام فقط من موافقتها، دون أن تتبادل معه حرفًا واحدًا. على الرغم من سعادتها في هذا اليوم، إلا أنها كانت تشعر بتوتر كبير. ودت فقط لو تسمع منه بضع كلمات تبدد قلقها ومخاوفها.

العمة "هِنّانة" وبناتها جميعًا قد ناصبوها العداء في وضوح، وسمعتها تقول لأختها:

- رايح يتجوز واحدة غريبة وعانس كمان، وبناتنا هنا زي الورد! كظمت "وعد" غيظها ولم تفصح عما سمعت، وتعاملت معها وبناتها ببرود مماثل لبرودهن, لم تكن لتدع أي أحد يسطو على سعادتها في هذا اليوم.

احتفل النساء في بيت العمدة، والرجال في بيت أحد أكابر القرية. ازدان البيت بالأضواء الساطعة، وفتحت الأبواب على مصراعيها مرحبة، وتزينت وتعطرت "وعد" كما شاءت، وأتى الجميع محملًا بالهدايا لعروس العمدة يخطبون

ودها. لأول مرة تشعر أنها مركز اهتمام الكون كله لا فقط الواحة وأهلها.. ضحكت من قلبها كما لم تضحك من قبل، وطيف السعادة متربع فوق ثغرها الذي افتر عن ابتسامة جذابة وهي تلف ذراعيها حول "ريم" التي ظلت ملازمة لها لا تسعها الأرض من الفرح.

أشد ما أسعدها رؤيتها لـ"سهام"، التي أصرت على الحضور، صاحبة زميل لها أثناء السفر، ذاك الذي لازمها طيلة الرحلة الماضية إلى سيوة، قالت بأنهما متحابان، ولكن عندما سألتها عن موعد خطبتهما أجابتها بنفاذ صبر لتقطع الطريق على أي سؤال آخر:

- لسه ما اتكلمناش في الموضوع ده.

بعد انتهاء الحفل، أصرت الخالة "زمزم" بكرمها أن تبيت "سهام" ليلتها في البيت بدلًا من الفندق، ففعلت. في حين عاد زميلها إلى الفندق، واتفقا على أن يعود إليها في الغد ليصحبها في طريق العودة إلى القاهرة.

تمردت "وعد" على النوم هذه الليلة، بل جانبها هو، ظل يناوشها بين الحين والآخر حتى أيس منها وأسقط في يده.

****

في الصباح، كان الصدام الأول بينهما، عندما كانت تودع "سهام" أمام البوابة، اقترب زميلها مهنئًا، فشكرته مبتسمة, لكنه مازحها وقد أطلق ضحكة رنانة قابلتها بابتسامة هادئة. لكن ابتسامتها تجمدت وهي ترى وجه "رؤوف" الغاضب القادم من البيت في اتجاه البوابة، ينظر إليها بنظرات حارقة، ثاقبة لا يرفع عينيه عنها.

كل الذكور تحب وقِلَّة من تغار، لكن الرجل السيوي إن أحب غار. غيرته كالزلازل,كالصواعق.. كألسنة من نار تضرب الحطب البارد فتحيله جمرا،

كقلبه المتقد في مرجل صدره، فويل للذي يقترب من أنثاه، وويل لأنثاه إن نزعت عن غيره الفتيل.. عندها يضحى السلام قتيلا!

رحب بالرجل الذي رآه بالأمس ببرود، بعدما احتل بجسده المسافة التي تفصل بينه وبين "وعد"، والتفت يواجهه حاجبًا لها عن ناظري الرجل، الذي ارتبك لما رأى من غضب باد على وجه "رؤوف". فبارك مرة أخرى، ثم انصرف برفقة "سهام".

لم تكد السيارة تنطلق بهما، حتى التفت لـ "وعد" يشير لها برأسه للداخل، ليبتعدا عن مرمى أنظار المارة، حتى توسطت الممر المفضي إلى البيت، فوقف أمامها وقد بدا أنه يجاهد للبحث عن كلمات مناسبة، لكن قبل أن يتحدث بادرته:

- أنا عارفة انك اتضايقت.. بسْ هو كان بيباركلي مش أكتر.. ده دكتور زميلي كان معايا في القافلة.. و....

صمتت وهي لا تدري إن كانت تزيد الأمور بكلامها سوءا. وتحدث أخيرًا بهدوء لم تتوقعه..

- أتمنى تكوني عارفة طباع الراجل اللي وافقتي عليه.. مافيش في قاموسي حاجة اسمها صداقة ولا زمالة.. لا ليا ولا ليكِ.

بسرعة نفت عن نفسها تهمة خافت أن تُرمى بها:

- أحب أقول لك أنا مش زي "سهام".. هي زميلتي آه.. بس أنا رافضة تصرفاتها.. لو كنت أعرف انها هتيجي معاه كنت قلتلها ماتجيش.

فاجأها بقوله:

- عارف.. انتي متصوره اني مابعتش حد يسأل عنك زمايلك اللي كانوا معاكِ في القافلة، قبل ما أقبل انك تعيشي هنا في البيت مع بنتي وعمتي؟

علت الدهشة وجهها، فأردف:

- انتي عارفة أنا ليه ماعزمتوش يبات هنا.. زي ما عمتي "زمزم" عزمت صحبتك؟

انتظرت بفضول إجابته:

- عشان في فرق بين الراجل اللي عنده نخوة واللي ما عندوش.. اتعدى على حرمة بيت راجل تاني، وسافر بيها لحد هنا.. ممكن ما يراعيش حرمة بيتي أنا كمان.

****

لم يكد يمر أسبوع على الخطبة، لم يتحدث إليها خلاله مرة أخرى، حتى تحدثت معها الخالة "زمزم" لتحديد موعد الزفاف، احتدت "وعد":

- ازاي يعني؟.. ده احنا ما اتكلمناش الا مرة واحدة بس بعد الخطوبة؟

- دي عاداتنا يا بنتي.. وبعدين ما انتِ عارفة كل حاجة عنه وهو عارف كل حاجة عنك.

قالت بشيء من الضيق:

- حتى لو نعرف كل حاجة عن بعض.. لازم نتكلم مع بعض.

- طيب يا بنتِ وماله مافيش مشكلة.. أقول لـ "رؤوف" انك عايزة تقعدي تتكلمي معاه.

قالت بكبرياء وهي تشيح بوجهها بعيدًا:

- كان المفروض هو اللي يطلب مش أنا.

باردتها الخالة بسرعة بديهة:

- انتي اللي مترددة مش هو.. هو خلاص اختار.

وثب قلبها بجنون وهي ترى "رؤوف" مقبلًا نحوهما في اليوم التالي، بعدما أخبرته الخالة رغبة "وعد" في التحدث إليه، وتناست كل ما أعدته في رأسها من أسئلة شغلتها. أخجلها بشدة جلوسه بجوارهما حول الطاولة التي تستضيف سهراتها المسائية اليومية مع خالته، فشعرت لوهلة بشيء من الندم، ثم ما لبثت أن أقنعت نفسها: ده حقك!

غادرت الخالة برفقة "ريم"، وتركتهما والصمت ثالثهما. تعرق كفاها كثيرًا، وتوترت حتى كادت أن تولي الدبر هاربة، حين سمعته يتنحنح ثم يقول بجدية:

- أنا سامعك اتفضلي؟

أغاظها أن يلقي الكرة بملعبها، وكأنها وحدها من ترغب في هذه الجلسة، فأشاحت بوجهها هنيهة، ثم ما لبثت أن نظرت إليه للمرة الأولى، تتبين ملامحه بوضوح. لم تملك الجرأة لتفحصه من قبل، لكن هذه المرة أرادت أن ترسم لملامحه لوحة داخل رأسها.. بشرة سمراء لامعة، كأن القمر يجري على وجهه، بحاجبين مستقيمين، وأنف حاد، وذقن عريض واسع. لا تصفه بالوسامة، لكنها لا تنكر تلك الجاذبية التي تنطق بها خلاياه. لمحت شهابًا مر سريعًا في غَيْهَب عينيه.. تظاهرت بالجلد وهي تباغته بسؤال أعدته مسبقًا:

- ليه اخترتني؟

حملت نبرتها شيئا من التحدي تجعد له جبينه، ثم انفرجت أساريره عن شبح ابتسامة ماكرة وهو يسألها مماثلًا:

- ليه وافقتي؟

تشوش تفكيرها، وامتطى الاضطراب صَهوة وجهها كيف تجيبه.

- منتظر إجابتك..

عاجلها بإصراره، فبللت شفتيها بلسانها وتلعثمت تقول:

- يعني.. عشان.. حد مناسب.

- طالما شايفاني مناسب يبقى عرفتي عني اللي خلاكِ تحسي بده.. ونفس الأمر بالنسبة لي شفت فيكِ اللي خلاني أقرر انك مناسبة انك تكوني زوجة ليا.

رغم كلماته العقلانية، إلا أنها لم تشبع غرورها الأنثوي، فحاولت جره إلى حيث يمكنه إرضائها:

- يعني حسبة عقل بس؟

ساد الصمت بينهما للحظات، لم تستطع إبانَها تفسير خلجات وجهه. وأخيرًا تحدث بجدية اعتادتها وصدق أشاعه ثنايا كلامه:

- أنا إنسان عملي بيحسبها بعقله بس مش معنى كده اني لاغي احساسي.. بس تقدري تقولي إحساسي بترجمه لأفعال مش لكلام.

اكتفت بهذا التصريح المبطن عن مشاعره التي لا تسعها الكلمات. وبدون دعوة، باشر يضع معها أسس وصايتها على "ريم"، وهو يبدي لها ثقته التامة في قدرتها على تحمل المسؤلية. فاجأها بسؤال:

- من امتى بترسمي؟

سألته بتعجب:

- عرفت منين اني برسم؟

بابتسامة خفيفة أجاب:

- الألوان والدفتر الكبير اللي شفتك في مرة واخداهم معاكِ وانتي خارجة من البيت، ده غير إن "ريم" قالت لي.

- قالت لك ايه؟

- انك بترسمي.

- انت اللي سألتها ولا هي اللي قالت لك؟

- تفرق؟.. أنا اللي سألتها.. عنك.. وعن رأيها فيكِ؟

- وقالت ايه؟

- قالت انها بتحبك وده كفاية عندي.

صمتت لبرهة، ثم سألته:

- كون ان "ريم" بتحبني ده كفاية عندك عشان تختارني؟

- ما تحاسبنيش على كلام ما قلتوش.. لو عايز دادة لـ "ريم" هلاقي ألف واحدة.. مش مضطر أتجوز لمجرد اني أجيبلها دادة أو مُدرسة في البيت؟

ثم أردف بنبرة مطمئنة:

- أسبابي حصرتها في كلمة "زوجة مناسبة".. وأكيد علاقتك الكويسة بـ "ريم" واحد من الأسباب دي بس مش السبب الوحيد.

لم تطر فرحًا بإجاباته، إلا أنها اقتنعت بها وسكَّنت هواجسها. اقتنعت إلى الحد الذي وافقت على الموعد الذي حدده للزفاف، بعد أسبوع!

****

سيقت إلى حمام كليوباترا الشهير، الذي لا يفرق بين عروس من بيت غني أو بيت فقير. كل عروس في الواحة تستحم فيه يوم عرسها، ثم تمشطها إحداهن وتزين وجهها، وتنقش على جسدها بمعجون الحناء، ثم تعينها على ارتداء ثوب الزفاف السيوي المطرز بخيوط الحرير. كانت كملكة تشع بهاءً، وكادت العبرات أن تفسد زينتها وهي تتطلع إلى نفسها في المرآة. عانقتها الخالة "زمزم" كما تعانق الأم ابنتها، وابتسامتها تنطق بسعادة غامرة وهي تهنئها بلغتها الأمازيغية:

- مباركي.

استمر حفل الزفاف ثلاثة أيام، نظمت خلاله الولائم التي حضرها جميع أهل الواحة. نصبت "وعد" عمدة سيوة وليًا لها، وشرعت الخالة "زمزم" في تحصينها بالرقية وبقراءة القرآن وهي تقول لها بقلق:

- العين حق.. ربنا يحميكي من شر العين.

انتهى الحفل، وغادر الجمع، وولى زمن "وعد" الفتاة التي عاشت طويلًا في كنف الوحدة لا تسمع في الليل إلا صوت أنفاسها، واستهلَّت حياتها الجديدة.. كزوجة وأم!

****

بدا أن لا شيء يستطيع إعتام بريق تلك الابتسامة التي نقشت على ثغرها، ولا تلك الفرحة التي سرت في أوردتها وشرايينها مجرى الدم، تغذي كل خلية عانت يومًا ألم الظمأ والحرمان.

أمضت أسبوعين من عمر زواجها تنعم بالسلام على فراش كينونتها الخاصة، متصالحة مع نفسها ومع من حولها. استمدت من سعادتها القوة التي جعلتها

تتجاهل العمة "هِنّانة" وابنتها، ولا تقيم وزنًا لتصرفاتهما التي تهدف إلى استفزازها وإخراج أسوأ ما فيها.

ساعدها على ذلك "رؤوف"، الذي قلدها أمام الجميع ومنذ اليوم الأول لزواجهما زمام الأمور، خاصة تلك المتعلقة بـ "ريم". فسارت حياتها روضة تتعانق أغصانها وتشتجر أفنانها.

التجاهل الذي لاقته من "رؤوف" في فترة خطبتهما القصيرة استحال غيرة واهتمامًا، فكان بديهيًا أن يطلب منها أن تخفي مفاتن وجهها، كغالب نساء الواحة، فلا تراها أعين رجل غيره. لم تحتاج إلى كثرة إقناع، فما أمتع أن تهب المرأة نفسها ظاهرًا وباطنًا لرجلها فحسب، وما أروع أن تشعر أن لها رجلًا تدفعه رجولته إلى أن يغار عليها من عيون كل رجال الأرض.. وذكورها، فللحب أنواع كثيرة، أفخرها ذاك المطعم بنكهة الغيرة. حواها بين جنباته، وألصقها بضلوعه كبحر كبير احتضن درره ليخفيها، فآوى إليه ضعفها، وشغفت بذبح قرابين الحب بين يديه.

كانت لتراه زوجًا مثاليًا، لولا أنه بخل عليها بسكب كلمات الحب في أذنيها. كما قال لها عندما جلسا يتحدثان معًا قبل زفافهما، اعتاد أن يترجم أحاسيسه لأفعال، ولا يعرف كيف يشكلها بلسانه إلى كلمات.

كم تمنت أن تتزوج رجلا له في الرومانسية باع, يسمعها كلمات الغزل يدغدغ بها مشاعرها، تصرفاته تشي بحبه لها، إلا أنها كانت ترى جهله بقصائد الحب وعزفها كخلو الحلوى من السكر. تذكرت "وعد" ما قرأته ذات مرة، أننا نحب من خلال وسيط!.. نحكم على الآخرين من خلال عيونه وآراءه وأفكاره بعدما تسلل إلى حياتنا وأفكارنا ومشاعرنا وتملك منها دون أن ندري. عندما نرى أن الرجل الذي يتصف بالرومانسية هو من يتحدث بأروع الكلمات وأعذبها

ويعزف على قيثارة الحب لمحبوبته بمقطوعات شعرية تلهب حواسها فنحن لا نرى ذلك لأنه حقيقي!

بل لأن الوسيط يصوره لنا كحقيقة مسلم بها!.. فكنا بجهلنا كالأعمى الذي ركن إلى آخر يسحبه ويعلمه أسماء الحواري والطرقات بمدينة الحب!

ولم يكن لـ "رؤوف" ذنبًا سوى أنه بعيد عن هذا الوسيط.. تشغله أعماله عن متابعة المسلسلات والأفلام التي تجسد الحب في تابوه لا يمكن كسره، وكان يعكف على قراءة الكتب الجادة أكثر من قراءته للروايات التي تُلهم اللسان بمفردات صالحة لإعادة التدوير والاستخدام كنصوص محفوظة تشبعت ابتذالًا.

جرت بينهما عدة مشكلات صغيرة خلال أول أسبوعين من زواجهما، بسبب اختلاف في طباع وعادات كل منهما، لكنها كان تُحل بصفة ودية، لم تخرج يومًا من غرفة نومهما إلى غرفة الخالة "زمزم" القريبة منهما، والتي أصرت "وعد" على بقائها وعدم عودتها إلى بيتها.. كم تحب هذه المرأة لبالغ طيبتها وحنانها.

اتصف "رؤوف" بالعند الشديد، وكانت هي تتمتع بقدر لا بأس به من التحدي، ومن هنا جاء الصدام غالبًا، لكنه صدام لا يخلف ضحايا، ولا يترك كسورًا لا يمكن جبرها، لحاجة كل منهما إلى الآخر، فيتنازل كل طرف فيما يصح فيه التنازل.

استقالت من المركز، ولم يعارض "رؤوف" في عملها بالمدرسة الوحيدة في القرية، لكن بعد يومين فقط ملت من العمل بها، فأتتها فكرة أن تستقبل الفتيات اللاتي يردن تعلم الرسم في بيتها مقابل أجر رمزي. شعرت بالفعل أنه العمل المناسب لها، فما أروع أن تكون الهواية هي المهنة التي تمارسها، لتشعر أنها تحقق نجاحًا ما.

هكذا بدأ حبها لـ"رؤوف" و "ريم".. أحبتهما لأنها استطاعت أن تحدث تغييرًا في حياتهما، ولأنهما كانا في أمس الحاجة إليها. فتنت بهذا الشعور.. حاجة الآخرين إليها يشعرها أنها كائن مادي محسوس ملموس يؤثر ويتأثر, أن تغير في نفوس الآخرين وتترك أثرًا بحياتهم لهو شيء يشعرها أنها على قيد الحياة.

شدت طيور الحنين بالأشعار واختلج القلب شوقًا، حين سافر "رؤوف" في عمل لعدة أيام إلى القاهرة، وكانت المرة الأولى التي يفترقان فيها، منذ أن جمعهما رباط الزواج. ودت لو تخلت عن خجلها وهاتفته لتصف له كم كان بعده عنها قاسياً, وكيف شتت غيابه ذراتها، وفي أركان الواحة بعثرها, تنتظره أن يعود وبيديه الدافئتين يجمعها. يوم عودته كان كيوم عيد، اهتمت بملبسها وملبس "ريم"، وتابعت الخالة بسعادة خلجات وجهها الملهوفة، وابتهلت بالدعاء ألا يتعكر صفو هذه الأسرة أبدًا. بينما تعكر وجه العمة "هِنّانة" محتقنًا، وغابت "جُمَيرة" عن مسرح الأحداث.

ألقى بسلامه على الجميع، ثم ابتدأ بعناق الخالة "زمزم" أتبعها بالعمة "هِنّانة". جرت"ريم" على والدها فرحة برؤياه، فحملها مقبلًا إياها يضمها إلى صدره بقوة، مهديًا لها الحلوى التي أحضرها، فشكرته مبتهجة.

اكتحلت العين بالعين في غفلة من عيون الرقباء. كلما استشعر حبها تفضحه نظراتها، أحس بالأمان إلى الدرجة التي تجعله ينذر نفسه لها ويهيم بها. رأت النجوم تسبح في فضاء عينيه، لمع بريق أحدها بشدة جعلتها تود لو اقتربت منها لتقطفها وتحتفظ بها، تلعثم لسانها بكلمات شوق لم تعتد النطق بها، فاكتفت بقولها:

- حمد الله على سلامتك.

حينما أرادت أن تقول: وحشتني!

رد بهدوء:

- الله يسلمك.

بينما تساءل بقلبه: وحشتك؟!

حبيبان وشقيقا روح، يخجل أحدهما من البوح بمشاعره، والآخر لا يعرف كيف يترجم ما يهمس به قلبه إلى كلمات!

****

في اليوم التالي أخذها و "ريم" إلى بعض المزارات. مبتهجة كطفلة كانت، رغم زيارتها لكل معالم سيوة من قبل.. تراها بعين مختلفة، تستنشق هواء الواحة الذي عطره وجود "رؤوف" متخذه منه دليلها، و"ريم" تشبك أصابعها الصغيرة في يدها.. فما أسعدها!

صعدوا إلى "جبل الموتى"، وفي منتصف الطريق أمضوا نصف ساعة في استراحة للزائرين من حرارة النهار، بينما تبدو الواحة الراقدة أسفل الجبل في الخلفية. وفي شالي، جلسوا على سور من أنقاض المدينة القديمة، وأخذ يقص عليها أصل الأمازيغ وكيف هاجروا إلى سيوة وبنوا القلعة لتحميهم من الغزاة، فاستمعت إلى حديثه بإنصات شديد، كأنها لم تسمع هذا الكلام من قبل، فلصوته وقع يطرب أذنيها. راقبت شغف عينيه وهو يتحدث بفخر عن أجداده، وعندما قال:

- وكلمة أمازيغي أصلًا معناها....

- الرجل الحر.

بادرته مبتسمة، فعلا البشر محياه، واتسعت ابتسامته وهو يشاكسها:

- شكلك أمازيغية ومخبية عليا؟

تجلجلت ضحكتها في الأرجاء، فاستقبلها قلبه كغيمة ماطرة منعشة. رنت بنظرها إلى "ريم" التي تلهت بجمع الرمال وصبها في إحدى الحفر، وعادت تنظر إليه، فقال مبتهجًا:

- أول مرة شفتك فيها حسيت ان في حاجة هتجمعنا ببعض.

- عشان كده كنت هتتخانق مع الراجل الأجنبي؟

- أنا ماكنتش هتخانق معاه.. أنا بس وضحتله ان نساءنا خط أحمر.

جلل صوتها ضحكة عذبة داعبت مرحه فاستطرد ببشر وانطلاق:

- عدي الجمايل دي.. أنقذتك مرتين.. مرة من السايح.. ومرة من البير.

ضاقت عيناها واختفت ضحكتها وهي تقول بحيرة:

- بير ايه؟

- بير "كيغار".. ايه هتعملي ناسية؟

في اللحظات التالية، دار حديث انتهى بالشجار. انفعلت تؤكد أنها لم تسقط يومًا في بئر، ولا تعرف هذا الـ"كيغار".. واحتد هو يتهمها بالكذب ويسألها فيما الإنكار؟!

في المساء، جلس "رؤوف" في الحديقة يتحدث إلى الخالة "زمزم" بلغته السيوية، التي لا تعي منها حرفًا، فازداد ضيقها وهي لا تعلم إن كان يقص على الخالة سبب شجارهما أم لا.

استوطن الألم صدرها، فتلك هي المرة الأولى التي يحدث بينهما شقاق إلى حد الخصام. حاولت التلهي عن التفكير بمشاهدة صور زفافها برفقة "ريم". تذكرت تلك الصور التي أعطتها إياها "سهام" يوم خطبتها، والتي لم ترها بعد، فبحثت عن المغلف الذي أودعته أحد الأدراج وأخرجت منه الصور.

شاهدتها مع "ريم"، وهي تتذكر أول أيامها في الواحة، وكيف أسرتها إلى الحد الذي.........

توقفت عند إحدى الصور، غريبة هي!.. لا تذكر متى التقطت هذه الصورة، ولا أين!.. كانت لها وهي واقفة أمام أحد الآبار! ارتجف قلبها خوفًا وانقبض، وشعرت باختناق شديد وضاق صدرها، كما لو أن روحها تسحب منها.. أتراها تحتضر!

تبًا لهذه الصورة، كيف تملك منها الخوف بهذا الشكل بسببها، كانت نظراتها في الصورة غريبة، وعلى وجهها تعبيرات مخيفة, تشكلت من خليط قاس من المشاعر, من حزن وقهر وألم.. لا تذكر أنها مرت بشيء يجعلها ترسم هذه التعبيرات على وجهها.. ترى ماذا يحدث لها؟!

كتمت شعورها عن "رؤوف" في تلك الليلة، لكنه شعر بها وباضطرابها، فسألها عن ذلك رغم غضبه منها، فأراحته بكلمات مقتضبة عن تعبها من رحلة اليوم، لعلها الشمس.. هكذا قالت بجفاء!

أدار ظهره ونام، بعد أن وجه لها عبارات لوم قاسية، موضحًا كم يكره الكذب. اغتاظت ولم ترد، وهي تعجب لماذا يصر على اتهامها بالكذب!

لساعات جفاها النوم، وعندما حل فوق جفنيها أخيرًا، تمنت لو لم تنم قط. دبت الحياة في كل ما حولها، كل شيء يندفع إليها ليفترسها، يدفعون بها إلى أن تذهب إلى مكان ما!

بئر "كيغار".. هكذا تردد الاسم داخل رأسها. حاولت أن تركض بعيدًا وهي تنادي "رؤوف" و "ريم" ليرحلا معها من هذا البيت المرعب.. نبتت أذرع من الجدران، وكأنها أذرع أخطبوط عملاق تأخذها إلى.. بئر "كيغار".. حيث الحورية تنتظرها.. لتقدم لها القربان!... أفاقت على صرخة رجت أرجاء البيت!

****

لم تخبر أحدًا بما رأت في الكابوس، ولا بما شعرت به وهي تنظر إلى صورتها، فلن يصدقها أحد، أو لعلهم سيتهمونها بالتوهم أو بالجنون. ولكن تكرر الحلم لأيام متتالية، حتى كادت أن تفقد عقلها. سألت "فتون" عن بئر يسمى "كيغار"، فأرشدتها إليه. كان يتحتم عليها الخروج من القرية، فطلبت من "رؤوف" أن تذهب لشراء بعض الحاجيات من السوق الكبير بسيوة، فوافق لعل حالتها النفسية السيئة التي لازمتها طيلة أيام تتبدل, فقد رفضت أن تفصح له عن مكنونات صدررها. لكنه اشترط أن تصطحب معها "فتون"، ففعلت سعيدة بهذا الشرط، لأنها لا تعرف كيف تصل إلى "كيغار" وحدها.

وفي اليوم التالي، طلبت منها "ريم" الذهاب معها، فقالت لها بحنان وهي تمسح شعر رأسها:

- معلش المرة الجاية هاخدك معايا.. هاجيبلك لعبة جميلة قوي هتحبيها.

على الرغم من ضوء النهار، إلا أنها شعرت بالنفور من هذا المكان كما تشعر في كوابيسها. نفور اختلط بالخوف والرهبة. طلبت من "فتون" أن تنتظرها، واقتربت وحدها من البئر.. لا شيء غير عادي، بئر كباقي الآبار. التفتت تنظر إلى "فتون" التي جلست فوق الأرض تستند بظهرها إلى شجرة وهي ترقب "وعد" باهتمام. نظرت "وعد" حولها، لا شيء غريب، رمال كباقي رمال الواحة، وأشجار كباقي أشجارها. لماذا إذن تشعر أن هذا المكان يحوي لغزًا ما؟ لماذا تراه في كوابيسها وتشعر في صحوها أن عليها دينًا يجب أن تدفعه هنا... وإلا قاست الأمرين؟ تتذكر حلمها.. أي قربان ذاك وأي حورية؟! عادت تنظر إلى المياه الرائقة.. لا شيء.. لا شيء أبدًا.

عادت إلى البيت بحال أفضل مما غادرته. لمحت نظرات العتاب في عيني "رؤوف"، فتناست ما كان، وأغلقت عليهما بابًا، وتحدثت إليه لينهيا هذا

الخصام السخيف. وعندما سألها مرة أخرى عن البئر وكذبها بشأنه، اكفهر وجهها المتعب وهي تقول بشيء من العصبية:

- ممكن نأجل كلام في الموضوع ده؟

رضخ بغير اقتناع، فلا تزال الشكوك تساوره عن سبب كذبها. بالتأكيد تعرف أنه منقذها من الغرق.. تلاقت أعينهما يومها وتفرست في وجهه. الأدهى أنها تنكر أصلًا وقوعها في البئر!

نحى قصة البئر جانبًا رضوخًا لمطلبها.. لكن فقط لبعض الوقت!

****

هذه المرة رأت البئر، وقد نبتت له عينان تنظران إليها بقوة أرسلت القشعريرة إلى جسدها النائم. تحدثت صاحبة العينين بغير كلام.. ذبذبات تنتقل بين أعينهما، فيفهمانها بغير كلام:

- أريد قرباني.

- أي قربان؟

- قايضتك كما فعلت بألف إنسان.. ذكرياتك المؤلمة مقابل قربان.

- ليس لدي ذكريات مؤلمة.

- لأنني مِن لفح نارها أرحتك.. أريد قرباني، وإلا أعدتها إليكِ وتركتك بها تحترقين.

- أي قربان تريدين؟

- قطرات مِن دماء مَن تحبين.. قطرات تسكن عروق من تُسعدين.. يُطربني أكسير السعادة.. ولديكِ من السعداء اثنين

- من تقصدين؟

- "رؤوف" و "ريم".

- لا.. خذي من دمائي أنا ما تشتهين.

- لا ترضيني دماؤك، فسعادتك زائفة.. وحقيقتك ناقصة.. لا حاضر بغير ماضي.. لا سعادة بغير ألم.

- ابتعدي عنهما.

- كل شهر عند اكتمال القمر، لديك من الأيام ثلاث.. قطرات من دماء كليهما تلقيها في قاع "كيغار".

- لن أفعل، ابتعدي عنهما.

- غدًا يكتمل القمر في تاج السماء.. وعندها يحين وقت الاشتهاء.. آتِيني بإكسير السعادة وألقِهِ بملء إرادتكِ في الماء.

أفاقت من نومها مفزوعة. لكن هذه المرة لم يكن صراخها عاليًا، فلا يزال "رؤوف" نائمًا إلى جوارها. أسلمت ساقيها للريح، وفتحت باب البيت ووقفت خارجه، بعدما ضاقت نفسها داخله إلى حد الاختناق.

لم يكن حلمًا عاديًا تراءى لها، لم يكن مجرد كابوس أقض مضجعها.. الخوف المميت الذي يسري بداخلها ويقبض بأصابعه الباردة على روحها يخبرها بأنه حقيقة. حقًا قايضت حورية.. حقًا كانت تملك ذكريات مؤلمة تملأ تلك الفراغات في ذاكرتها، والتي لطالما حيرتها. هل يمكن لكل ذلك أن يكون حقيقة؟.. وماذا لو كان حقيقيًا؟.. أتقدم لها قربانها؟

قطرات من دماء "ريم" و"رؤوف" عند منتصف كل شهر.. كيف تفعل؟!.. كيف تؤذي أكثر شخصين تحبهما في الوجود؟

فلتفعل الحورية ما شاءت، لن تؤلم أحدهما قط.

ساءت حالتها كثيرًا. حاولت الخالة أن تتحدث معها، إلا أنها كانت صامتة صمت القبور. وعند عودة "رؤوف" من الخارج، أخبرته الخالة باضطراب أن "وعد" ليست على ما يرام، فاستبد به القلق أكثر، واقترب منها متفحصًا، بينما تتوسط الفراش جالسة تضم ركبتيها إلى صدرها، وترمي بعينيها الشاخصتين في فضاء الغرفة.

جفلت للمسته، فأبعد كفه متعجبًا:

- مالك يا "وعد"؟

عادت تنظر إلى الفراغ بعيون زجاجية، وعندما حاول مس كتفها مرة أخرى انفجرت باكية. حاول أن يضمها إلى صدره، فدفعته عنها تصرخ في وجهه:

- امشي.. سيبني وامشي.. مش ده اللي انت عايزه؟

عقد جبينه بشدة وهو يقول بحيرة، وقلقه عليها يزداد حدة:

- لأ يا "وعد" مش عايز أسيبك.. كل ده عشان موضوع البير؟

غطت أذنيها بكفيها، لا تريد أن تسمع عن هذا البئر. "رؤوف" أيضًا يخبرها بأن لها علاقة بهذا البئر.. علاقة لا تذكرها أبدًا. إذن فكل ما رأته في حلمها حقيقي.. الحورية، والقربان، وبئر "كيغار". تصاعدت وتيرة بكائها، حاول أن يقربها إليه، فدفعته مرة أخرى. نهض غاضبًا وهو يهتف بها قبل أن يغادر الغرفة:

- خلاص براحتك.. بس مش شايفة انك مزوداها قوي؟

سمعته يقول للخالة بصوت مرتفع بعصبية:

- بتدلع، أعملها ايه يعني!

لا تعلم لم قالت ما قالت ؟، فـ "رؤوف" أكثر من ترغب في قربه، وتحتاج إلى ذراعيه القويتين تطوقانها لتحمياها. لماذا تبعده عنها.. لا تعرف، لعلها الحورية.. نعم هي الحورية تنتقم منها لعدم منحها القربان.

تبًا لكِ ولقربانك.. لن أفعل.. لن أفعل!

****

تكرر الحلم في أول ليلتين من الليالي القمرية بنفس السيناريو، لكن هذه المرة كانت الحورية أكثر إصرارًا، وزادت حدة تهديداتها. كان يبعدها عن الليلة الأخيرة لاكتمال القمر بضعة ساعات.. نحلت كثيرًا فوق نحولها، حتى برزت عظام وجنتيها بشكل مرعب، وتجمعت هالات مخيفة حول عينيها. شعر "رؤوف" بجدية ما يحدث لها، لكنه كلما حاول الاقتراب منها أو الحديث معها انفجرت باكية وصرخت به ليبتعد. لعلها خافت أن تؤذيه دون أن تشعر، ولعلها خافت منه هو. فعندما نظرت إلى عينيه، رأت فيهما قسوة لم تعهدها، رأت أشواكًا كجلمود الصخر تنبت من عينيه، تنزف كل شوكة منها دمًا مختلطًا بالدمع. أشاحت بوجهها عنه، لا تقوى على النظر..

ابتعد.. بت أخشاك.. وعليك من نفسي أخشى!

صرخة "ريم" التي صدعت جدار قلبها دفعتها و "رؤوف" إلى الهرولة خارج غرفتهما، ليجداها جالسة فوق الأرض يتساقط من كفها سائل لزج لوَّن بلاط الغرفة بلون الدم!

اندفعت "وعد" بغير تفكير تلتقط منشفة "ريم" من فوق فراشها، وتلفها حول إصبعها تكتم به منابت الدماء، بينما أحضر "رؤوف" خلال لحظات ضمادة من أحد الأدراج وسلمها إلى "وعد". كانت تبكي بحرقة وخوف، تستند برأسها فوق صدر أبيها، الذي مسح على رأسها بآيات من القرآن.

طمأنتها "وعد" بحنان وهي تتطلع إلى الجرح الصغير الذي خلفه المقص الملقى بجوارها على الأرض، وبعتاب أخذ "رؤوف" يلومها للعبها به، فقالت ببراءة مبكية:

- كنت بلعب.. خالة "وعد" ماعدتش بتلعب معايا.

اغرورقت عينا "وعد" بالعبرات وهي تجذبها من "رؤوف" تضمها بقوة إلى صدرها وتهمهم بأسى:

- معلش سامحيني.. أنا كنت تعبانة شوية ومش قادرة ألعب.

شعرت "وعد" بمدى تقصيرها في حق الطفلة، التي باتت إحدى مسؤلياتها. أهملتها كثيرًا، حتى طعامها وشرابها تتكفل بهما الخالة أو "فتون".

عادت الخالة من الخارج، لتفاجأ بما حدث لـ "ريم". طمأنها "رؤوف" على صغر الجرح، الذي رأت "وعد" أنه لا يحتاج إلى تقطيب، ثم أخبرتهما بعد حين أن العمة "هِنّانة" تشعر بوعكة صحية، وطلبت أن ترى "رؤوف" و "ريم". تداركت الأمر وأضافت "وعد" حتى لا تثير حفيظتها، لكن "وعد" رفضت الذهاب متعللة بتعبها. كان يعلو وجهها الإرهاق، فلم يشأ "رؤوف" أن يلح في ذهابها، وطلب منها مهاتفته إن احتاجت شيئًا، تاركًا الباب مواربًا من أجل حوار طويل يجب أن يخوضاه معًا لتوضيح كل ما يحدث لها.

بعد رحيلهم، عادت "وعد" إلى غرفة "ريم"، التقطت المنشفة الصغيرة الملقاة أرضًا، وقد تشبع جزء كبير منها بالدماء. وبأيدٍ مرتعشة ارتدت ملابسها، وسارت تحت جنح الليل وفي يدها المنشفة، قاصدة بئر "كيغار"، آملة أن تتقبل الحورية نصف القربان!

وقفت على أعتاب البئر المتظاهر بالبراءة، وبداخل رأسها ألف سؤال وسؤال.. أتراها تؤذي "ريم" بفعلتها؟ لا لن تؤذيها، هي بضع قطرات من دمائها، فماذا بمقدور الحورية أن تصنع بها؟

لن تؤذيها، فقط ستنقذ نفسها بتلك القطرات من ماضٍ مؤلم يلوح في الأفق، كلما اقتربت من فراغاته بذاكرتها امتلأت خوفًا ورعبًا.

بأيدٍ مرتجفة ألقت المنشفة، لتسقط تمامًا في منتصف دائرة انعكاس القمر على المياه، فلمحت العينين اللتين تراهما في أحلامها على عمق قريب، تنظران إليها بسعادة, لم تطل البقاء، فقد سمعت أنينًا مخيفًا يصدر من أحد الأغصان.

ولت هاربة آملة أن تصل إلى البيت قبل عودة "رؤوف", لكن أملها قد خاب.. سقط قلبها عند قدميها وهي ترى نيران الغضب تشتعل في عينيه تلفحان جسدها بلهب حارق!

- كنتي فين؟

كيف تجيب؟!

- ليه خرجتي من غير اذني؟

أتراه يصدقها؟

- اوعي تفتكري إن الموضوع ده هيعدي بالساهل.

فعلت لأنها كانت مجبرة.. كيف تشرح له؟

- "وعد" اتكلمي.. كنتي فين؟

بصوت مبحوح ووجه شاحب كالموت أجابت:

- أنا تعبانة.

هتف بغضب البراكين:

- وايه الجديد.. بقالك أسبوع تعبانة.. تعبانة من ايه ماعرفش.. لا راضية تريحيني ولا تريحي نفسك.

ازدادت حدة نظراته الغاضبة وهو يقترب منها قائلًا بحزم:

- كنتي فين طول الوقت ده؟ "فتون" قالت انك خرجتي بعدنا على طول.. روحتي فين يا "وعد"؟

حانت منها التفاتة إلى "فتون"، التي أوصتها أن تبقى أمر خروجها سرًا، لتجدها منكسة الرأس تخشى النظر إلى عينيها. أغبية أنتِ يا "وعد"؟ كيف وثقتِ بها؟!

- لو ما قلتيش ايه اللي خرجك لوحدك في وقت زي ده.. اعتبري حياتنا مع بعض انتهت.

رمى بسهم مسموم، فأصابها في مقتل. تطلعت إلى وجهه غير مصدقة.. نظراته قاسية.. لمحت ارتعاش عضله في وجهه.. صدره يعلو ويهبط بسرعة كبيرة.. صوت أنفاسه يصل إلى أذنيها يلسع قلبها المنقبض. بدا وكأنه يغالب مشاعره، كلما حاولت عضلات وجهه الاسترخاء عاد ليقبضها بقوة، لا يشيح بعينيه عن وجهها منتظرًا إجابة سؤاله.. يتبعها قراره!

بعينين باكيتين تطلعت إليه هامسة بألم:

- عايز تطلقني يا "رؤوف"؟

اضطربت قسماته ولمع جبينه بالعرق، تدخلت الخالة "زمزم" بعدما وصلا إلى هذا المنحنى الخطير:

- خلاص يا "رؤوف" سيبها ترتاح وبعدين اتكلموا مع بعض

التفت "رؤوف" ينظر إليها بحدة، فتظاهرت بالجلد وهي تمسك "وعد" من ذراعها وتسوقها أمامها وهي ترمي لـ "رؤوف" بكلماتها:

- انت مش شايف هي تعبانه ازاي.. تلاقيها خرجت تتمشى.. ابقوا اتكلموا الصبح.

أغلقت باب غرفتهما، ثم التفتت تنظر إلى "وعد" قائلة بعدما اكتسى صوتها بالجمود:

- نامي دلوقتي والصباح رباح.. بس لازم تقولي لجوزك كنتي فين الساعة دي.. وخرجتي ليه من وراه.. "رؤوف" هيفضل طول الليل يهري وينكت في نفسه.. أنا حبيت بس ألم الموضوع لما لقيتكم وصلتم لحيطة سد.. بس اوعي تفتكري اني موافقاكي على اللي عملتيه.. عيب يا "وعد" يطلع منك كده ده انتي بنت أصول.

استقبلت كلماتها بالصمت، وبنظرات خاوية، فغادرت الخالة الغرفة، وأغلقت بابها بهدوء.

انتظرته طوال الليل فلم يجئ.. قرر عقابها بإطعامها مُر الهجر!

****

لثلاثة أيام بلياليهم كف عن الحديث معها، واتخذ من الأرض في غرفة "ريم" مهجعًا له. في صبيحة اليوم الرابع، أوقفته وهو خارج للعمل، فأشاح بوجهه رافضًا النظر إليها، فتحدثت تحاول استمالته إليها من جديد. أتراه كرهها؟!.. آلمها التفكير في ذلك، أينقلب الحب إلى كره بهذه السهولة؟

أجابت سؤاله بكلمات مضطربة، مدعية أنها شعرت بالاختناق فخرجت تتمشى..

- وليه ما قلتليش كده لما سألتك؟

بعدم تصديق سألها، وباضطراب أكثر أجابت:

- خفت منك لما كنت بتزعق.

بصرامة شديدة قال وهو يقترب منها ينظر إلى عينيها بحزم:

- "وعد" أنا مابحبش الكدب، ومابحبش اللف والدوران، هاقنع نفسي المرة دي باللي قلتيه، بس ممنوع تخرجي من غير اذني، انتي غريبة في البلد هنا، والبلد مليانة سياح مانعرفش ملتهم. كنت هعمل ايه أنا لو مجنون قطع عليكِ الطريق وانتِ لوحدك وضايقك ولا أذاكِ؟

- خايف عليا؟

بابتسامة دافئة سألته، وبعيون أجهدها السهر رمقته. سرى بعروقها خدر لذيذ وهي تستشعر خوفه عليها، ترى ذلك بوضوح في عينيه وخلجات وجهه. على الرغم من حدته، إلا أنها كانت سعيدة باهتمامه ورعايته.

ذاب الخصام بينهما كذوبان الثلج تحت قيظ السماء. ظنت أنها عادت مرة أخرى إلى جنات النعيم.. ولم تدر أن يومين فقط يفصلانها عن الحجيم!

****

لم تعد جسور الثقة بينهما متينة قوية.. شكوك كثيرة تعتمل بداخله، تجره إلى السهر وتحرمه النوم. يقرأ على صفحة وجهها ما يجعل علامات الاستفهام تزداد داخل رأسه، وتزيده حيرة، وكلما حاول أن يبحث بداخلها عن إجاباتها تولي منه هاربة.

لماذا أنكرت وقوعها في بئر "كيغار"؟ ماذا تخفي عنه؟ تلظى فوق فراشه الذي بدا بسخونة الجمر وبوخز أشواك الصبار، وهو يتأملها بين الفينة والأخرى بريبة آلمته. كيف يرتاب فيمن بها استراح وإليها سكن، لم يكن حبه لها عاصفًا، بل كنسمة رقيقة في صيف لاهب, حبًا بكل ما يحويه حرفا كلمة حب من احتواء و تلَبُسْ.. يحتوي مشاعرها وأفكارها.. يداعبها.. يقوِّمها ويقودها.. يعانق خلاياها وذراتها.. يدفئها.. يزينها.. ينشدها كما تنشد البلابل ألحانها؛ لذلك ضاق صدره بما صنعته بصمتها بينهما من حواجز, أشعرته أنها بعيدة عنه.. بعيدة جدًا.

انتظر حتى استغرقت في النوم، ثم توجه بخطوات خفيفة إلى الخزانة، تفحص ما بين ملابسها وفي الزوايا والأركان، يبحث عن شيء لا يعرف كنهه.. شيء يقوده لحل هذه الألغاز التي تدور حولها.

وجد في درفة أحد الأدراج بعض الروايات التي رآها مرة تقرأ واحدة منهن، فالتقطهن بهدوء منتبهًا ألا يصدر صوتًا يوقظها.

التفت ينظر إليها، فوجدها تغط في نوم عميق، فتفحص ما بين طيات الورق، حتى فوجئ بمغلف مطوي بعناية، فالتفت ينظر إليها مرة ، بعدما تحرك جسدها قليلًا ثم سكن.

التقط المغلف بسرعة وفتحه، ليجد خطابًا وورقة صغيرة دون فوقها عنوان ورقم هاتف. فض الخطاب سريعًا، والتهمت عيناه السطور بلهفة، يخشى أن يجد ما يقلب حياته رأسًا على عقب.

أصابه الوجوم بعدما انتهى. هاهي كذبة أخرى تعكر دنياه. لماذا كذبت بشأن وفاة أبيها؟ كيف لها أن تجرؤ على خداعه بهذا الشكل؟!

لم ينته بحثه عند ذلك الخطاب. استمر في التفتيش في أغراضها، حتى امتد إلى أغراضه هو، علها تخفي شيئًا بداخلها.

وعندما انتهى، توجه إلى هاتفها الذي تضعه بجوار الفراش، إلى قائمة الأسماء، وأخذ يفحصها اسمًا اسمًا، ثم قائمة المكالمات الصادرة والواردة، والتي اقتصرت على رقمه ورقم "سهام" صديقتها.

انتقل بعدها إلى الرسائل، ليجد جميع الرسائل بها تحمل اسمًا واحدًا.. "دنيا".. فتفحصها وصعقه ما قرأ!

شلته الصدمة عن الحركة، بل عن التفكير!

"وعد".. زوجته.. مجرمة.. ولها صديقات من عالم الإجرام!

لم يصدق.. لم يرغب في أن يصدق.. نظر إلى وجهها البريء وهي نائمة سائلًا نفسه: معقول مجرمة؟!

لم يتحمل ترك نفسه فريسة للظنون، ولم يسألها مخافة الإنكار.. يجب أن يتأكد بنفسه، والآن.

حمل هاتفه، وغادر الغرفة ثم البيت، لئلا يسمعه أحد. بحث عن اسم ما واتصل به، انتظر لثوانٍ بدت دهرًا، حتى أجاب الطرف الآخر:

- أهلا أهلًا بالعمدة.. ايه يا باشا أخيرًا افتكرتنا؟

باغته "رؤوف" بجدية بالغة:

- عايزك في حاجة مهمة جدًا ماحدش هيقدر يفيدني فيها غيرك.

اتسم الصوت الآخر بجدية مماثلة وهو يسأل بقلق:

- خير يا "رؤوف"؟.. واشمعنى أنا؟

- لأنك ظابط.. عايز أعرف معلومات مهمة عن واحدة.

- مين الواحدة دي؟.. ومعلومات ايه اللي انت عايزها؟

بصوت متهدج انفعالًا أجاب:

- عايز أعرف ليها سوابق ولا لأ!

****

أضمرت في قلبها حديثًا وهي تودعه إلى عمله في صباح اليوم التالي، بعدما تراءى لها في عبوس حاجبيه وحنايا جبينه قلقًا رهيبًا، لا تعلم إن كان منها أم عليها, باتت نظراته غامضة قاسية لم تفهم لها سببًا. غادر البيت وهو مُبغِض للمكوث فيه، يكاد يحترق على جمر انتظار مكالمة هاتفية من صديقه الضابط، ستثبت شكوكه أو تنفيها، وعندها سيواجهها.. ثم يخرجها من حياته إلى الأبد.

اعتصر قلبه عند الوصول إلى هذا الجدار المسدود، فتأجج الغضب بداخله؛ لأنها أرست بينهما جدارًا عازلا، لم تترك به ولو فرجة صغيرة ينفذ لها منها، لتلتقي دروبهما من جديد.

جددت "وعد" نشاطها بكوب من الشاي السيوي، أما الفطور فقد رفضت مسه على الرغم من الحاح الخالة "زمزم"، التي نشأ بينها وبين "وعد" شيء من الجفاء مؤخرًا، وهي ترى تصرفات "وعد" الغريبة، وحال "رؤوف" الذي لا يخفى على العين. إلا أنها آثرت عدم التدخل بينهما، حتى لا يزداد الأمر تعقيدًا، فكانت توجه نصائح مستترة إلى "وعد" من حين إلى آخر، عن دور الزوجة وضرورة طاعتها للزوج، خاصة إذا كان طيبًا يحبها ويحسن عشرتها مثل "رؤوف".

وعندما دارت تلميحاتها حول كم من عائلات سيوية كبيرة تتمنى أن يتزوج "رؤوف" إحدى بناتهن كزوجة ثانية أو ثالثة أو حتى رابعة، انقبض قلبها واغتمت، واتجهت صوب "ريم" التي تلعب تحت أحد الأشجار، وهي تحاول أن تتناسى مخاوفها التي زرعتها الخالة داخل رأسها.

لم يمض شهر واحد على زواجها، وها هي تخشى أن يأتي لها بزوجة ثانية! طمأنها قلبها أن "رؤوف" لن يفعل، فهو يحبها ولا رغبة له في سواها. أثارت تلك الأفكار شجونها، وبرقت عيناها بالدموع التي تساقطت فوق وجنتيها، تتمنى لو يمكنها إخباره بما يحدث لها. لن يصدقها، وإن صدق لن يتفهم.. عليها حل تلك المشكلة بمفردها، بطريقة تبعد الخطر عن "رؤوف" و "ريم".. لكن كيف؟!

- خالة "وعد" بتعيطي؟

مسحت "وعد" دموعها سريعًا، وهي ترسم مرغمة ابتسامة قائلة:

- لأ مش بعيط.

قبل منتصف اليوم، خرجت الخالة من البيت بصحبة "فتون" لزيارة العمة "هِنَّانة"، بعد أن ذكّرت "وعد" بشيء من اللوم أن عليها زيارة المرأة المريضة. بعد رحيلهما بساعتين أو يزيد، دب النشاط في "وعد"، وبدأت في ارتداء ملابسها استعدادًا لزيارة العمة، من أجل "رؤوف"، الذي سيسعده بالتأكيد هذا الاهتمام الذي تبديه تجاه عمته. سمعت فجأة صرخة عالية بالخارج، خالطها صوت تحطم قوي. اندفعت مسرعة، فهالها ما رأت..

"ريم" مخضبة بدماء غزيرة، ومكومة تحت أنقاض الأرجوحة التي تحطمت وسقطت فوقها. صرخت "وعد" بجنون وهي تزيح أنقاض الأرجوحة عن

الجسد الذي كف عن الحركة، وحملتها بين ذراعيها وهي تهرول بها باكية، تمنعها دموعها بين الحين والآخر من الرؤية بوضوح.

اندفعت صوب أحد المارة تصرخ به سائلة كأم مكلومة عن مكان أقرب مستشفى أو وحدة صحية. لم يكن في القرية سوى مستشفى صغير، أشبه بعيادة كبيرة، فهرولت في الاتجاة الذي أشار إليه الرجل، الذي سألها أن يحمل الصغيرة عنها، لكنها تجاهلت عرضه للمساعدة. اختلطت دموعها بدماء الصغيرة، التي خضبت وجهها، بعدما غادرت البيت ناسية أن ترتدي زيها كاملًا.

بمجرد دخولها المستشفى، حملت الممرضة الطفلة من بين يديها ودبت حالة من الذعر في الجميع لنزيف الطفلة الغزير. كانت "وعد" تكاد أن تنهار أرضًا، فاقتربت منها ممرضة تسندها وتسألها بلهفة عن مصدر الدماء التى عليها، إن كان منها أم من الطفلة، فبادرتها "وعد" بلهفة شديدة متجاهلة سؤالها:

- بالله عليكي طمنيني عليها.

نسيت "وعد" كل ما تعلمته يومًا بكلية الطب.. عندما يصبح المريض قطعة من القلب، يتشتت العقل!

- ما تقلقيش كتفها متعور والدكتور هيخيطه.. مش دي برده "ريم" بنت العمدة؟

لم تجبها، تركتها متحاملة على نفسها ودخلت غرفة الفحص، بعدما سمعت بكاء "ريم" ينبعث من الداخل. لفت ذراعها حول جسدها المسجي، وهي تقاوم الممرضة والطبيب، ومسحت بكفها المرتجف على رأسها وهي تهدئها بكلمات اختلطت بدموع عينيها، وانطلقت الذكريات داخل رأسها كلطقات رصاص تصطدم ببعضها البعض، محدثة دمارًا فشلت في السيطرة عليه.

أمها يوم أن سقطت من الألم في عرض الطريق.. انتظارها لها خارج غرفة العمليات.. دكتور "زياد" يرحل ويتركها وحيدة.. يعدها بالعودة يومًا ما لكنه لا يعود. "هايدي" وسوارها الذهبي.. الأخصائية مشيرة ووجه "هانم" البغيض.. "دنيا" التي تخلصت من حياتها منتحرة!

- أنا اللي عملت فيها كده!

كانت هذه إجابتها على سؤال الطبيب:

- ازاي اتعورت؟

التفت إليها ينظر لها بدهشة وهو يردد:

- انتي اللي عملتي فيها كده؟

لم تكن مجرد قطرات دماء اشتهتها، بل سلاح توجهه لـ "ريم" لتؤذيها. هذا من فعل الحورية التي لم ترض بنصف القربان..هذا من فعل "وعد" التي أتاحت للحورية فرصة إيذاء "ريم".. كيف فعلت شيء كهذا؟! كيف طاوعها قلبها أن تؤذي الصغيرة لتنجو بنفسها!

بدا لها بوضوح أن وجودها بالقرب من "ريم" و "رؤوف" خطر محدق على حياتهما. يجب أن ترحل عنهما لتحميهما من نفسها ومن حورية بئر كيغار الملعون!

اندفعت تهرول فجأة خارج المستشفى، لا تدري وجهتها. كانت كمن يفر من الجحيم, وكأن شياطين الدنيا تطاردها.. حجب البكاء عن عينيها الرؤية، فلم تلحظ وهي تعبر الطريق تلك السيارة القادمة بسرعة، وعندما رأتها جمدها الخوف... أو لعله اللاخوف!.. ثم.. أظلم كل شيء أمام عينيها!

****

وبينما كان الطبيب يتفحص رأسها وعينيها، كانت الممرضة تخلع الملابس عن سائر جسدها لتجهزها لفحص الطبيب، ثم ما لبثت أن قالت في دهشة:

- دكتور!

همهم متسائلاً وهو يكمل فحصه لحدقة العين:

- مفيش أي جروح في جسمها يا دكتور.

ضاقت عيناه وهو يتفحص رأسها وجسدها بدوره، ويتحدث إلى الممرضة -أو إلى نفسه-:

- ازاي يعني!.. ازاي مش مجروحة!

انتقلت حيرتها إليه، وتساؤلاته إلى رأسها، وتلاقت نظراتهما وبينهما ترتسم علامة استفهام كبيرة، لسؤال واحد تنطق به أعينهما: من أين أتت هذه الدماء التي تلطخ وجهها وكتفها وصدر ردائها؟!

دلفت ممرضة أخرى، وبمجرد أن ألقت نظرها على وجه "وعد"، بعدما نظفته زميلتها من الدماء شهقت قائلة:

- دي "وعد" مرات العمدة.. ايه ده؟ هو ايه اللي بيحصل.. من شوية جت وجابت بنت العمدة وهي غرقانه في دمها ودلوقتي هي!

تنفس الطبيب الصعداء وهو يقول:

- كويس عرفنا الدم اللي عليها ده جه منين.. وبنت العمدة عاملة ايه دلوقتي؟

- كويسة، جرحها اتخيط وزي الفل والعمدة معاها دلوقتي في الأوضة.. بس شكله كده مايعرفش ان مراته هنا، أما أروح أقوله.

- آه ياريت لان لازم ننقلها سيوة..

علت أمارات الفزع وجه "رؤوف" وهو يحوقل ناظرًا إلى "وعد" الفاقدة الوعي، والطبيب يشرح له حالتها، بينما اقترب منه سائق السيارة مذعورًا يقدم له اعتذاراته، ويقسم له أنها ألقت بنفسها أمام سيارته على حين غرة، ففشلت مكابح سيارته في أن تتفاداها. وخلال بضع دقائق، كان معها في عربة الإسعاف تاركًا "ريم" في رعاية الخالة "زمزم"، ومعها العمة "هِنّانة" وبعض من بناتها، بعدما اطمئن على حالتها.

ذكرته عربة الإسعاف بيوم أن ركبها يرافق زوجته الراحلة إلى حيث أحال عليها الثرى، فاشتدت قبضتاه حول كف "وعد" وشبح الألم يجثم فوق صدره، بينما عيناه تلمعان بنزف حارق، خائفًا من أن يتجرع مرارة الفقد مرة أخرى. قرب كفها منه، وكأنه يود أن يهبها بعضا من الحياة النابضة بقلبه، أو بعضًا من الأنفاس التي تمور بصدره، أو بعض الحرارة التي ينضح بها جسده، وتفتقدها برودة كفها.

وارتفع دبيب المنى بحديث النفس الموجع، خائفًا أن يعود البرود ليغلف حياته، كما فعل بعدما مس برودة كف زوجته الراحلة للمرة الأخيرة. كل شيء يتضاءل أمام حقيقة الموت، مهما كانت قوة الكره أو الغضب أو الألم أو القهر، فإنها تضمر وتتصاغر، نصطدم بحقيقة أننا أرواح تحتل أجسادًا لا تدوم، لها ميعاد ثابت لتنهار وتتلاشى فلا يبقى منها أثر عندها تغمرنا مشاعر الصفح والغفران. شعر في هذه اللحظة أنه مستعد لأن يغفر لهاكل شيء. فقط فلتفتح عينيها وتنظر إليه، وستتنزل على قلبه الرحمات.

مرت الساعة التالية بشق الأنفس، لم تفتر شفتاه لحظة عن الدعاء والابتهال أن ينجيها الله ويحفظها، حتى أخبره الأطباء أنها لا تعاني سوى من كسر في ساقها اليمنى، والتي تم تجبيرها، بالإضافة إلى بعض الخدوش والكدمات التي ستشفى مع الوقت. عندما أفاقت، أحالت قلبه إلى أشلاء بتشنجاتها ونحيبها

المتواصل. ظنها قلقة على "ريم"، فطمأنها وهو يبذل جهده في تهدئتها، فأخذت تصرخ به:

- أنا السبب.. أنا اللي عملت فيها كده.

- لا مش انتي.. المرجيحة وقعت بيها هي قالتلي.

- لأ انت مش عارف حاجة.. أنا السبب.. أنا اللي اديت دمها للحورية!

حدق بها بشدة وهو يسألها مندهشًا:

- بتقولي ايه؟

صرخت وهي تهتز وتختلج:

- أنا اللي أذتها.. أنا اللي اديت دمها للحورية.. بس والله ماكنت أعرف انها هتئذيها.

ثم أردفت وهي تجذب قميصه:

- ماكنتش أعرف.. أنا مش ممكن أبدًا أؤذي "ريم" يا "رؤوف" والله.

تبادل "رؤوف" و الطبيب نظرات حائرة متسائلة، ماذا يحدث لها؟! فشلت كل محاولاته في أن يفهم ما تقول، وقد أصرت على وجود حورية في بئر كيغار، أمرتها بإحضار قطرات من دماء "ريم" و"رؤوف" عند اكتمال القمر من كل شهر وإلا ستعيد إليها كل الألم الذي رغبت في التخلص منه.

أفاق من حيرته ودهشته على جدية الموقف الذي يجمعهما، وانفلت منه زمام التحكم في أعصابه أمام إصرارها على هذا الهراء، فانفعل يخبرها أنه لا يصدق ما تقول، وطلب منها أن تكف عن ذلك الجنون. لكنها فاجأته بأن قصت عليه كل ما كان يجهله، وكل ما اكتشفه ليلة أمس أثناء بحثه في أغراضها وهاتفها، بكلمات تقطر ألمًا، حتى ارتسمت على وجهه صدمة بالغة،

فار الدم في عروقه وهي تخبره بأنها أمضت ثلاثة سنوات من عمرها في المؤسسة العقابية لاتهامها بالسرقة.. تعترف إذن!.. تؤكد شكوكه!.. لا تنكرها!

اختلجت أنفاسه واضطربت نظراته، واختلفت أطواره من عدم تصديق، إلى صدمة، إلى غضب، ثم عاد إلى عدم التصديق مرة أخرى.

تساوى عندها الموت بالحياة، فلم تخف عنه شيئًا، وعندما انتهت شعرت بالفعل أنها وصلت للنهاية، نهاية سعادة وحياة طبيعية لم تدم طويلًا. لم تعد تملك طاقة للكلام أو للحياة، حتى لو منحت لها الفرصة مرة أخرى، استنزفت كل طاقتها ولم تعد قادرة على العطاء. ظلت ترتجف، حتى بعدما ساد الصمت بينهما، إلا من صوت أنفاسه المتلاحقة وبقايا نحيبها، وقد أرسلت رأسها إلى الوسادة خلفها، وأغمضت عينيها تنتظر الحكم عليها بالموت.

حتى فتحتهما مرة أخرى على صوت الباب يفتحه ويغادر الغرفة.

ودت لو يمسح عن كل جرح دماه, فتجاهل قلبها ولم يسمع نداه, رحل تاركًا خلفه جثة.. ودمعة.. وبعض الذكريات!

****

عندما سألته الخالة "زمزم" عن "وعد"، أجابها باقتضاب شديد. فعادت تسأل بتوجس لماذا تركها وحدها في المستشفى، فلم يجب.

انتظر رحيل نساء القرية اللاتي قدمن للاطمئنان على "ريم"، ثم اجتمع بعمتيه في معزل عن مسمع "ريم" النائمة في غرفتها، وأخبرهما بكل شيء. علت الصدمة وجهيهما من هول ما تسمعان، ثم ما لبث أن ظهر الحزن والأسى على وجه الخالة "زمزم"، التي أحبت "وعد" واعتبرتها كابنة لها، بينما تجسدت معاني التشفي على وجه العمة "هِنّانة"، التي نفثت عن سمومها قائلة:

- شفت.. حذرتك أنا ولا ماحذرتكش؟.. بقى تسيب بنت عمتك اللي تعرف أصلها وفصلها وتتجوز واحدة ماتعرفهاش؟.. أهي طلعت سوابق ورد سجون.. يارب احفظنا يارب.. لا وبتقولك بير وحورية.. يعني طلعت مجنونة كمان؟ بقى دي اللي انت اتجوزتها وأمنتها على بنتك؟

انفعل "رؤوف" قائلًا:

- الله يكرمك يا عمتي مش وقت الكلام ده.

- لأ ده وقته.. لازم تعترف انك غلطت.. ولازم تصلح الغلطة دي.. هي لا تنفعنا ولا احنا ننفعها.. تروح تشوفلها عيلة رد سجون تتجوز ابنهم.. لكن ولاد الناس لبنات الناس.

تمتمت الخالة "زمزم" بأسى وحيرة:

- يعني هنسيبها مرمية في المستشفى كده؟

فصاحت العمة:

- تتصل بأبوها ييجي ياخدها.. هي هترمي بلاها علينا ليه.. "رؤوف" يطلقها وتروح لحالها.

غار قلب "رؤوف" في صدره، فتمتمت الخالة مرة أخرى بحيرة:

- بس ايه موضوع الحورية دي اللي مصره انها أذت "ريم".

- طبعًا بتكدب.. لما لقت خلاص ان كدبها انكشف اخترعت حكاية الحورية عشان تضحك بيها على "رؤوف".. بأه ده معقول حورية في البير!

قال"رؤوف" شاردًا وكأنه يتحدث إلى نفسه:

- بس هي ماكنتش تعرف اني شفت موبايلها امبارح.. واني شاكك فيها.

هتفت العمة بثقة:

- ومين قالك انها ماشافتكش.. تلاقيها شافتك وعملت نفسها نايمة.. وتاني يوم اخترعت الحكاية دي.

ثم أضافت بمكر شديد:

- ولا تلاقيها هي اللي عورت البت "ريم" عشان تسبك الحكاية علينا.

اتسعت عينا "رؤوف" وهتف بحدة:

- لا طبعًا.. مستحيل "وعد" تئذي "ريم".. "ريم" قالتلي انها وقعت من على المرجيحة.. وأنا شفت المرجيحة من شوية، مافيش حاجة تدل على ان "وعد" بوظتها عشان توقع "ريم".

هل حقًا يثق أنها لم تحاول أن تؤذي "ريم"؟.. بدا كل شيء وثق به يومًا محل شك!

ثم قال شاردًا وكأنه يحدث نفسه:

- كانت خايفة عليها بجد.. لدرجة انها خرجت بالهدوم اللي عليها!

صاحت العمة وكأنها أمسكتها بالجرم المشهود:

- شوفت.. عشان تعرف انها ماتناسبناش.. في أول فرصة خلعت لبسها ورجعت لللبس المحزق بتاع بنات مصر.

ثم سكبت بعمد على الجرح ملحًا:

- وأكيد زمان رجالة القرية كلهم شافوها.

فاسود وجهه مغتمًا.

****

في الصباح، تحدث إلى ابنته.. سألها أن تحكي له ما كان من معاملة "وعد" لها. لم تخبره شيئا غاب عن إدراكه، علاقتهما طيبة جدًا، لكن قبل مغادرته لغرفتها أخبرته وعلى وجهها إمارات التردد:

- خالة "وعد" قالتلي على سر.

عاد يجلس بجوارها فوق الفراش وهو يسألها باهتمام:

- ايه هو السر ده يا "ريم"؟

هزت كتفيها وهي تهمس:

- مش هينفع أقول.. خالة "وعد" هتزعل.

- لا قولي ومش هتزعل.. أنا بابا مش هتزعل لو قلتيلي.. قالتلك ايه خالة "وعد".

أشارت له بكفها ليقترب، واقتربت من أذنه تخفي فمها بكفها وهي تهمس له:

- قالتلي اوعي تروحي عند البير عشان في حورية وحشة عايشة جواه.

تجعد وجهه وهو يسأل بأهمية بالغة:

- امتى قالتلك الكلام ده؟

- مش عارفة.

- حاولي تفتكري.. كان امتى؟

حاولت أن تتذكر، لكن ذاكرتها الصغيرة خذلتها، فهزت كتفيها قائلة:

- مش عارفة.

أصابته الحيرة أكثر فأكثر. كانت تحذرها من هذه الحورية وذاك البئر. هي لم تحاول أن تؤذي "ريم" أبدًا.. لا يمكنها، يعلم كم تحبها، سمع من الطبيب كيف

كانت حالتها عندما أتت للمشفى تحمل "ريم" بين ذراعيها، وكيف كادت أن تنهار خوفًا عليها.

لماذا تقوم باختراع قصة تجعل شكه بها يتزايد؟.. إن كانت أخفت ماضيها برغبتها، فلماذا تظاهرت بأنها لا تتذكر وقوعها في البئر؟ أليس هذا داعيًا لأن يشك بها؟ إن أرادت خداعه فلماذا تظاهرت بنسيان حادثة البئر، ولماذا أتت بفعل أحمق كالخروج ليلًا، ثم التبرير بعد أيام بعذر سخيف؟ ألم تفكر أن يكون ذلك مدعاة لشكه؟

ثم ألم تجد سوى قصة سخيفة كالحورية وبئر كيغار، لتبدد بها شكوكه حولها، أو لتقدمها له كعذر إخفائها لماضيها عنه؟ ألم تجد قصة أفضل من تلك لتقنعه بها؟

لا يمكن أن يكون ما رآه منها بالأمس مجرد تظاهر منها، كانت بالفعل خائفة على "ريم".. أكل هذه العبرات كانت زائفة؟!

يجب أن يتحدث إليها مرة أخرى!

يجب أن تفسر له.. وتعترف بالحقيقة كاملة!

****

أخبره الطبيب أن حالتها ازدادت سوءًا أثناء الليل، بعد مهاتفته للمستشفى للاطمئنان عليها. ودخلت في نوبات متتالية من البكاء كادت أن تصيبها بالانهيار التام، أشار عليه بضرورة عرضها على طبيب نفسي ماهر، لا يملكون مثله في سيوة، وعليه السفر بها إلى مرسى مطروح. كان ذلك بالغ الصعوبة بحال ساقها وبحالتها النفسية تلك، فنصحه الطبيب أن يعود بها إلى البيت ريثما تستقر حالتها.

وكفارس نبيل، لم يعتد أن يترك خلفه جنديًا جريحًا حارب يومًا إلى جانبه في معركة الحياة، حملها بين ذراعيه إلى السيارة، ومن ثم إلى الفراش الذي جمعهما يومًا.

نظرت إليه وقد حاكت ثوب الاعتذار بعينيها وقسماتها، فمزقها وثوبها شر ممزق بصوت جاف:

- هتفضلي هنا لحد ما حالتك تتحسن.. وبعدها كل واحد يروح لحاله.. أنا مش مصدقك ومش هصدقك.. ثقتي فيكي اتدمرت ومش ممكن ترجع تاني!

كم من حسرة فوق شغاف القلب نُحِت وجهها؟! وما يضيرُ فاقد الحياة من خنجرٍ في القلبِ؟!

****

ثلاثة أيام ظلت طريحة الفراش، منبوذة كتفاحة فاسدة فاح أسَنُها حتى اعتزلها الجميع، تستغفر عن جرم لم ترتكبه بالبكاء والأنين، تدخل لها "فتون" الطعام دون كلمة، وتعود لتأخذه كما هو ده أن تمسه، فقط تشرب بضع رشفات من المياه، ثم تسقط رأسها على الوسادة التي تشربت من دموعها حتى اكتفت. لم تر "ريم" خلال هذه الأيام الثلاث، ولم يقل شعورها عن شعور بائس لأم حرمت طفلتها.

مزقها الحنين إلى "رؤوف"، كحنين الدماء لمأواها في مجرى العروق. رفعت صوت بكائها، عله يصل إلى قلبه ويؤلمه.. ودت لو صار صوت أنينها أشواكًا توخز قلبه فتوجعه، تعذبه، تخنقه، تقتله، فلا يرى الخلاص إلا في أن ينسى ويصفح ويقترب!

بصوت متعب سألت "فتون" قبل أن تغادر غرفتها:

- "ريم" كويسة؟

- أيوة كويسة زي الفل بس...

تردد قليلًا ثم استطردت:

- بس العمدة مانعها تدخلك.

تجعد وجهها ألمًا، ولمعت العبرات في عينيها وسألتها بصوت مختنق:

- قال لها ايه عني؟

بإشفاق على حالها أجابتها:

- ماتقلقيش، قال لها انك تعبانة والدكتور قال ماحدش يدخلك.

أشارت إليها بالصينية التي لم ينقص منها الطعام وقالت:

- كليلك لقمة انتي ماكلتيش من ساعة ما رجعتي من المستشفي.

- مش عايزة يا "فتون".

انفتح الباب من خلفها، وأطلت الخالة "زمزم" بعنقها وهي تنقل نظرها من "وعد" إلى "فتون" والصينية التي تحملها. أخذت الصينية من يد "فتون"، وأشارت لها بالانصراف.

جلست بجوار "وعد"، ووضعت الصينية أمامها، واستندت بكلتا يديها إلى عصاها وهي تقول:

- هتفضلي مانعة نفسك من الأكل كده كتير؟

- ماليش نفس.

- لازم تكلي عشان الأدوية اللي بتاخديها كده غلط عليكِ.

بمرارة قالت "وعد" وهي تنظر إليها بأسى:

- ماتقلقيش هخف بسرعة وأمشي من هنا.. وعلى العموم ممكن تخلوا حد يوصلني الفندق اقعد فيه لحد ما أقدر أرجع القاهرة.

سمعتها تتنهد بقوة، وكأنها تحمل فوق صدرها حملًا ثقيلًا هي الأخرى، ثم التفتت لها قائلة:

- أنا ماشفتش منك إلا كل خير.. ورغم كل اللي قاله "رؤوف" أنا مش قادرة أصدق انك كنتي قاصده تضحكِ علينا.. قلبي بيقوللي انك بنت أصول ماتعمليش كده.. و "ريم" بتحبك قد عنيها.. وشفت طيبتك وحنيتك عليها.. والله أنا ما عارفه أقول لك ايه يا بنتي؟

دفنت "وعد" وجهها في وسادته وبكت بعنف، انتفضت كمن يريد الخلاص، فامتدت يد الخالة تربت على كتفها وهي تقول:

- استعيذي بالله من الشيطان.. ده شيطان عايز يفرق بينكم.. وأقولك الحق ولا تزعليش مني، أنا قد أمك.. انتي اللي اديتي للشيطان ده الفرصة.

التفتت "وعد" تنظر إليها متسائلة فقالت الخالة بحزم:

- أيوة انتي.. تقدري تقوليلي من ساعة ما دخلتي البيت ده ما شفتكيش بتصلي ولا مرة واحدة ليه؟!!

لمس السؤال وترًا حساسًا.. لم تنتظر الخالة جوابًا وقالت بثقة:

- ازاي ربنا هيباركلك في حياتك مع جوزك وانتي ما بتركعيهاش؟.. ازاي يحميكي وانتي بتعصيه.. ازاي يفتحها في وشك وانتي قافلة الباب بينك وبينه؟

ثم أردفت:

- أنا ماكنتش راضية أقول لـ "رؤوف" الكلام ده عشان ما أشعللش الدنيا بينكم، افتكرته خد باله وكلمك.. وقلت أنا مالي يصطفلوا سوا.. بس بما اننا قاعدين قعدة صفا طلعت اللي في قلبي وقلتهولك.

بشفاه مرتجفة وصوت متهدج قالت وهي ترمقها بأعين دامعة:

- تعرفي انك أول واحدة تقوليلي الكلام ده بعد ماما - الله يرحمها -؟.. من يوم ما ماما ماتت ماحدش قال لي صلي!

ظهر الحزن جليا مختلطًا بالشفقة في عيني الخالة، بينما تكمل "وعد" بنفس الصوت المتهدج:

- عارفة يعني ايه بنت عندها 16 سنة ترمي في الدنيا دي لوحدها من غير ما حد ياخد باله منها؟.. متخيلة أنا قد ايه عانيت عشان أحافظ على نفسي وأوصل للي أنا وصلتله ده؟.. متخيلة أنا قد ايه فرحت لما أخيرًا حسيت ان بقى ليا أهل وعيلة أحبهم ويحبوني؟.. أنا من يوم ما ماما ماتت مالقتش حد يطبطب عليا يا خالة "زمزم".

مدت الخالة يدها لتربت على كتفها وظهرها وهي تتمتم بكلمات حانية. ثقل صدرها بما تعانيه "وعد". قالت فجأة بحماسة:

- طيب قومي كده فوقي واسمعيلي.. طالما بتعتبريني أهلك وزي أمك يبقى تسمعي اللي هقولك عليه.

التفت إليها "وعد" وهي تقول بصدق، بينما تسمح عبراتها بكفيها:

- قولي وأنا هعمل اللي هتقولي عليه.

- دلوقتي هتقومي وتاخديلك دش بشوية ماية هقرالك عليهم قرآن.. على ما تطلعي اكون أنا خليت البت "فتون" تمسحلك الأوضة بماية وملح ونشغل

الرقية في الأوضة ونفتح الشباك عشان لو في حاجة الشر بره وبعيد تخرج.. اللهم احفظنا.. وبعدها تيجي بقى لخالتك "زمزم" هارقيكي وأحصنك.

بلهفة سألتها "وعد":

- يعني انتي مصدقاني يا خالة.. مصدقة اني فعلا شفت الحورية في البير وهي اللي خلتني أنسى؟

- مش هاكدب عليكي يا بنتي أنا الكلام ده مش داخل عقلي.. هو ده كلام يتصدق برضه؟

سألتها بحيرة:

- طيب والعرَّافة اللي حكتلك عنها.. وكلامها ليا زمان؟

- يا بنتي ده دجل وكلام فاضي بيضحكوا بيه على خلق الله.. سيدك النبي قال "كذب المنجمون ولو صدقوا".

اغتمت "وعد". فهبت الخالة منادية:

- بت يا "فتون".. انت يا بت.. تعالي هنا عايزاكي.

بعد الاستحمام بالماء المقروء عليه بمساعدة "فتون"، استرخت فوق الفراش، وعكفت الخالة على رقية جسدها كله وهي تمسح فوقه بكفها. أغمضت "وعد" عينيها، وسلمت نفسها إلى الخالة، وشعرت براحة كبيرة أذهبت الكثير من توتر الأيام الماضية. أمرتها الخالة بعد ذلك بأداء ذلك الركن الذي هجرته لسنين طويلة:

- يلا قومي صلي ركعتين توبة.. ابكي بين ايدين اللي خلقك.. ولو مالقتيش بكا ابكي غصب عنك.. هتحسي ان البكا طهرك وخلاكي خفيفة.. وهتخرجي من الصلاة وانتي قلبك فرحان .

تركتها الخالة لتشعر بالخصوصية، وخرجت من الغرفة. جلست فوق فراشها لتؤدي صلاتها، كطفل صغير يتعلم المشي لأول مرة.. رهبة كبيرة اجتاحتها وأرسلت القشعريرة في جسدها وروحها معًا.

لم تنتظر السجود لتبكي، قفزت العبرات إلى عينيها عند تكبيرة الإحرام، لم تعان من غياب الخشوع، ولم يكن استحضار قلبها صعبًا.. كان القلب حاضرًا نابضًا بكل محبة وإجلال وانكسار، بعد أن كان جافيًا ليس لجموحه لجام.

آلم الألم، وتمكن الندم.. خشع القلب فخشعت الجوارح..سمت النفس فوق الوجود.. طافت الروح حول محل الحب تروي عطش سنين من اللذة كؤوسا.

دقات القلب المتلهفة أرادت أن تستبق السجود، لكنه اغتم لبعد مسافة الجبين عن الأرض، الذي سببه كسر الساق، فبكى نزفًا، وازداد شوقًا، فأخرج حسرته ونثرها فوق محل السجود. تمرد على الجسد العاجز، وانسل نفسه من الجسد وسجد، وفي تراب الأرض تمرغ، فدق فرحًا لما حقق من مغنم.

حدثته كما تحدث نفسها، لم تتقن للدعاء دربا، لا كلمات محفوظة مسجوعة تناشده بها. لم تهتم بنظم ورسم، فخرجت كلماتها متخبطة، ساذجة، مبعثرة، لكنها كانت جدًا صادقة، لا يزينها سوى دموع المآقي، فتزلزل قلبها لصدقها، لا لحسن قافيتها وروعة لحنها.

لم تشعر بالباب الذي انفتح من خلفها، ولا بتلكما العينين اللتين أطلتا من فرجة الباب المفتوح، ولم تر ذلك التأثر الذي علا وجه زوجها وهو يسمع من

مناجاتها لربها ما استقر بسويداء قلبه. إنها ترجوه ألا يحرمها منه وابنته، ألا يعاقبها بحرمانها من نور عينيها ودماء قلبها، فبدونهما لا تستقيم لها حياة.

لم تشعر "وعد" بأن نحيبها ومناجاتها خرجا من الباب المغلق لتسمعها الخالة بالخارج، فدفعت بـ "رؤوف" إلى أن يفتح باب غرفتها ويراها. تعرفه جيدًا، وتفهم كل خلجة من خلجاته، تعرف أن رؤيته للجانب الصافي النقي من "وعد" سيذهب بعاصف غضبه، وسيرقق في القلب قسوته. من الرجال من يصحو قلبه على مشهد لفتاة جميلة، أو في الدلال والغنج بارعة.. لكن القلب الرؤوف يذوب إن رآها خاشعة.

لم تره، لكنها شعرت أنه كان هنا. فقبل أن ينصرف، ترك بعضا من روحه عالقة بين جدران غرفتها، لتفضح وجوده.

****

رغم أنها لم تكن مقتنعة بجدوى الذهاب، إلا أنها وافقت، علها الطريقة الوحيدة التي تثبت بها صدقها بعدما فشل الكلام في إقناعه، فتوقفت عن تسول حبه وعطفه. وصلا قبل ميعادهما بعشر دقائق، فجلسا على مقاعد الانتظار في الخارج، حتى نادت السكرتيرة باسمها، فتوترت ونظرت تحاول أن تستمد الأمان من "رؤوف"، الذي خاصم نظراتها.

غرفة أنيقة، مريحة إلى حد كبير، إلا أنها لم تبعث الراحة في نفسها المضطربة. كانت الطبيبة النفسية التي تحدث إليها "رؤوف" بشأن "وعد" طيبة القسمات، استقبلتها بابتسامة ودودة، وطلبت من "رؤوف" الانتظار خارجًا، وبدأت تتجاذب مع "وعد" أطراف الحديث، بتوجيه أسئلة شخصية بعيدة عن المشكلة، ثم باتت تقترب شيئًا فشيئًا من محل الصراع. انفعلت "وعد" تؤكد صدق ما حدث لها.. ليست مجنونة ولا مريضة نفسية، وليست كما

يراها "رؤوف" كاذبة مخادعة.. رأت الحورية في بئر كيغار، وقدمت لها خدمة جلية مقابل قربان.

مضت الطبيبة في الحديث بهدوء، توضح نقاطا عقلانية ومسلّمات بديهية، من منطلق أنها تتحدث إلى امرأة ناضجة وطبيبة مثقفة، لا يصح أن تؤمن بمثل هذه الترهات. تمزقت نفس "وعد" ما بين قوة المنطق وقوة ما رأت. حاولت أن تقاوم رأي الطبيبة في مواضع شتى، لكن مواضع أخرى كانت تصيب منها هدفًا، فتشتت تفكيرها وتصيب ثقتها بنفسها في مقتل.

هل كان كل ذلك وهمًا صنعته بخيالها كما تقول الطبيبة، ليحميها عقلها من آلام نفسية مدمرة، بأن عزل الجزء البشع من ذكرياتها عن إدراكها، وكل ما رأته وسمعته هلاوس بصرية وسمعية سببها مرض الذهان، الذي أصابها نتيجة ضغوطها النفسية كما تقول الطبيبة؟

كيف؟!

و "ريم" التي أصيبت بعدما منحت الحورية قطرات من دمائها، قضاء وقدر؟!

خرجت من الجلسة الأولى بنفس مشتتة، وعندما حاول "رؤوف" سؤالها باهتمام عما دار في الجلسة، جاوبته بصمت من لا يعرف الكلام، لم تكن في حالة تغريها بالكلام خاصة مع من يشكك بها ويتهمها بالكذب وفساد نواياها. أخبرتها الطبيبة بضرورة تناول أدويتها بانتظام شديد حتى الجلسة القادمة، ففعلت وهي بعقل غير مقتنع بجدوى العلاج، ولا بأنها تعاني من الهلاوس. ما حدث حقيقة لا خيال فيه!

انتظمت في أدويتها كما أمرت الطبيبة، ولم تترك الأذكار خاصة تلك التي ترددها قبل النوم ،كما أمرتها الخالة "زمزم"، والتي يوميًا كانت تحصنها وترقيها، فتتسلل الآيات القرآنية إلى أذنيها كشفاء لروحها وجسدها.

ظلت العلاقة بينها وبين "رؤوف" متقطعة أواصرها، اشتاقت كثيرًا لرؤية "ريم" التي أرسلها لتمكث عند العمة "هِنّانة"؛ أيخاف على ابنته منها؟ مزقها ذلك ألمًا بأكثر مما مزقها بعده عنها!

تجاوبت مع الطبيبة بشكل أفضل في الجلسة الثانية، عندما طلبت منها أن تحكي لها عن ماضيها. قصت عليها كل ما كانت تخفيه في سراديب مهجورة بعقلها.. انطلقت شظايا الماضي تؤلمها وتستجلب دموعها، فتتركها الطبيبة تبكي، فينساب من بين شفتيها الحكي مختلطًا بصوت نشيجها، ثم تعود وتهدأ، ويحل الصمت ضيفًا، قبل أن تكمل حكايتها.

شعرت وهي تتحدث بإضاءة مناطق من عقلها كانت دومًا مظلمة. كمصباح اعتادت دومًا أن تراه مطفأً حتى نسيته، وفجأة وجدت ضوءه ينير المكان، وعندها فقط تذكرت كم كانت بحاجة إليه.

كان حاجتها إلى اختلاق صورة غير تلك التي تعكسها مرآتها قد سلب جزء من ذاتها، حتى باتت صورتها في المرآة مشوشة بعدما ألبست الحقيقة عباءة التظاهر فذابت بين نسجها. اليوم شعرت أنها أزاحت عن كتفيها أحمالهما.. لم تعد بحاجة إلى التظاهر، لم تعد بحاجة إلى الكذب، لم تعد مضطرة إلى أن تعيش بحقيقة غير حقيقتها، لم يعد هناك فرق بينها وبين المرأة التي تراها الآن في عيون الآخرين, ، أصبحت انعكاسًا لصورتها وصورتها انعكاسا لها.

أشع من أعماقها ضياء الحكمة وهي تفطن إلى حقيقة أنها لم تعد تهتم بالنهايات؛ فلتكن النهاية كيفما أراد لها الله. المهم أنها تعلمت أن الراحة في قربه ورضاه، وفي أن تظهر أمام الآخرين كما هي.. بلا مكياج زائف!

لكن معتقداتها عن الحورية والبئر كانت لاتزال بنفس القوة. خرجت من الجلسة لتفاجأ بـ "رؤوف" يطلب منها أن تنتظره ريثما يتحدث إلى الطبيبة.

مكث بالداخل قرابة نصف الساعة، وعندما خرج فوجئت به يبتسم وهو ينظر إليها!

إنها المرة الأولى التي يبتسم لها منذ تلك الرحلة إلى مزارات سيوة. غابت عنها بسمته طويلًا، وعندما رأتها اشتاقت لمعانقتها. لكن نزف كبريائها كان لايزال يسيل، اتهمها بالكذب والآن يصدقها لمجرد أن شخصًا آخر أخبره أنها لا تكذب ولم تحاول خداعه!

أمن المفترض أن تمتن له شاكرة أن صدَّقها أخيرًا؟!.. لا ما حزر!.. أشاحت عنه بوجهها ففهم أن جرحها منه بليغ.

ركبا السيارة، وانطلق في طريقه. فوجئت به وقد وجه السيارة إلى حيث الرمال الناعمة البيضاء، التي تنتهي أطرافها ببحر مطروح الخلاب. كانت السماء بمنتهى الصفاء في ذلك اليوم، تشدو الأطيار في رحابها, والأمواج تداعب بعضها بغير قوة. تنسمت "وعد" الهواء المنعش الذي تسلل بين أنسجة ردائها.

كان الشاطئ خاليا إلا منهما، تحدث أخيرًا حينما ظنت أنه امتهن السكوت:

- اللي مرينا بيه احنا الاتنين مش سهل.. ومااعرفش إذا كنا هنقدر نعيش حياتنا بشكل طبيعي ولا لأ؟

أتبع كلماته صمتًا طويلًا، ثم أردف:

- فهمت من الدكتورة انك ماكنتيش بتكدبي وانك متوهمة فعلا انك نسيتي كل حاجة فاتت.

كظمت غيظها بصعوبة، ما لها وكلام الطبيبة!.. فلتقل الطبيبة ما شاءت.. هي واثقة من صحة ما رأت. أخطأ إن ظن أنه يساعدها بتسليط الضوء بطريقة فاضحة على ما يقض مضجعه كل ليلة. أكمل بصوت وكأنه قادم من كهف مظلم:

- بس الحقيقة اللي مش هتتغير هي اللي عرفته عنك.. أنا كلمت واحد صاحبي ظابط في القاهرة.. واديته اسمك وجابلي كل معلومات قدر يوصلها عن قضيتك.

لم يسألها.. بدلًا من ذلك كلف شخصا آخر بالتحري. أَظَنَّ أنها ستجيبه أكاذيبًا ؟

أردف وهو يلف رقبته لينظر إليها:

- مش هقدر أعاقبك على غلطة وقعتي فيها وانتي صغيرة.. بس في نفس الوقت مش قادر أشيل من جوايا إحساس اني اتخدعت في البنت اللي اتجوزتها.

التفتت له عندها تهتف بعصبية:

- وايه اللي مانعك انك تصلح غلطتك.. انت مش قلت ان بمجرد ما أخف انت من طريق وأنا من طريق؟.. أنا خلاص خفيت طلقني بقى.

لمحت في عينيه ألمًا تجاهلته وهي تهتف به بحدة:

- انت مش من حقك تحاسبني.. ولا أي حد في الدنيا دي من حقه انه يحاسبني.. أنا غلطت واتعاقبت وخلاص، مافيش حد بيتعاقب على نفس الذنب مرتين.. حرام عليكم ده ربنا مابيعاقبش مرتين!

كانت تلهث بشدة وهي تستطرد:

- أنا مش هترجاك تسامحني لاني ماغلطتش.. أنا كنت صريحة معاك.. وعمري ما كدبت عليك.. عايز تصدق صدق.. مش عايز تصدق انت حر.. وزي ما انت قلت خلاص ماعدش ينفع نعيش تاني مع بعض، يبقى مالوش لازمة الكلام.

أنهت جملتها واعتدلت في مقعدها تنظر أمامها، في إشارة إلى إنهاء الحديث، استجاب لإشارتها بأسرع مما توقعت، وأدار محرك السيارة؛ لكن قبل انطلاقه التفت إليها يسألها باهتمام:

- طيب هاسألك سؤال واحد وتجاوبيني عليه بمنتهى الصراحة؟

لم تلتفت له، فمد يده ليدير رأسها إليه، ينظر إلى عينيها الظاهرتين بعينين قويتين، ويقول:

- لو كنتي فاكرة ومش ناسية، وقتها كنتي هتصارحيني؟

أزاحت يده بهدوء وهي تقول ساخرة:

- وهتصدقني لو جاوبتك.. ولا برضه هتقول كدابة؟

- جاوبي سؤالي.

أجابت بثقة بالغة:

- عملتها من قبل ما أعرفك مع زميلي في المركز.. ايه اللي يخليني أخاف اني أعملها تاني معاك؟

أصاب الضيق صدره أن رجلًا آخر سبقه إليها، سألها:

- وزميلك عمل ايه لما عرف؟

سخرية مريرة ارتسمت على قسمات وجهها، لم يتمكن من رؤيتها لكنه لمسها في صوتها حين أجابت:

- عمل زي ما انت عملت بالظبط.. سابني!

****

كان لعودة "ريم" إلى البيت أثرا طيبا على نفسها؛ وكأنها كانت تعيش الحياة في غيابها بلا ألوان. ازداد ما تحمله للخالة "زمزم" في قلبها من حب، ذكرتها طيبتها وحنانها بـ "أم مرزوق"، تلك المرأة التي تنوي أن تعود إليها ليعيشا معًا ما تبقى لهما في هذه الحياة؛ وإن كانت لا تتصور الحياة في غياب "ريم" والخالة... ولا "رؤوف"، الذي أصبح داءها ودواءها.

ذكرها بدوائها بعد الغداء، فودت لو همست له لا أحتاج دواء.. لا أحتاج إلّاك.

تأملها وهي تتحدث مع "ريم"، التي تجلس بسعادة فوق ساقيها، فقاده الحنين إليها، وكبل الشوق قلبه في يديها، افتقد عطرها الآسر وملمس أنامله لحنايا كفيها، اضطرب قلبه يلومه أن حرمه دفء الحبيب، فتحررت اللهفة من أسوار عينيه وانطلقت لتعانق عينيها. استقبلت عيناها شوق عينيه بحبور، لما لها في نفسه من أثر، كزهرة تعيش لمنح النحل عن طيب خاطر رحيقها، فيزيد الجمال من فيض العطاء بحور.

بادلته نظرة بنظرة، وقايضت الشوق بالحنين، أصاب عمق عينيها ليرى أعماق الروح و ما تخفيه من حديث, لم تكن بحاجة إلى اخفاء فحاجتها إليه غلبتها، فندّت دمعة من عينها تشي بما في جدار الروح من شروخ.

ارتجف قلبه لمرأى الدمعات، واقترب منها على الأثر، فهب إلى جوار مهجتيه، لا يجد من الكلام إلا الفراغ بعد النقط!

كانت الصغيرة تتحدث بحماس عن شيء تلو الآخر، و"وعد" تجاوبها بالبسمات، والحنين يغلبها لذلك الذي يبعدها بسنتيمترات. نادتها "ريم" كما اعتادت أن تناديها: خالة "وعد"

ففوجئا بـ "رؤوف" يصحح لها بنبرة حانية:

- ماما "وعد"

لفت رأسها بسرعة تنظر إليه غير مصدقة.. فابتسمت عيناه.. فلمعت بعبرات التأثر عيناها.

وفي المساء، نامت الصغيرة ملء عينيها في فراشها الذي افتقدته، وجلست الخالة مع "فتون" تتسامران، أما العاشقان، القريبان البعيدان، فوضعا حدا لبعدهما، وأنهيا عهدًا من الجفاء، حاك الكلام رداء الغرام، يواجهان به القادم الذي لايزال يثير الخوف في قلبيهما، لكنهما توسدا الأمل وتدثرا باليقين.

****

مر أسبوعان يحاولان فيهما إعمار ما تهدم من جدار حياتهما. لم تعد خافية منها تخفى عليه، أصبحت أمامه ككتاب مفتوح يحتضن ما يخطه قلمه بشغف. حفظ خريطتها، علم أين تشرق الشمس ومتى يظهر القمر، وكيف تثور البراكين ولون أوراق الشجر، وعرف أماكن الوديان والجبال والسهول والحفر، وتعلم لغة الغزلان واختبر نزعات الغجر، وتنسم عبق التيوليب وغرق بفيضان الشجن، وأكمل بقلمه بعض الحدود التي محا آثارها الزمن.

وفي أول ليلة من اكتمال القمر، عاودتها نوبة الهيجان وهي تبكي وتتضرع إلى "رؤوف" ألا يخرج من البيت هو أو "ريم"، مخافة أن تصيبهما الحورية بمكروه. طفق يتحدث إليها بهدوء مذكرًا إياها بكلام الطبيبة، وبأن كل ما تقوله أوهام. أعطاها دواءها آملًا في أن تهدأ، لكن حدة بكائها زادت وهي تتشبث به بقوة بإحدى يديها وبالأخرى تحيط بـ"ريم"، التي تدور عيناها بحيرة وخوف في وجه "وعد".

جلست الخالة بجوارها تقرأ عليها القرآن، بينما شرد "رؤوف" وظهر عليه عمق التفكير. ثم هتف بها فجأة بلهجة آمرة لا تقبل المناقشة:

- قومي البسي.

نظرت إليه والخالة باستغراب، فأعاد أمره وتركها ودخل غرفتهما يرتدي ثيابه. لم تفهم، لكنها أطاعته. أرادت "ريم" الخروج معهما، لكنها لم تجد من يجيب بالموافقة. وفي السيارة كانت تشعر بالخوف وهي ترى تعبيرات وجهه، وبقلق سألته:

- احنا رايحين فين يا "رؤوف"؟

أثار امتناعه عن الإجابة المزيد من المخاوف بداخلها. وكما علمتها الخالة في وقت الأزمات، ظلت تردد الدعاء المأثور الذي ردده يونس في بطن الحوت: "لا إله الا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين"

اتسعت عيناها هلعًا، وأطلقت شهقة وبئر كيغار يلوح من بعيد. التفتت إلى "رؤوف" تتشبث بذراعه في رعب..

- "رؤوف" انت جايبنا هنا ليه.. "رؤوف"؟

ظل محتفظًا بصمته وبنظراته الجامدة. بكت وتوسلت إليه أن يبتعد بها عن هذا المكان؛ لكنه أوقف السيارة وترجل منها ودار حولها يفتح الباب لـ "وعد"، فرفضت النزول وهي تصرخ به أن يتركها، ثم كتمت أنفاسها ترقبًا لما يحدث.

لم يحاول جذبها، بل تركها ومشي في اتجاه البئر، ملتحفًا بغلالة الليل لا يهتدي إلا بضوء القمر الفضي، الذي يراقبه في تؤدة. أطلقت صرخاتها وهي ترجوه أن يعود، وألا يذهب للحورية بقدميه.. لم يلتفت لنداءاتها, فدفعها الخوف الذي طرق قلبها بجنون إلى الركض خلفه.

وصلت إليه عندما كان يبعد عن البئر بضعة خطوات، جذبته من ردائه الذي كاد أن يتمزق لشراستها وهي تصرخ به أن يعود.. بكت عليها تلين قلبه بدموعها. لكنه هتف بها بصرامة:

- "وعد" مافيش حورية في البير.. لازم تصدقي ده عشان تخفي.. مافيش حورية في البير.

قالت من بين تشنجاتها:

- لا، في حورية.. عشان خاطري خلينا نمشي من هنا.. يلا يا "رؤوف" نمشي.. صدقني في حورية.

دفعها برفق وهو يخلص رداءه من بين أظافرها، ثم خلعه وألقاه أرضًا. نظر إليها لبرهة يتأمل دهشتها، ثم التفت، وقبل أن تدرك ما يحدث.. قفز بجسده داخل أعماق البئر!

صرخت باسمه بقوة تفتت الحجر وتزلزل الأرض، وترج أركانا راسخات.. استندت بكفيها إلى السور المنخفض للبئر وهي تبحث بعينيها الباكيتين بلهفة عن أثره في الماء.. أطلق قلبها الملتاع اسمه ممزوجًا بصرخة أخرى، جعلت الطيور النائمة تفر من فوق الأغصان.

رأت في الماء عينين إليها تنظران، يسقط فوقهما ضوء القمر فتبرقان. لن تخسره وتتركه فريسًا لها، هو عندها أغلى من أن تدع لنفسها فرصة لمراجعة القرار. خلعت رداءها الخارجي، وبدون تردد ألقت بنفسها في البئر. إن أرادت الحورية قربانًا فلتأخذها هي.

شعرت بنفسها تغوص في الأعماق وهي لا تعرف للسباحة قوانين. ثم ها هما ذراعان قويان يحيطان بجسدها ويدفعان بها إلى السطح، لتأخذ شهيقًا عميقًا وهي تمسح وجهها وعينيها بكفيها، وصوت يهتف بها:

- انتي مجنونة!.. ازاي تنطي في البير؟

نظرت إليه ولايزال يطوقها بذراعيه، فبكت بحرقة وهي تطوق عنقه بذراعيها:

- شفت الحورية تحت المية خفت عليك.

دفعها عنه محوطًا لها بذراع واحد، وهو يشير إلى المياه حوله ويضرب سطحها بكفه الآخر بقوة:

- فين الحورية؟.. مافيش حورية!

نظرت حولها بتوجس تبحث في الماء، وعندما عادت بنظرها إليه، رأته يخرج مدية صغيرة من جيبه ويخط بكفه جرحًا أسال الدماء. صرخت وهو يضع كفه تحت الماء وينظر إلى عينيها ويهمس مهدهدًا أعصابها:

- مافيش حورية يا "وعد".. مش بتقولي انها عايزة دمي.. دمي قدامها أهو.. هي فين؟.. هي فين؟

تعلقت برقبته وهي تنظر حولها.. لا شيء.. لا تحتضن المياه الدافئة إلا جسديهما.. بئر عادي كأي بئر، لا حورية.. لا مقايضة.. لا قربان.

شعرت به يجذبها ليخرجا من المياه، ترسل الدموع ستارًا على عينيها، فكانت كالأعمى المُسَيَّر وهو يرفعها أولًا لتتعلق بحافة البئر وتخرج، ثم يقفز من خلفها. ارتدت رداءها تاركة وجهها لأنامل القمر.. ارتدى رداءه وجلس جوارها على حافة البئر.. تفرس في وجهها، يكاد يخترق بشرتها الرقيقة بنظراته ليرى ما خلفها، يشي وجهه بانفعالات شتى.

****

تذكرت الطبيبة وهي تحدثها بكلماتها التي لم تقم لها يومها وزنًا:

- "وعد"، انتي مريتي بظروف كتيرة صعبة.. كل اللي حكتيه وحاولتي توصليه جزء صغير من اللي موجود جواكي.. في حاجات مابتتحكيش.. وفي حاجات ما بتعرفيش انها موجودة جواكي لأن عقلك بيحميكي منها وبيدفنها في البير.. الأيام الأولى ليكي في سيوة شفتي مكان نضيف وناس طيبين، اتمنيتي لو كنتي اتولدتي هنا وعشتي هنا.. حتى أتصور انك اتمنيتي لو ماكنتيش "وعد" وكنتي ذرة رمل في أرض سيوة.. كنتي هتكوني سعيدة أكتر.

اقفر وجهها وتعكر، فأردفت الطبيبة:

- الصدمات الأخيرة واللي انتهت بانتحار "دنيا".. صاحبتك اللي فضلتي عشر سنين تستني خروجها من السجن عشان تشاركك وحدتك.. خلت عقلك يصنع قصة وهمية يتخلص بيها من كل حاجة بتوجعك.. استدعيتي ذكرى نبوءة العرافة اللي عقلك الباطن كان مخزنها طول السنين اللي فاتت، ونسجتي منها قصة عشتي فيها وصدقتيها، ثم أردفت:

- ولأنك صدقتي بنبوءة العرافة، كنتي مستنياها تتحقق.. أحيانًا بيكون عندنا قناعات ثابتة تجاه شيء معين، فبنختار وبنقرر حسب القناعات دي، واحنا فاكرين ان هو ده قدرنا واننا مجبرين عليه.. لكن في الحقيقة هو اختيار احنا اخترناه من ورا وعينا وأوهمنا نفسنا بحاجات غلط واقتنعنا بيها وصدقناها

أمالت بجسدها إلى الأمام وخاطبت عيني "وعد" بثقة:

- الحورية كانت انتي يا "وعد".. عقلك مسح ملامحها وساب عنها عشان ماتعرفيش انها انتي.. والبير ده جواكي من زمان مش من دلوقتي.. انتي اللى حفرتيه بإيدكي وبنيتي سوره.. بير كيغار كان جواكي انتي.

نظرت إليها يومها بأعين دامعة، فأردفت الطبيبة:

كلنا جوانا البير ده، بنخفي فيه الحاجات اللي بنخاف نفكر فيها واللي ما بنحبش نفتكرها.. بس مش معنى انك مش شايفاها انها مش موجودة.

أشارت إلى السجادة الكبيرة التي تتوسط الغرفة:

- شايفة السجادة دي.. تخيلي لو أنا نضفت الأوضة كويس قوي وخدت التراب وحطيته تحت السجادة.. هل معنى كده ان التراب اختفى؟.. رغم ان الأوضة شكلها نضيف والتراب أنا مش شايفاه، بس هو موجود.. تخيلي مرة في مرة التراب هيكتر قوى تحت السجادة وهيشكل عقبة في طريقي.. ساعتها هيبقى من الصعب اني أتجاهله، لأني بقيت شايفة أثره قدامي، ولو تجاهلته وعملت نفسي مش شايفاه هتخبط فيه وأقع.

يبقى ايه الأحسن.. اني أخفي التراب تحت السجادة، ولا أتخلص منه خالص؟

- أتخلص منه ازاي؟

- بالمواجهة.. بالكلام.. حتى لو المشكلة مااتحلتش.. الكلام بيريح.. بيطلع الطاقة السلبية اللي جواكي.. اتكلمي مع أكتر شخص بتحبيه وبتثقي فيه.. لازم يكون في حياتك شخص تفضفضي معاه ويكون مستودع لأسرارك.. حتى لو هتتظاهري مع كل الناس انك قوية.. لازم يكون عندك شخص تكشفي قدامه ضعفك وآلامك ومخاوفك.. ساعات، آلام كبيرة قوي جوانا بيكون دواها "كلمة" نسمعها من حد بيحبنا.

ثم نهضت من مكانها وغادرت مقعدها، وجلست في المقعد المواجه لـ "وعد" وهي تردف:

- ولو مش عارفة تتكلمي اكتبي.

- أكتب؟

- أيوة اكتبي.. اكتبي اللى بيضايقك.. ساعات الكتابة بتكون صعبة لأنك عارفة انك هتخرجي من جواكي شيء مؤلم.. وحش هتفتحيله الباب عشان تواجهيه.. لو حسيتي ان كلمة "أنا" بتعذبك.. استبدليها بـ "هي".. كأنها قصة واحدة صحبتك حكتهالك وللا حدوتة وهمية.. ضمير الغائب هيخليكي تبصي للي حصل من زاوية تانية.. اكتبيها بأي شكل، المهم تكتبي.

- وبعد ما أكتبها؟

قالت الطبيبة بنبرة خاصة:

- وبعد ما تكتبيها اهديها للشخص اللي كان سبب في كل اللي حصلك.

اهديها للشخص اللي بتتجنبي انك تفكري فيه.

اهديها للشخص اللي بتكرهيه بنفس قوة احتياجك ليه.

سكتت سكتة رهيبة، وطال شرودها وهي تجري على قلبها كلمة تخاف أن تنطق بها.. قبل أن تنساب عبرات ساخنة فوق وجنتيها وهي تهمس بشفتين مرتعشتين:

- تقصدي.. بابا!

بدت الكلمة غريبة على شفتيها.. على أذنيها.. غريبة إلى الحد الذي استجلب المزيد من دموعها، متشوقة لأن تمررها مرة أخرى بين شفتيها.

أخفت عن الطبيبة أنها حاولت الاتصال برقم والدها لكنها لم تجده رقمًا صالحًا وقد مرت عليه كل هذه السنون. لكنها دفعتها الآن إلى أن تفكر في العنوان الذي لايزال بحوزتها.. إنها بذلك ستنفذ وصية أمها ونصيحة الطبيبة بخطوة واحدة!

باغتتها الطبيبة بمرح:

- تعرفي انك محظوظة قوي؟

رفعت "وعد" حاجبيها دهشة فاستطردت الطبيبة:

- طبعًا محظوظة.. نجحتي في هدف رسمتيه.. وعايشة في مكان بتحبيه.. وعندك زوج أفضل من رجالة كتير.. بس خليكي فاكرة ان كل ده ماحصلش الا بسبب كل الحاجات المؤلمة اللي مريتي بيها.. السعادة بتتولد من رحم الألم.. لو ما دوقتيش طعم العذاب ماكنتيش دلوقتي هتقدري قيمة السعادة اللي بين اديكي.

****

توقف الشريط الذي مر بعقلها، وعادت إلى سكون الليل. ابتلع الصمت المكان، إلا من حفيف الأوراق المتراقصة فوق أغصانها. فتحت رئتيها ومسامات جسدها لتمتص عبق الواحة الذي لا تضاهي روعته أرقى وأغلى العطور، ثم التفتت تنظر إلى الرجل الذي ذهب بعيدًا من أجل مساعدتها على الشفاء.

تساءلت مرة عن شعورها تجاه أحدهم، هل كان حبًا.. الآن تعرف أن دقات القلب خدّاعة؛ لأن طبيعتها أن تدق على الدوام.

الحب القوي لا يقاس بعدد دقات للقلب في الدقيقة، ولا بما ترسله بقوتها في العروق من فوران الدم الثائر، بل يقاس بما أضاف الطرف الآخر لهذا القلب.. بماذا عمّر أركانه.. بماذا بناه، حب بناء يبني المحب ويجبر كسره، فإن لم يضف في قلب المحب جديدا، تساوت ضربات القلب بتلك التي تنبض داخل حشرة انجذبت بانبهار إلى ضوء مصباح أو صاعق!

****

فوق هذه الرمال أحبت العيش، وتحتها تحب أن تدفن، وبالمال الذي تركته لها "دنيا" في وصيتها ستبني في القرية مستشفى صغيرًا, ستعود حين يتم بناؤه إلى ما تعلمته في سنين دراستها بكلية الطب، لتصبح طبيبة نساء وتوليد، تداوي نساء قريتها اللاتي يفتقدن وجود طبيبة ماهرة في محيطهن.

ليتك هنا يا "دنيا"، لتعلمي أن الخير لايزال موجودا في هذه الدنيا!

تحولت إليه باسمة.. كان شاردًا يتأمل الرمال التي تجمعت حول قدميه العاريتين تروي ظمأها للماء. كان بإمكانها أن تعود إلى القاهرة، إلى حياة الصخب والملذات، وتتزوج أحدهم، طبيبًا مثلها أو ربما مهندسًا، وتنجب منه الأولاد وتدور بها عجلة الحياة في مدينة تصخب بالحياة. لكنها اختارت البقاء بين رمل الواحة وسمائها، ورسمت حدود كيانها بريشتها من حدود الواحة، ولونت أحلامها بلون أشجارها ونخيلها. اختارت حياة بسيطة ورجلًا تمر به عيون نساء مدينتها سريعًا فلا تكاد تراه، لكنها تحتاج له وتركن إليه.. فيزيد ضعفها من قلبه قوته.. لا تروقه امرأة تستغني عن قلبه بعقلها وترى الكون بعينها.. يرضي غروره أن تذوب فيه وفي زوايا صدره تختبئ ولرجاحة عقله تلتجئ وتستبدل بعينيه عينها.

همست له بأكثر لغات العالم قربًا لقلبه:

- أخْصاشْك.

داعبت ابتسامة العشق ثغره، وانبثق الفجر من محياه. لمحت في عينيه نجمة، تبعتها ثلاث نجمات تتألق في الملكوت الأسود.. اقتربت منهم كثيرًا، ففطنت لما غاب عنها من قبل.. لم يكن ما رأته من برق و شهب وأشواك ونجمات تسكن عينيه هو.. لم تكن عيناه نافذة لروحه.. بل توقف عملها

وخالفت نواميس الكون، لتعكس ما تكشف عنه أعماق روحها وذراتها التي تشكل جوهرها.

ارتجف قلبها، وفاضت عيناها بعبرة تأثر وانبهار برجل سكن بريق عينيها في مقلتيه.

ارتجف قلبه، وتموجت في دمه الكلمات لمرأى الدمعة التي انحدرت في سكون، فرفع كفيه لتوقع أنامله على وجنتيها عهدًا

ألا تُراق المزيد من اللآلئ أبدًا

****

أغلق "فرغلي" دفتي الدفتر، عندما نفد الحبر الأزرق من فوق السطور. أطلق تنهيده عالية في تأثر، وهو يمسح بظهر كفه عبرة أفلتت من عينه، ثم مد يده يلتقط رغيفًا يدفن به آخر قطعة من الجبن الريفي، ولفه طوليًا، ثم قضم منه قضمة أخفت نصفه في جوفه!

- ما تطفي النور بجى يا جدع انت، مش عارف أنام.. ما تخليك حسيس بجى.

التفت "فرغلي" يرمق "عويس"، الذي أنقذه وأصدقاؤه، ثم استضافه في داره وسمح له بأن يشاركه فراشه، قائلًا بغيظ:

- حسيس!.. خلي انت عند أهلك دم وقوم شوفلي حاجة أتعشى بيها.

هب "عويس" جالسًا وهو يهتف به:

- يا وجعة مطينة.. عشا ايه يا جدع انت.. واللي عمال تحشه في بطنك من ساعة ما دخلت الدار ده يبقى اسمه ايه؟

- انت هتسمي ده أكل.. كام رغيف وشوية جبنة.. يا عم ده أنا ضيف.. بطني اتهرت من الجنبة اللي ما شفتش غيرها من ساعة ما دخلت عندك.

فتح صدر ردائه على مصراعيه وهو يهتف:

- أشج خلجاتي.. ده انت طافح وكلي ووكل العيال.. كلني يا جدع.. كلني وخلص عليا عشان تستريح.

بكفه أشار "فرغلي" في وجهه:

- خلاص جتك الغم مش عايز أطفح.. نام.

ما كاد "عويس" يضع جسده فوق الفراش حتى أمره "فرغلي":

- قوم اطفي النور الأول.. عايز أنام.

نهض وهو يجز على أسنانه.. أغلق المصباح، ثم نام في المساحة الخالية من الفراش، بعدما التهم جسد "فرغلي" معظمه. دس "فرغلي" الدفتر تحت وسادته، وهو يفكر في الحاج "خليل" الذي يحتل ثلاجة الموتى بالقرية. شعر أن عليه دينًا لهذا الرجل، ولهذه الكلمات التي أباح لنفسه قراءتها، ولهذه الفتاة التي استجلبت عطفه بحكايتها. إن لم تنعم بأبيها حيًا، فلا أقل من أن تُمنح الحق في زيارة قبره ميتًا!

استعاد بتفكيره حال الحاج "خليل" خلال السنوات التي عرفه فيها، وكيف عاش وحيدًا بائسًا، حالت حدة طبعه وقسوته بينه وبين الآخرين فجانبوه. أما هو، فتطابق طريقهما في البداية لحاجته إلى العمل عنده، وبعد سنوات أكل

خلالها شهدًا، خسر الحاج "خليل" رأس مال تجارته، بعدما تعرض لعملية نصب من أحد التجار وباعه بضاعة تالفة.

لم تزده ملاحقة التاجر بالقضايا إلا فقرًا، بعدما استنزف المحامون ماله، فانتهى به الحال إلى الجلوس على المقهى القريب من بيته طيلة اليوم، بعدما كان كالنحلة التي لا تكف عن السعي والعمل وبناء الجبال من الأموال.

أما "فرغلي"، فاشترى سيارة أجرة بالتقسيط، ومضت السنوات حتى أتم ما عليه من ديون، لكنه ظل على لقائه بالحاج "خليل" على مقهى شارعهم، حيث كان يسكن بالقرب منه. وقبل هذه الليلة بسبع ليال، أتاه طرد يحمل اسمه، تسلمه يومها بتوجس، ولم يجب على تساؤلات "فرغلي" عن ماهية الطرد وهو يدسه تحت إبطه ويتوجه به إلى البيت.

وبعدها تغير الحال، لم يعد الحاج "خليل" كما كان، وكأن الطرد يحوى سحرًا أسودا مسه وقلب حاله. حبس نفسه في البيت لثلاثة أيام، فاستبد القلق بـ "فرغلي" الذي زاره. ظل يطرق الباب إلى أن بلغ قلقه منهاه، فكسر الباب الهزيل بجسده الضخم، وأخذ يبحث عنه في الأركان، حتى وجده فوق فراشه شاخصًا ببصره. بدا وكأنه كبر عشرين عامًا فوق سنوات عمره التي تقترب من الثمانين.. عيناه حمراوتان مثقلتان بالدموع. استبد القلق بـ "فرغلي" وهو يسأله عما به، والرجل لا يتحدث.. كان يهرب من الكلام أو الكلام منه يهرب!

وفجأة، بدا وقد أفاق من سكرته الآيسة، فنظر إلى "فرغلي" بغضب ينهره لاقتحام داره. وبصراخ عنيف أمره بالرحيل، حتى أنه تمادى متهمًا إياه برغبته في سرقته، فرحل غاضبًا وهو يعاهد نفسه ألا يهتم بهذا الرجل أبدًا.. فليتعفن فوق فراشه دون أن يدري به أحد، ما شأنه هو!

لكنه فوجئ باتصاله بعد يومين، يطلب منه خدمة عاجلة، أن يوصله بسيارته إلى "واحة سيوة". سأله "فرغلي" بدهشة عن سبب رغبته في الذهاب إلى هذا المكان البعيد، فأدهشته نبضات الألم التي شعر بها في صوته وهو يقول مرتجفًا:

- غلطة كبيرة ولازم أكفر عنها؛ لو كنت أعرف.. لو كانت بس.. رجعتلي!

الآن يفهم "فرغلي" معني تلك الكلمات التي عزف الحاج "خليل" عن شرحها له. يفهم ما هي الغلطة التي جعلت الندم ينهش جسده بأنيابه حتى صرعه ومات, لا يدري إن كانت المذكرات وحدها السبب, أم رواسب من ندم قديم زادته المذكرات قوة تفجرت بين جنباته.

لا يدري إن كان "خليل" قد بحث عن ابنته وأمها يومًا ليصلح ما أفسد، فصاحب الشأن قد مات وستدفن خطاياه معه، كفر عنها أم لم يفعل، فليس لأحد من البشر الحق في أن يحاكمه، بعد أن خرج من محكمة الدنيا إلى محكمة الآخرة. لو علم أن الموت سيسبق بخطوة واحدة رغبته في التكفير عن خطاياه، لما أذنب قط!

دفعت الطيبة والتأثر بـ "فرغلي" إلى أن يتخذ موقفًا إنسانيًا إيجابيًا مراعاة للعشرة. تم انتشال سيارته لتعود إلى الطريق الأسفلتي مرة أخرى، وكان لا يزال فيها الرمق، ولكن احتاجت لتصليحات قام بها ميكانيكي القرية، الذي دله عليه "عويس". وفي منتصف النهار، انطلق بها مكملًا وجهته التي خرج إليها بالأمس.. إلى واحة سيوة.

وبعد ساعات طويلة على طريق السفر، لم يكن الوصول إلى قرية "أبو شروف" صعبًا، ولا إلى البيت الذي قرأ عنه في المذكرات. توقف أمامه يسترجع وصف "وعد" له، دفع بيده البوابة الكبيرة المواربة، فوقع نظره على امرأة

عجوز تفترش الرمل تحت الشجر، كاد أن يظنها الخالة "زمزم"، إلا أن تقوس ظهرها ووجهها الذي أخفت ملامحه التجاعيد وهي تتحسس الهواء بكفها، لتتناول من طفلة صغيرة كوبا من الماء، جعله يعرفها على الفور. تلك المرأة التي نثرت ذكراها المسك في مذكرات "وعد".. "أم مرزوق"!..

وأخيرًا هدأت رحى الحياة التي امتصت رحيقها، ممتنة لظل شجرة التين الكبيرة التي تستظل بأوراقها ما بقي لها من أيام!

كاد أن يدلف من البوابة المفتوحة، لولا أن تذكر كلمات السائق لـ "وعد" في مذكراتها: لا يدخل رجل إلى البيت إلا بإذن "رؤوف"، فلحرمة نسائه ألف اعتبار!

نادي بعلو صوته، وانتظر دقيقة قبل أن يهتف مرة أخرى. خرج له رجل عرفه على الفور، أجادت وصفه في مذكراتها إلى الحد الذي لا يمكن أن يخطئه. لبرهة، حاول أن ينظر إلى عينيه بعمق محاولًا أن يرى.......

- أيوة.. اتفضل.

انتبه لنفسه متنحنحًا:

- احم احم.. أنا جايلك من مصر.. انت الباشمهندس "رؤوف" عمدة القرية مش كده؟

لفت لون سيارة الأجرة الأبيض والأسود انتباه "وعد" الواقفة في شرفة الطابق الثاني، فأسرعت بارتداء عباءتها وتوجهت إلى حيث البوابة المفتوحة، ووقفت خلفها تستمع بانتباه إلى ما يقوله الرجل. تنحنح "فرغلي" مرة أخرى وهو لا يدري كيف ينطق بما جاء لأجله:

- أنا.. كنت المفروض جاي امبارح.. مع.. مع الحاج "خليل".

هنا برزت "وعد" من خلف البوابة، ونظرت عبر كتف "رؤوف" إلى "فرغلي"، غابت عنه تفاصيل وجهها، إلا أنه لم يخطئ اللهفة في عينيها، فازداد تلعثمه وهو يقول بصوت حزين مشفقًا:

- الحاج "خليل" تعيشوا انتم.

تجمدت في مكانها، والتفت "رؤوف" ليطوق كتفيها بذراعه. كادت أن تلمع عيناها بالدمع، لكن صوت بكاء رضيع ملأ أرجاء البيت، فأخفت الدمعة طرف ردائها.. وتجلت الآمال بحسن بهائها!

تمت بحمد الله

2014 – 8 – 27

PM 12:38

* * *

شكر من القلب

إلى كل من قال لي: تستطيعين أن تكوني!

وإلى كل من آمن بقلمي ودعمه وشجعه وهذبه وعلمه

فكانت آراؤكم هي بوصلتي

وعيونكم مرآتي

شكر خاص

جمعت كلمات الشكر مع الثناء، ورصصتها بفخر إلى من أسبغ عليّ من فيض فنه الأدبي، فاستطعت بتوجيهه التفلُّت من قيود الدوران في دائرة التكرار، ودفعت بقلمي نصائحه إلى التقرّب من مُثُل الأدب، وحاولت فيها الارتقاء، فله مني جزيل الشكر والامتنان

إلى د. أحمد السعيد مراد

شكر خاص جدًا

إلى داعمي الأكبر.. الذي أهداني غلاف الرواية

أبَى الغلاف أن يحمل اسمي وحيدًا.. فاجتمع فوقه اسمَينا

إصدارات أخرى للدار

الروحاني: أحمد الملواني

مش من هنا: نوره واصف

إيماجو: دعاء عبد الرحمن

رحلة لـ100 عبيط: عمر عباس